التخطيط الاشتراكي

للدكتور عبد الله عبد الدايم

التحدي الكبير الذي يواجه الدول السائرة في النمو ـ ومن بينها الدول العربية ـ هو تحقيق تجربة اشتراكية ناجحة ، واقامة البنيان الاشتراكي المتين القادر على تحقيق العدالة الاجتماعية من جانب ، وعلى توفير التنمية الاقتصادية وزيادة الثروة القومية من جانب آخر .

ولا نغلو اذا قلنا ان بناء التجربة الاشتراكية مهمة شاقة ، وعمل دائب صبور ، وجهد موصول ، ونفس طويل ، لانزق فيه ولا تعمية . وادراك أعباء هذا البناء ، وتبين صعوباته أمر لازب واجب ، يلعب الدور الأكبر في نجاح التجربة الاشتراكية .

لقد زال في عصرنا الحديث ـ الى غير رجعة ـ زمن الادعاء وتبسيط الامور وتسهيلها على النفس وعلى الآخرين . ولم يعد مجديا ـ في استراتيجية الحرب والسلم ، في التعبئة الاجتماعية والاقتصادية وفي كل شيء ـ أن نعتبر المشكلات محلولة وان ندعي ان في يدنا عصا سحرية تغير الكون بين عشية وضحاها وتنقلنا الى جنة عدن بين صباح ومساء . وما هو أجدى وابقى ان ندرك الصعاب ـ دون ان نهابهـــا . . وادراك حقيقة المصاعب هو وحده الذي يدرأ خطرها والخوف منها ، والجهل بالمصاعب ـ الجهل بمقاييسها وطبيعتها وقوانينها ـ هو الذي يزيد في حجمها ويخلق الخوف الحقيقي منها والجبن الفعلي أمامها . وأسرع الناس فراراً من ساحة الوغى هو الذي لم يخبر فنون الحرب ، ولم يتمرس بشدائدها .

ان البلدان الآخـــذة في طريق النمو ، والـــتي ماتزال تشكو التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، موضوعة بقسوة أمام الاحراج التالي :

ان تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية فيها ـ فضلا عن تحقيق العدالة ـ لايمكن ان يتم عن طريق نظام الاقتصاد الرأسمالي ، نظام الاقتصاد الحر . ولا بد لها ـ كما يكاد يجمع على ذلك علماء الاقتصاد في الشرق والغرب ـ من انتهاج الطريق الاشتراكي اذا هي أرادت ان تتغلب على تخلفها وان تلحق بالركب وتحقق التنمية والعدالة .

غير ان انتهاج الطريق الاشتراكي ـ وهذا هو القرن الثاني للاحراج كما يقول المناطقة ـ درب مليء بالأشواك والمصاعب . والوصول الى غاية الطريق لايمكن ان يكون الا بعد عرق ونصب ومجالدة طويلة .

اجل ضمن ظروف حياتنا الحالية ، وضمن الاوضاع الدولية والمحلية التي توجد فيهاالبلدان المتخلفة والسائرة في طريق النمو ، يلقى على هذه الدول قدر نبيل وعسير ، قدر السير في الطريق الاشتراكي من اجل عدالة الانسان ورفاهية الانسان وسعادة الانسان وكرامة الانسان وقيم الانسان . ولكنه سير مقدس رهيب ، على ارض غير معبدة ، كثيراً ماتزل فيها الاقدام ، وكثيراً ماتفقدو الاحلام والآمال فيها سراباً .

وعلى هذه الدول ، لامحالة، ان تقتحم هذا القدر ، وعليها ان تدرك ان السفينة ،لابد ان تبحر الى امام ، ولا بد ان تركب الامواج ، من اجل الوصول الى شاطيء السلامة . غير ان عليها ان تدرك ، اولا وقبل كل شيء ، ان اقتحام الطريق يغدو مغامرة بالنفس وبالآخرين ان لم تسعفه الاسلحة اللازمة ـــ اسلحة العلم والمعرفة والتبصر . ان عليها ان تدرك ان التراجع عن التجربة الاشتراكية ليس هو الحل ، فمثل هذا التراجع يعني ، بالقياس الى هذه الدول ، مآسي ومصاعب وبؤسا يفوق بما لايقاس كل مايمكن ان تتعرض له التجربة الاشتراكية من متاعب مؤقتة . والحل كل الحل هو في تعبئة القوى جميعها ـــ قوى الحكام والشعب ، قوى الاقتصاديين

والمثقفين ، قوى الفنيين والاخصائيين ، قوى العلم والصناعة والتكنيك الحديث — في سبيل اجتياز التجربة الاشتراكية بأقل مايمكن من آلام ومتاعب واخطاء . ولا تتم هذه التعبئة الا اذا نهض وعي صريح جريء لدى القادة والشعب ، والا اذا اعتبر المواطنون جميعاً ان التجربة تجربتهم وانها تعنيهم جميعهم ، وانها ملكهم ، وان نجاحها رهين بمقدار مايبذلون من جهود وان فشلها سيرتد بؤساً وتعاسة على كل فرد وعلى الوطن . ومثل هذه القناعة لاتتكون لدى المواطنين الا اذا قامت توعية حرة صريحة ، ماهي بالدعاوة المذهبية ، ولكنها شرح وتوضيح وحوار فكري متبادل .

وكلمتنا هذه تطمح الى ان تضطلع بجانب من المهمة الملقاة على عاتق اصحاب القلم والرأي في الوطن العربي . وهي لاتعدو ان تطرح الموضوع وتثير المشكلة ، ليتلقفها بعد ذلك اربابها من ذوي الخبرة ، فيزيدوها جلاء ويقلبوها على جنباتها المختلفة .

* * *

ولنبدأ من البداية : لنبدأ من حتمية التجربة الاشتراكية لدى الدول المتخلفة والسائرة في طريق النمو .

يكاد يجمع علماء الاقتصاد اليوم ان اوضاع التخلف الاقتصادي والاجتماعي التي توجد فيها مثل هذه الدول اوضاع لايمكن ان يجدي في حلها نظام الاقتصاد الحر ، ولا بد فيها من نظام اقتصادي اشتراكي ، يفسح المجال الكبير لتدخل الدولة في تسيير عجلة المجتمع ويوجه الاقتصاد المتخلف نحو اسس جديدة تمكنه من ان ينمو ويقدم الخدمات الحقيقية للمواطنين .

ولا يتسع المجال للحديث عن جميع المبررات التي تجعل قيام الاقتصاد الاشتراكي امراً لازباً عند هذه الدول المتخلفة والنامية . وحسبنا ان نقول ان هنالك مغالطة كبرى يقع فيها انصار الاقتصاد الرأسمالي عندما يحاولون المقارنة بين اوضاع الدول الرأسمالية المتقدمة واوضاع الدول المتخلفة والناشئة . ذلك ان الدول المتقدمة اليوم التي تأخذ بالنظام الرأسمالي لم تكن في مرحلة تخلفها في وضع مشابه لأوضاع الدول المتخلفة اليوم . وهي بالتالي بدأت في القرن السادس عشر وما بعده من اوضاع وظروف لايمكن ان نشبهها ابداً بالظروف والاوضاع التي توجد فيها الدول التي تدعى اليوم بالدول المتخلفة او السائرة في طريق النمو . ومن حق اقتصادي اشتراكي مثل « بيتلهيم Bettelheim » ان يبين المغالطة القائمة في التعبير الشائع ، تعبير « الدول المتخلفة » ذلك أن هذا التعبير قد يوحي أن الفارق بين الدول المتقدمة والدول الناشئة هو في مرحلة التقدم ، وانه بالتالي فارق زمني ، فارق في العمر ، كأن الدول الناشئة تجتاز اليوم نفس المرحلة الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الدول المتقدمة قبل عشرات السنين . والواقع غير ذلك : فالدول التي تدعى بالمتخلفة ليست في مرحلة من النمو يمكن ان تشبه وتماس

بأي مرحلة سابقة من مراحل النمو التي اجتازتهـا الدول المتقدمة . ووجود هذه الدول الناشئة وسط عالم متقدم ، وخضوعها لاقتصاد الدول المتفوقة ، وتبعيتهـا للاستعمار فترة طويلة ، أمور تجعلها اليوم في وضع لايمت بقليل أو كثير الى وضع الدول المتقدمة قبل قرن أو قرنين او ثلاثة قرون من الزمان . ومعنى هـذا أن التطور الذي ينبغي ان تسير فيه لا يمكن ان يحذو حذو التطور الذي سارت فيه تلك الدول خلال قرون طويلة ، ان البلدان المتقدمة لم تعـان مثلا ايام نشأتها الاولى آفات الاستعمار والتبعيةالسياسية والاقتصادية ، تلك التبعية التي جعلت اقتصادالدول الناشئة يتصف بصفات خاصة : منها ارتباط الاقتصاد الوطني بالاقتصاد الاجنبي ؛ ومنهـا سيطرة أنواع معينة من الانتاج ، هو الانتاج الذي يخدم المستعمر ؛ ومنها نمو الصناعات الاستخراجية التي تمولها رؤوس اموال أجنبية والتي تكتفي باستخراج الموارد الطبيعية الموجودة في البلد وتهلهـا في حالتها الخـام الى البلدان الرأسمالية ، كما يجري مثلا في البترول والمعادن في كثير من البلدان العربية ؛ ومنها التباين بل التناقض في مرحلة النمو بين قطاعات الانتاج المتخلفة ، اذ نجد فرطاً في نمو بعض القطاعات التي تخدم خاصة اقتصاد البلدان المتقدمة ، وضموراً مفرطاً في القطاعات المنتجة لجمهور الشعب ، ونجد تقدما ظاهرياً في بعض جنبات الحياة يرجع الى انتشار المنشآت التي تستهلك انتاج الاقتصاد الاجنبي ، بينما يحفر التخلف والتأخر في الاعماق ويسريان في الشرايين الاساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ويزيد في أهمية الطابع الخاص الذي تتصف به الدول المدعوة بالمتخلفة او السائرة فيطريق النمو ، الظاهرة السكانية التي تعاني منها ، وليس المجال هنا مجال الحديث عن ظاهرة النموالسكاني هذه وعن ضخامتها وعن آثارها الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة . وحسبنا ان نقول موجزين ان معدل تزايد السكان في بلاد أوروبا في المراحل الاولى من نموهـا كان يقل عن $\frac{1}{2}$ ٪ في السنة ، بينما نجد ان متوسط زيادة السكان في البلدان المتخلفة والنامية يبلغ حوالي ٢،٢ ٪ ، وهوفي بعض هذه البلدان يجاوز ٣،٥ ٪ كما في المكسيك والمغرب والفيليبين . بل انه يصل في بعض المقاطعات المعزولة (من مثل مداغشقر وجنوبي داهومي) الى ٤ ٪ في السنة ، وواضح اننـا اذا اردنا الارتفاع بمستوى شعب من الشعوب بمقدار ٢٪ في السنة ، وكان هذا الشعب يزداد عدده بمعدل ٣ ٪ في السنة ، لوجب علينا ان نزيد في الدخل القومي الخام بمقدار ٥٪ في السنة . ومعنى هذا ان علينا ان نوظف في الاستثمارات (في المشروعات التي تؤدي الى تنمية) ٢٢،٥ ٪ من هذا الدخل القومي ، وتوظيف مثل هذا المقدار لايمكن بحال من الاحوال ان يتم ضمن ظروف الاقتصاد الحر ، ففي مثل هذه الظروف يستحيل على احسن البلدان ان توظف مثل هذه النسبة من دخلها القومي في المشروعات الاستثمارية الانمائية . وهذا ما تدل عليه الاحصاءات المتوافرة في الدول

العربية وغيرها : فمعدل التنمية الصافي في البلاد العربية بين عام ١٩٥٠ و ١٩٥٦ لم يجاوز ٤،٤٪ في سورية و ٢،٢٪ في مصر و ٤،٧٪ في لبنان و ٣،٦ ٪ في المغرب و ٢،٥٪ في الجزائر . ومعدل الاستثمار لم يجاوز ١٦٪ في معظم الدول العربية عام ١٩٥٦ . بينما لم تضطر الدول المتقدمة الرأسمالية اليوم الى ان توظف في بداية انطلاقها وتطورها اكثر من ٥٪ او ٦٪ من دخلها القومي في المشروعات الاستثمارية .

لهذا كله يبين اقتصادي شهير هو « بول بيروك Paul Bairuck » في كتاب له صدر في العام الماضي عن « الثورة الصناعية والتخلف » ان العصر الحديث لم يعرف منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم أي دولة متخلفة استطاعت ـ ضمن النظام الرأسمالي الحر ـ أن تتغلب على تخلفها وأن تنطلق في طريق الاقتصاد النامي (باستثناء كندا وجزء ضئيل من بلدان امريكا اللاتينية كشمال الارجنتين وجنوب البرازيل وقلب شيلي وجزء من المكسيك) . أما الدول الرأسمالية المتقدمة اليوم فقد وجدت أيام انطلاقتها الاولى في ظروف خاصة وعلى رأسها النمو المسبق للانتاج الزراعي ، وتراكم التطور الاقتصادي والنمو الاقتصادي خلال سنوات طويلة ، وقلة الزيادة السكانية ، والافادة من ثروات المستعمرات ، ثم التطور العلمي والتكنيكي فيما بعد . يضاف الى هذا أن الذي ميز النمو الاقتصادي في اوروبا والولايات المتحدة هو ان نقطة انطلاقه ـ على حد قول « شومبيتر Schumpeter » ـ كانت في تقديم بضائع ومنتجات وخدمات جديدة تدر عليه الارباح والثروة ، بينما قوام ارادة التغيير والتنمية ، في البلدان المتخلفة والنامية ، الرغبة في الحصول على استهلاك أوفر ورفع القدرة الاستهلاكية لدى المواطن ، والفارق بين الامرين حاسم قاطع .

ان هذا كله يفرض اذن اللجوء الى تدخل الدولة ، باسم المجتمع ، في هذه البلدان، تدخلا واسعا ، انه يفرض اللجوء الى التخطيط الاشتراكي . وهذا مانجده في معظم هذه الدول اليوم في امريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا . وماعلى هذه الدول ـ ان هي ارادت حقاً ان تتملص من القلق والمصاعب ـ الا ان تحزم أمرها من اجل تعبئة الجهود جميعها في سبيل اقامة النظام الوحيد القادر على البقاء والصمود والقادر على خلق الطمأنينة والاستقرار نعني النظام الاشتراكي . ان كل شيء في بنية النظام الاجتماعي والاقتصادي في هذه البلدان المتخلفة والنامية ـ وعلى رأسها البلدان العربية ـ يومىء الى ضرورة اقامة نظام اقتصادي مبني على تخطيط اشتراكي سليم، ويفصح خير افصاح عن عقم البنية الرأسمالية وعن قصر عمرها .

والخطأ كل الخطأ في هذا الميدان أن نأخذ بمنطق ردود الفعل ، فنندفع نتيجة لبعض صعوبات النظام الاشتراكي واخطائه ـ الى العودة الى نقيض له زال وانقضى ، نعني النظام الرأسمالي فالنظام الرأسمالي لايمكن ان يكون بديل النظام الاشتراكي المتعثر ، وبديل النظام الاشتراكي المتعثر نظام اشتراكي اكثر وعياً وتجنباً للاخطاء، بديله تضامن مشترك من أجل إنجاح

التجربة الاشتراكية عن طريق تصحيح أخطائها وضمان تخطيط سليم لها .

* * *

وهنا ننتقل الى الشق الثاني من بحثنا ، فلئن كانت الاشتراكية قدر البلدان المتخلفة والسائرة في طريق النمو ، فهذا لايعني ان علينا ان نقبلها منفعلين وأن نخضع لها دون ان نخضعها ونوجهها. ولئن كان النظام الرأسمالي عدواً للتجربة الاشتراكية ، فن الصحيح ايضاً ان التجربة الاشتراكية تغدو عدو نفسها ان هي لم تهيء الشروط اللازمة لنجاحها ، ولم تتمسك بأسباب العلم والوعي والتكنيك والتخطيط الدقيق من أجل التخفيف من مصاعبها ومتاعبها ومزالقها .

ان مخاطر الاشتراكية لاتأتيها فقط من خارجها — من اعدائها في الداخل والخارج — وانما تأتيها أيضا وخاصة من داخلها ، من نفسها ، من جهلها ، من غرورها ، ومن كل الآفات التي يمكن أن تصيبها . ومن هنا كان على التجربة الاشتراكية ان تكون قاسية مع نفسها ، قبل ان تكون قاسية مع غيرها ، وأن تكون مفتوحة على النقد البناء وعلى الحوار الفكري الحر، وان تكون خاصة هيابة للعلم وقوانينه وللواقع وشروطه .

لنحاول اذن في هذا المجال القصير أن نتحدث عن بعض مزالق التجربة الاشتراكية ، كما كشفت عنها تجارب الكثير من الدول ، ولنحاول أن نتبين معاً بعض شروط التخطيط الاشتراكي الصحيح .

١ — ان اول شرط من شروط نجاح التجربة الاشتراكية — كما يتضح من كل ماقلناه — أن يقوم تخطيط اقتصادي علمي وفني ، قائم على اسس سليمة . صحيح أن مثل هذا التخطيط قد لايتوافر منذ بداية التجربة ، غير ان من الصحيح ايضاً ان من أولى مهمات هذه التجربة ان تعمل شيئا بعد شيء على توفير الشروط اللازمة له ، وعلى رأس هذه الشروط اعداد الدراسات العلمية عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، والعناية بمراكز الاحصاء بحيث تستطيع ان تقدم معلومات وبيانات دقيقة وصحيحة عن بنية البلد . وقد بينت التجربة الاشتراكية في مثل «كوبا» ان كثيرا من الصعوبات التي عانتها ترجع بالدرجة الاولى الى عدم توافر الشروط العلمية اللازمة للتخطيط الاقتصادي . كذلك بينت تجربة الصين نفسها — رغم انها اكثر نجاحا من سواها — ان كثيرا من التعثر الذي أصابها يرجع الى افتقادجهاز للتخطيط سليم والى افتقاد الاجهزة الاحصائية العلمية رغم كل المساعدات الفنية التي تلقتها من الاتحاد السوفياتي في هذا المجال . وهذا هو السبب الاساسي — كما يذكر الاقتصاديون — في عدم نجاح الخطة الخمسية الأولى في الصين الشيوعية التي وضعت عام ١٩٥٣ ، وفي تعثر الخطة الخمسية الثانية التي بدأت عام ١٩٥٨ .

واذا كان قدر من الاخطاء ، في عمليات الاحصاء والدراسة والتنبؤ والتخطيط ، يمكن ان يكون مقبولا ضمن اطار الاقتصاد الرأسمالي وقد لايؤدي فيه الى مخاطر اقتصادية كبرى ، فهو

في النظام الاشتراكي يكوّن خطراً اكبر وقد يؤدي الى كوارث اقتصادية كبرى . ومن هنا كان من واجب الدول التي تنطلق في طريق التخطيط الاشتراكي ان توفر الشروط اللازمة للاطلاع على احدث نتائج الدراسات العلمية والفنية في ميـــدان التخطيط ، وان تعمل خاصة على تكوين الاخصائيين اللازمين لهذه الغاية ، وان تفيد على اكبر نطاق ممكن من الاخصائيين الموفورين لديها في هذا الميدان .

٢ — والحديث عن تكوين الاخصائيين واعدادهم وتدريبهم يقودنا الى نقطة ثانية هامة - تكون شرطاً من شروط نجاح التجربة الاشتراكية ، نعني العناية بتكوين الخبراء اللازمين في شتى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، لا في مجال التخطيط وحده .

ان اكبر ثروة تعتمد عليها التجربة الاشتراكية هي الثروة البشرية ، نعني الطاقة البشرية - الخبيرة المدربة والاخصائيين الفنيين في شتى مجـــالات النشاط . وههنا نستبين مهمة اساسية من مهمات التربية في الدولة الاشتراكية . فالتربية اليوم — كما نعلم — هي أداة التنمية الاقتصادية . ولا تؤدي التربية وظيفتها هذه — بالاضافة الى وظيفتهـــا الثقافية والحضارية العامة — الا اذا انعقدت الصلة بينها وبين حاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والا اذا قام ترابط عضوي وثيق بين الخطة العامة للدولة — خطتها الاقتصادية والاجتماعية — وبين الخطة التربوية ، والا اذا غدت الخطتان خطة واحدة ملتحمة .

ان نقص الخبراء ، نقص الطاقة العاملة المدربة الخبيرة ، هو العقبة الكأداء التي تصطدم بها جميع الدول المتخلفة والنامية ، وهو الصعوبة الكبرى التي يلقاها النظام الاشتراكي . ان ماهو اهم من انشاء المصانع والمشروعات تكوين الايدي الخبيرة القادرة على تسيير تلك المصانع والمشروعات . وان ماهو اهم من امتلاك الدولة لوسائل الانتاج الكبرى تكوين الكفاءات القادرة على تسيير تلك الوسائل وقيادتها قيادة فنية ناجحة .

لقد واجهت كوبا الاشتراكية هذه الصعوبة وواجهتها الصين في بداية امرها — رغم استعانتها بالعدد العديد من الخبراء السوفييت — وتواجهها الجزائر اليوم وتواجهها جميع الدول الناشئة في بلدان افريقيا وآسيا . والدول الاشتراكية مدعوة الى ان تولي اعداد الطاقة العاملة المدربة الخبيرة مقام الصدارة في تخطيطها ، انها مدعوة الى ان تذكر دوما تلك الحقيقة التي يقف عندها علماء الاقتصاد اليوم ، وهي ان أثمن رأسمال واكثره نتاجاً هو رأس المال البشري ، وان التثمير البشري هو اكثر انواع التثمير مردوداً وعطاء ، وان العامل الانساني هو العامل الحاسم في نمو الاقتصاد وفي نجاح اي تجربة اقتصادية .

٣ — واعداد الطاقة العاملة المدربة الخبيرة ، والافادة من الخبراء والاخصائيين المتوافرين في البلد ينقلاننا الى مسألة هامة ومشكلة هامة من مشكلات التخطيط الاشتراكي ، نعني وضع

خطة للافادة من جميع الكفاءات والثروات البشرية الموجودة في البلد وعدم التفريط بهذه الثروات جهد المستطاع .

ومثل هذا المطلب يستلزم الكثير من الحكمة والبراعة في تسيير التجربة الاشتراكية . ويستلزم اول مايستلزم اقامة التجربة الاشتراكية ضمن اطار قومي شامل ، يعبأ فيه جميع المواطنين ولا تهدر طاقة اي مواطن ، ويدعى الجميع الى الاسهام في بناء التجربة الاشتراكية . وهذا ماحدث في التجربة الصينية الى حد بعد ، وهذا ماتميزت به التجربة الصينية من دون غيرها من التجارب الاشتراكية ، وهذا ماحقق للاشتراكية الصينية حظاً من النجاح يفوق سواها .

ولم تنهج التجربة الصينية في هذا المجال نهج التجربة الكوبية مثلا ، تلك التجربة التي قادها التطرف وقادتها بعض الظروف الى هدر الطاقة البشرية الخبيرة والتفريط بها ، والى تحمل مآسي ذلك حتى الان . ويكفي ان نذكر في هذا السبيل ان اتحاد طلاب الجامعة في كوبا ـ وهو الذي يقود كل شيء فيها تقريباً ـ كثيراً مايجابه الاساتذة الذين ينتقدون بعض تصرفاته بقوله : « اذا لم يرق لكم هذا فارحلوا » . وقد أدت هذه السياسة المتطرفة الى هجرة عدد كبير من الاخصائيين والفنيين والى عوز كبير في الكفاءات هو المسؤول عن تعثر التجربة الاشتراكية وفشلها في كثير من مجالات الانتاج الزراعي والصناعي وغيره ، والى تدني الانتاج في كثير من المصانع والشركات المؤممة وتدني الدخل القومي بالتالي .

أما التجربة الصينية فقد أفادت من دروس العلم ودفعها حرصها على التنمية الاقتصادية وعلى عدم تعريض الحياة الاقتصادية للخطر ، الى دعوة رحيبة للتعاون مع جميع أصحاب الخبرة والكفاءات ، بل الى التعاون مع اصحاب رؤوس الاموال والافادة من خبراتهم ، وافساح مجال واسع لتجربة القطاع الخاص في البداية ، والاعتماد الكبير على القطاع المشترك بين الدولة وبين أصحاب المشروعات الخاصة .

لقد ادرك الثوار الشيوعيون هناك انه من اللازم أن يوحوا بالثقة الى القطاع الخاص ، من اجل الحصول على الخبراء اللازمين وعلى رأس المال اللازم في المراحل الاولى من تصنيع البلاد وبنائها . وميزوا منذ البداية بين « الرأسماليين البيروقراطيين » وبين « البورجوازية الوطنية » ، واعتبروا هذه الاخيرة حليفة طبيعية للبروليتاريا ، لابد من وجودها خلال المرحلة الانتقالية . اما « الرأسماليون البيروقراطيون » فهم اولئك الرأسماليون الذين قاوموا النظام الجديد وحنقوا عليه ، وبعض كبار الرأسماليين القلائل الذين تضامنوا مع الصين الوطنية ، من مثل العائلات الاربع الشهيرة .

وهذا لايعني ان النظام الشيوعي هناك لم يشد قبضته على الراسماليين ولم يحارب النظام

الرأسمالي كنظام ولم يحارب فساده وسرقاته واستغلاله . ولا يعني ان بعض الاضطهاد لم يقسم في صفوف اصحاب رؤوس الاموال . وكل ما في الامر ان هذا الاضطهاد كان محدودا ، وان الدولة وضعت خطة للافادة من نشاط القطاع الخاص وخبراته ، فقدمت له المساعدات والقروض ، وافسحت له مجال العمل ضمن نطاق النظام الاشتراكي واهدافه ، واخذت تمتصه شيئاً بعد شيء وتدخله في القطاع العام بدلا من ان تطرده نهائياً . ولم يتم هذا الامتصاص دومـاً عن طريق التأميم ، بل جرى معظمه عن طريق تغلغل تدريجي وسط القطاع الخاص واشراف على نشاطه ، وجرى خاصة عن طريق اقامة قطـــاع مشترك بينه وبين الدولة . وفي هذا المجال الحكومي الذي امتص معظم المشروعات الخاصة او اقام مشروعات مشتركة بينها وبين الدولة ، دمج اصحاب رؤوس الاموال دمجاً طبيعياً ضمن المؤسسات الجديدة ، من اجل الافادة من خبراتهم الفنية والادارية ، وخصص لهم نصيب من الارباح الى جانب الرواتب التي يتقاضونها كغيرهم من الموظفين . وهكذا لم يأت عام ١٩٥٦ حتى نسمع « شؤان لاي Chou En - Lae » يعلن في تقريره الذي قدمه للحزب الشيوعي في السادس عشر من ايلول ان ٩٩٪ من المشروعات الرأسمالية قد اخذ شكل مشروعات مشتركة بين القطاع الخاص والدولة .

وقد كان اهم مافي هذه السياسة التدرجية والرحبة التي اتبعها الحكم الشيوعي في الصين كسب عدد كبير من اصحاب رؤوس الاموال الى جانب الثورة ، وتطوعهم اختياراً لخدمة الثورة وتحقيق اهدافها . هكذا نجد الصناعيين ورجال الاعمال الذين اجتمعوا في المؤتمر القومي للاتحاد الوطني للصناعة والتجارة يصوتون بالاجماع وبمحض ارادتهم على القرار التالي : « سوف نعمل على تعزيز تحولنـا الذاتي ، ونعترف دون لبس بتضامن المصالح المشتركة بيننا وبين الدولة . وسوف نكرس خبرتنا الفنية واعدادنا الفني ، اللازمين للانتاج ولادارة الاعمال ، لرسالة البناء الاشتراكي لوطننا الام ، وسوف نكون جادين شرفاء مخلصين متحمسين للاشتراكية » .

وفي الوقت نفسه نجد « تشن يون Tchen youn » في كلمته التي القاها في مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني في ايلول عام ١٩٥٦ ، يبين بوضوح دور اصحاب رؤوس الاموال ، ويعلن ان الاكثرية الساحقة منهـــم تملك كفاءات وخبرات فنية حديثة في الانتاج ، تحتـــاج اليهـــا البلاد حاجة ماسة . ويقول فيما يقول : « ان البورجوازية الوطنية ومن بينها المثقفون المنتسبون اليها ، مايزالون طبقة تقدم عوناً كبيراً للثورة ، والافادة من مواهبهـا يخدم مصالح الطبقة العاملة الصينية كلها » .

وقد بلغ الامر في هذا المجال حداً جعل عدداً من اصحاب المشروعات الرأسمالية السابقة يطلبون من الدولة ، عام ١٩٥٧ ، ان تسمح لهم بالتخلص من لقبهم ومن وضعهم السابق ، بل طلب بعضهم أن يحسبوا في صفوف الطبقة العاملة.

عن هذا الطريق استطاعت الصين ان تجتنب كثيراً من الصعوبات الاقتصادية وان تحقق التنمية السريعة ، وان تحقق ارتفاعا في الدخل القومي خلال سنوات معدودة ، وان تفيد من الثروة البشرية الخبيرة على اوسع نطاق ممكن .

وأهم ما في هذا الطريق — بالاضافة الى نتائجه الاقتصادية الهامة — انه يبعد الى حد كبير وسائل العنف المادي ، ويؤدي الى تحويل اصحاب رؤوس الاموال تحويلا تدريجياً الى مواطنين في خدمة القضية المشتركة .

٤ — وتقودنا هذه النقطة الاخيرة الى شرط رابع هام من شروط نجاح التجربة الاشتراكية ، هو التوسل بشتى وسائل الاقناع ، واستبعاد العنف المادي ما أمكن ذلك .

ولا نريد أن نقول ان استبعاد العنف نهائياً أمر ممكن في التجربة الاشتراكية أو في أي تجربة اخرى . فمقدار من العنف مايزال مع الأسف حديث المجتمعات الانسانية في شتى صورها ، ويكاد العالم لايعرف مجتمعاً واحداً لايقوم فيه شكل من اشكال العنف . غير أن هذا لايعني أن نبيح العنف ، فضلاً عن أن نجعله شرعة ومذهباً ، وانما يعني ان من واجبنا ان نجهد يوماً بعد يوم لاستبعاده من حياة الانسان ، وأن نحقق أهدافنا بأقل قدر ممكن من العنف ، وأن ندرك خاصة ان العنف المعنوي كثيراً مايفوق العنف المادي ، وأن مما يوفر علينا كثيراً من المراكب الخشنة ان نقوم بالجهد اللازم من اجل الدعوة المقنعة للنظام المرجو .

ومن هنا يأتي دور التوعية الكبير في بناء التجربة الاشتراكية ، وفي تجنب كثير من مزالقها . فالتوعية بشتى وسائل الاقناع والتوضيح التي تلجأ اليها — هي التي تلف الجماهير الغفيرة حول القضية الاشتراكية ، وهي التي تجعل الثورة الاشتراكية ثورة جماهيرية واسعة ، ثورة يحميها الشعب ويبنيها ، ويراقبها ويوجهها . وخير ضمان لنجاح الثورة الاشتراكية هو استنادها الى قاعدة شعبية عريضة . وأهم مافي هذا التأييد الشعبي انه يغدو سلاح الثورة الحقيقي ، يحميها من اللجوء الى تدابير العنف المادي ، ويبطل حاجتها الى الاكراه والقسر الى حد بعيد . بل هو فوق هذا وذاك يمكن الثورة من ان تعمل في روية وأناة ، ويحول بينها وبين أن تتعجل الامور ، ويحفظها من التدابير الاستثنائية الطارئة . ان هذا المتكأ المكين الذي تتكىء عليه الثورة عن طريق قاعدتها الشعبية هو الذي يجعلها قادرة على ان تعمل في عمق وأناة معاً ، وعلى ان تحفر جذورها العميقة في بنية النظام الاجتماعي ، وان تسير سير الواثق المطمئن ، مادام الشعب قاعدتها وما دام الشعب حاميها وبانيها .

إن من الخطأ كل الخطأ ان يخيل الينا ان حسب الثورة ان تعمل لمصلحة الشعب ومن اجل الشعب ، وان تكون نواياها خالصة لوجه سعادة الشعب كله . فمثل هذا الموقف — على

جلاله – لايكفل للثورة شروط نمائها الصحيح . ولابد – كما يكتمل ذلك النماء – ان تصبح والشعب شيئاً واحداً ، وان يقوم التفاعل كاملاً بينها وبين الشعب .

قد يكون من الطبيعي ان تكون الثورة جديدة على الشعب ، بعيدة عنه بعض الشيء في بداية امرها . اما ماليس طبيعياً فهو ان يستمر الجفاء بـــين الثورة والشعب ، مها تكن اسباب ذلك ومبرراته . وعند استمرار مثل هذا الجفاء لابد من البحث عن الاسباب العميقة ، لابد من التساؤل . وكثيراً مايكون على رأس اسباب تلك الجفاوة تقصير الثورة نفسها في توعية الشعب ، او عدم اكتراثها به ، او اعتقادها بأن عليها ان تقوده الى الجنة بالسلاسل ، او ظنها بأنه « بيقاء عقله في اذنيه » – على حد قول شوقي – يجري وراء كل راكض ويتبع كل ناعق . والثورة التي تقوم من اجل الشعب ، وتضع الشعب في الوقت نفسه في مثل هـــذه المكانة الزرية ، طبيعي ألا يستجيب لها الشعب وألا تستطيع بلوغ اهدافه . اننا لانستطيع ان نستخرج من الثورة اكثر مما نضعه فيهـــا : فان وضعنا فيها الايمان بالشعب واحترام الشعب والعمل من اجل الشعب ومع الشعب ، جنينا ثورة شعبية حقيقية . وان وضعنا فيها الازراء بالشعب والاستهتار بـــه ، قادنا ذلك لاحالة الى مجانبة اهداف الثورة ، مها تكن نوايانا طيبة صادقة .

٥ — واهم مافي هذه التوعية الشعبية المؤدية الى السند الشعبي المكـــين – كما سبق ان ذكرنا – انها تحمي الثورة الاشتراكية من بعض انواع التعجل والتخبط ، وتجعلها تنطلق نحو اهدافها في عزم واستئناءمعاً ، مستبعدة التدابير الاستثنائية والاجراءات الطارئة طاردة خاصة مواقف ردود الفعل ، ماضية دوماً من الايجاب لا من السلب .

وهنا نلتقي بشرط خاص من شروط نجاح التجربة الاشتراكية ، وهو اخذها بالحلول العميقة المطمئنة ، المبنية على اسس علمية واقتصادية سليمة مدروسة ، وهجرانها للحلول المتعجلة التي تدفع اليها ظروف سياسية طارئة او ردود فعل خاصة .

لقد وقعت كثير من التجارب الاشتراكية في العالم في آفة التعجل هذه ، وحسبت أن بناء التجربة الاشتراكية إما ان يكون بين عشية وضحاها وامـــا ألا يكون ، وأهملت الأسس الموضوعية الواقية للتدابير التي تتخذها . هكذا نجد « كوبا » مثلاً تسير – تحت ضغط ظروفها السياسية الطارئة – في طريق مليئـــة بالتسرع – كما يبين الاقتصادي « رونيـــه دومون René Dumont » الذي عمل خبيراً اقتصاديا في كوبا . وذلك في كتاب له صدر عام ١٩٦٤ يحمل اسم « كوبا ، او الاشتراكية والتنمية » .

وهذا التسرع الناجم عن مواقف انفعالية طارئة أو عن ردود فعل عابرة ، قاد كوبا الى أخطار اقتصادية ضخمة ، وعرضها لمصاعب كثيرة ، وجعلها تتخذ بعض التدابير التي ماتلبث

حتى تتبين خطأها . لقد أهملت « كوبا » الى حد بعيد فكرة المراحل في تطبيق الاشتراكية وفي تدابير التأميم وغيرها ، وانطلقت من كبرياء الثورة لتقول دوما ومهما تكن الظروف: « ان الثورة لابد أن تمضي في طريقها ، وهي لاتستطيع ان تتراجع » . ولقد كان مثل هذا الموقف هو موقف معظم قادة الثورة السوفياتية في بدايتها . غير ان « لينين » ، بذكائه المتفوق ، كان الوحيد الذي أدرك أهمية المراحل في تطبيق أهداف الثورة ، وأهمية الرجوع عن بعض التدابير حين يثبت خطؤها ، وهكذا أمر بالتراجع عن التدابير الاقتصادية التي أدت الى مصاعب وعقبات في بداية الثورة ، وأمر بتطبيق سياسة اقتصادية جديدة ، هي السياسة التي عرفت باسم الـ « نيب Nep » وهي التي أنقذت الثورة من الخطر المميت الذي كان يتهددها نتيجة للاصرار في تطبيق مبادىء الثورة تطبيقاً يعوزه الكثير من الفهم والوعي . فلقد أدرك الاتحاد السوفياتي ان نتاجه الصناعي يتناقص بين عام ١٩١٨ — وعام ١٩٢١ بنسبة ١٨ ٪ عما كان عليه عام ١٩١٣ . ويرجع ذلك الى الحرب الأهلية التي لم تبق ولم تذر ، غير أنه يرجع ايضا ، كما استبان لقادته ، الى بعض التأميمات الواسعة التي قام بها سريعا والى الهجرة الجماعية لبعض الاخصائيين والفنيين ، وهكذا انطلق — نتيجة لموقف « لينين » المرن — نحو سياسة اقتصادية جديدة ألغت الكثير من التدابير السابقة ، وأقامت كبير وزن للانتاج وضروراته ونشاط القطاع الخاص . ويجمع علماء الاقتصاد اليوم على ان الثورة السوفياتية الناشئة ما كانت تستطيع ان تعيش لولا هذه السياسة الجديدة ، سياسة الـ « نيب » : ولولا تلك الرجعة المؤقتة التي أخذت بعين الاعتبار ظروف الاقتصاد السوفياتي ، ولولا تلك المرونة في تطبيق المبادىء الشيوعية .

ولا يتسع المجال للحديث عن كثير من الحلول المستعجلة الانفعالية التي لجأت اليها الثورة الكوبية في مجال الاصلاح الزراعي وفي مجال الصناعة والتأميم وفي مجال التخطيط وغيره ، ومن أراد فضلًا من اطلاع فليرجع الى الكتاب الذي سبق أن اشرنا اليه .

والصين نفسها ـ رغمَ حظها الأكبر من الأناة والتعقد ـ وقعت في كثير من التدابير المتسرعة ـ غير أنها ما لبثت حتى اصلحت امرها وعادت الى تحكيم سلطان العقل والعلم في حركة التطور الاقتصادي والاجتماعي التي تقودها . وبعد فترة غلت فيها في السياسة الاقتصادية الاستثمارية التي توظف القسم الأكبر من الدخل القومي في الصناعة والصناعة الثقيلة خاصة ، عادت فأولت الاقتصاد الاستهلاكي حظه ونصيبه ، وتخلصت من النتائج السيئة لغلوها الأول ، ومن التضخم المالي الذي أحدثه .

وهكذا بعد تلك المرحلة القلقة ، المرحلة التي أطلق عليها الصينيون اسم « القفزة الكبرى » ما لبثت الثورة الشيوعية ـ بعد فشل بعض تجاربها ، ولا سيما في صناعة الصلب وفي ميدان الزراعة

أن خففت من ادعاءاتها وغلوائها ، وأخذت تنطلق على ألسن قادتها كلمات الواقعية والتخطيط وتحديد الأهداف الموضوعية ، وأخذ الانتاج الزراعي خاصة يحتل مكانته ، بعد أن كانت المكانة الأولى للانتاج الصناعي الثقيل . ونتيجة لهذا كله ، تحددت فلسفة القادة الصينيين في الشعار الشهير شعار « السير على قدمين » لا على قدم واحدة .

وبفضل هذه التدابير المرنة ، وبفضل العودة الى السياسة الاقتصادية الواعية المتأنية القائمة على فهم الواقع وشروطه ، استطاعت الصين ان تتجاوز كثيراً من الصعوبات التي لقيتها في البداية .

ان مثل هذا الموقف الواعي المدرك لصفحة الواقع ، الماضي في التحويل الاشتراكي في جرأة وتعقل ، في عزم وموضوعية ، في تصميم ومرونـــه هو الذي تحتاج اليه التجربة الاشتراكية في كل مكان ، وهو خير ما يقيها مصاعب الطريق ويجنبها اشواك المسير .

٦ — وطابع المرونة والتعقل هذا ، الذي يقي التخطيط الاشتراكي من المزالق ، ينبني عليه شرط سادس من شروط نجاح التجربـــة الاشتراكية ، الا وهو المرونة في تطبيق المبادىء الاشتراكية وفي نقل التجربة الاشتراكية العالمية .

ان الافادة من التجارب الاشتراكية الأخرى ، لا يجوز ان تعني النقل الحرفي للمبادىء وللتجارب ، والتمسك الشكلي بعقائد قامت في بلاد اخرى وفي ظروف اخرى . ان مثل هذا النقل الحرفي لم يثبت سلامته حتى في النظم الشيوعية المتماثلة . وكلنا يعلم كيف ان البلدان الشيوعية المختلفة اختارت الى حد بعيد اشكالاً مختلفاً للشيوعية ، وطرقاً مختلفة مؤدية الى الاشتراكية . وما نجده اليوم في يوغوسلافيا وفي الصين خاصة يثبت ان الشيوعية نفسها لا بد أن تتلون بلون البلد الذي تقوم فيه والأمة التي تطبقها . واذا كان هذا صحيحاً بالقياس الى الشيوعية - وهي العالمية بطبعها - فهو اكثر صحة بالقياس الى الاشتراكية التي اول ما تتسم بانها تجربة تلائم ظروف البلد وتلبس لبوس اوضاعه وحاجاته ، بالاضافة الى ماتعتمد عليه من اسس ومبادىء عامة مشتركة بين الاشتراكيات كلها .

ومع ذلك كله نجد أن بعض النظم الاشتراكية والشيوعية الناشئة تقع في بداية أمرها فريسة تقليد حرفي أعمى لنظام من النظم القائمة ، بل فريسة لتقليد ضيق قاصر لمرحلة من مراحل التجربة الاشتراكية ، ولا سيما في الاتحاد السوفياتي .

وقد وقع مثل هذا التقليد الحرفي والناقص في الثورة الكوبية ، كما يبين ذلك « دومون » في كتابه الذي أشرنا اليه . واعترف بذلك الزعيم الكوبي « غيفارا Cheguevara » نفسه عام ١٩٦٣ ، حين قال : « لقد نقلنا تجارب اخواننا نقلاً آلياً ، وكان ذلك خطأ منا » وعبر عن هـــذا الموقف مفكر بولوني قائلا : « ان كوبا تعاود دون جدوى سلسلة الاخطاء

الاقتصادية التي وقعت فيها البلدان الاشتراكية الاخرى » . وقد تجلى هذا النقل الخاطيء وهذه المعاودة الخاطئة لبعض مراحل التجربة الاشتراكية ، في كثير من ميادين الزراعة والصناعة . وتجلى عندما درس زعماء كوبا الاقتصاد السوفياتي في كتب تجاوزها التطور ، من مثل كتاب « نكـتين Nikcitine » المترجم في كوبا ، والذي يعتبره الاتحاد السوفياتي كتاباً قديمـاً باليا ، لا سيما عندما يقاس بذلك الكتاب الجديد الذي اصدره المجمع العلمي في روسيا في تشرين الأول عـام ١٩٦٣ . وحدث كذلك عندما اتخذ اقتصاديو « كوبا » كتاب « ليسنكو Lyssenko القديم مرجعاً لهم في أمور الزراعة .

ونستطيع أن نقول مع « دومون » بوجه عام، ان « كوبا » عاودت سلسلة الاخطاء التي وقع فيها الاتحاد السوفياتي ، انطلاقاً من نظريات هجرها ، وأن الثورة الكوبية تفتقر الى شيء من التواضع أمام الحقائق والوقائع ، بدلا من اهمال الوقائع المحسوسة الواضحة باسم تفسيرات خاطئة لنظرية شيوعية لم تكن في حقيقة أمرها في يوم من الأيام جامدة متحجرة : ومثل هذا الموقف – كما يقول «دومون» أيضاً – هو أكبر خطر يتهدد مستقبل الاشتراكية .

والاشتراكية العربية التي جعلت مبدأ أولا لها أن تنبع من ظروف الوطن العربي ، وأن تكون من خلق العرب أنفسهم – بعد افادتهم من سائر التجارب – وأن تنبثق خاصة من ايمان العرب بقدرتهم على خلق نظام اجتماعي وسياسي غير مستورد ، هذه الاشتراكية العربية تدرك أعمق الادراك مخاطر النقل الحرفي الخاطيء ، وتدرك أن عليها أن تحارب موقفين في آن واحد : موقف الاتباع الحرفي المستند الى نقص في الفهم والادراك ، وموقف الانكماش على قوقعة الذات واغلاق الأبواب أمام تجارب الأمم الأخرى ، كأن شيئاً لم يكن ، وكأن الاشتراكية او أي نظام يمكن ان يخلق خلقاً جديداً ، من عدم ، من لا شيء .

ولا شك ان اهم سمة لا بد ان تميز الاشتراكية في أي بلد عربي انطلاقه من وحـدة الوطن العربي وادراكه العميق أن الاشتراكية في بلده وفي أي بلد عربي لا تأخذ معناها الا ضمن اطـار التجربة الاشتراكية في الوطن العربي كله ، الا من زاوية وحدة التجارب الاشتراكية العربية ، وحدتهـا في المبدأ والمنطلق والمصير . وبدهي في منطق الاشتراكية العربية ان النضال الاشتراكي في اي بلد عربي هو اداة ووسيلة لمطلب اعمق واكبر ، مطلب اقامة كيان عربي موحد قوي ، لا يمكن ان يكتمل ولا يمكن ان يتحقق الا اذا قام على سواعد الملايين المتحررة من الجهل والفقر والمرض .

ومثل هذا المطلب يقيم فارقاً اساسياً بين الاشتراكية العربية واي اشتراكية اخرى ويملي عليها مواقف خاصة واساليب في العمل خاصة ، لابد أن تكون نابعة من هذه النظرة الشاملة ، النظرة التي ترى امامها دوماً الافق العربي الكبير ، وتدرك ان بلوغ ذلك الافق

لايكون الا اذا اعتبرنا العمل الوحدة جزءاً من عملنا اليومي . والا اذا اعتبرنا بالتالي العمل للاشتراكية وبناءها جزءاً من العمل للوحدة ، يأخذ بعين الاعتبار دوماً تفاعل هـــذا العمل الاشتراكي مع التجارب الاشتراكية الأخرى في الوطن العربي . واكبر مغالطة يمكن للاشتراكية العربية ان تغالط بها ذاتها ان تنصب نفسها بديلاً عن العمل العربي الموحد وعن الوحدة ، وان تعتبر سيرها المنفصل نحو الاشتراكية ضمن اطار التجزئة عملاً يؤدي من تلقاء ذاته الى خدمة قضية الوحدة في الأمد البعيد . وماذا يعني النضال الدائم من اجل الوحدة ومن اجل الكيان العربي الموحد ان لم يعن اولا وقبل كل شيء هذا التفاعل والتجاذب بين النظم الاجتماعية التي تقوم في البلاد العربية ؟ وهل نريد ان نجعل من الاشتراكية التي تقوم شتيتة في البلاد العربية عاملاً جديـــداً من عوامل التجزئة والانفصال ، بدلاً من ان تكون جوهر العمل للوحدة والبطانة الحقيقية لهذا العمل ؟

* * *

وبعد لا نزعم أننا نستطيع في هذه العجالة أن نتحدث عن جميع الشروط التي ينبغي أن تتوافر لنجاح التجربة الاشتراكية . ولعل في هذه الاشارات الموجزة التي اكتفينا بها مايفتح الأذهان على آفاق أوسع ومشكلات أرحب .

وكل ما قصدنا اليه أن نقول أولا وآخراً ان التجربة الاشتراكية خلقت لتعتمد على التخطيط الاقتصادي الدقيق ، وخلق التخطيط الاقتصادي من أجلها . ولا يمكن أن نتصور تجربة اشتراكية ناجحة لا تعتمد على تخطيط علمي مدروس . ولئن كان الاقتصاد الرأسمالي الحر – كما ذكرنا – يمكن ان تجزىء فيه بعض المعلومات والحقائق الناقصة عن الوضع الاقتصادي وبعض المسح المخروم لحياة البلد الاجتماعية والاقتصادية ، فان التخطيط الاقتصادي لا يمكن أن يرتوي بمعلومات ناقصة واحصاءات مغلوطة وبيانات غير وافية ، ولابد أن يقوم أولا وآخراً على ادراك كامل لصفحة الواقع والاشياء ، وعلى تنبؤ دقيق بحاجات المستقبل .

والخطة الاقتصادية الصحيحة المستندة الى تشخيص حقيقي للوضع القائم وللحاجات المعتمدة على بيانات احصائية دعامة واضحة ومرشدة ، هي التي تستطيع أن توفر جانباً من الشروط التي رأيناها اساسية لنجاح التجربة الاشتراكية .

على ان من أهم نتائج الخطة الاقتصادية المدروسة الحكيمة ومن أهم اهدافها ان تتيح قيام التجربة الاشتراكية في جو من الديمقراطية والحرية واحترام الانسان . فالعنف – كما ذكرنا – كثيرا ما يكون موقفاً يضطر اليه صاحبه نتيجة أخطاء ارتكبها لايصلحها الا ذلك العنف . وهكذا يقوم العنف وليد الخطأ ، ثم تتوالى الأمور فيصبح العنف وليد الذي سبقه ، ويولد العنف عنفاً جديداً ، وتفسد الأمور دون رغبة احد . والخطة الاقتصادية الرشيـــدة

التي تتقن الوصول الى الهدف ضمن مراحل متدرجة . وتجزىء الصعوبات ، وتتغلب على العقبات في هدوء وعمق معاً ، وتحفر في بنية النظـــام الاجتماعي بدلا من ان تكتفي بالتغيرات على السطح ، تهيء بذلك كله خير الظروف لنجاح التجربة الاشتراكية ضمن أوسع جو ممكن من الديمقراطية ومن الحرية ومن احترام الشخص الانساني . ذلك ان العمل الايجابي والبناء الايجابي والتغيير الايجابي لبنية الحياة الاقتصادية والاجتماعية هو القادر على احـــداث انقلابات جذرية ثورية اساسية في حياة البلد . ومثل هذا العمل الايجابي هو الذي تحققه خطة اقتصادية واقعية محكمة تستند الى الواقع والى معرفته الواضحة من أجل تغييره، وتتطلع الى ماينبغي ان يكون وهي مطمئنة الى ماهو كائن ، وتشرئب الى السماء ، الى المثل الأعلى ، ورجلاهـــا مطمئنتان على الأرض.

يضاف الى هذا كله ان جزءاً كبيراً من مجانبة الديمقراطية في المراحـــل الاولى من التجربة الاشتراكية يرجع الى سياسة حرق المراحل قبل الاوان ، ومحاولة تجاوز الزمن والواقع في سبيل تصور جامد للمبدأ والعقيدة . والخطة الاقتصادية المدروسة هي التي تصنع الحدود اللازمة بين الجرأة الثورية وبين التهور ، بين العزم القوي على تغيير الواقع وبـــين التنكر للواقع ، بين السباق مع الزمن وبين انكار عامل الزمن .

ان اي خطة اشتراكية سليمة لا بـــد ان تضع على رأس اهدافها قدسية الانسان وحريته وكرامته ، وان تدرك انها تعمل في سبيل الانسان ، وان المبادىء كثيراً ما تنقلب — على حد قول ماركس نفسه — الى تتويج رائع الوحشية . ان عليها ان تدرك انها وجدت من اجل الانسان ، انسان الغد وانسان اليوم ايضاً ، وانها لا تستطيع اولا وآخراً ان تقر الستالينية مهما تكن انجازاتها ومكاسبها .

ان نجاح التجربة الاشتراكية كل متآخذ مترابط ، يخـــدم جانبه الاقتصادي جانبه الانساني ، ويخدم جانبه الانساني جانبه الاقتصادي ، وتتآخذ اوجهه وتتماتق . وتحقيق السير المتوازي المتوافق لجوانب التجربة الاشتراكية بحيث تتكامل ويؤيـــد بعضها بعضاً هو المهمة الكبرى للخطة الاقتصادية .

واذا كانت العناية بالتخطيط الاقتصادي السليم امرا اساسيا في التجربة الاشتراكية ، فمعنى ذلك ان من الواجب ان نعد لهذا التخطيط عدته السليمة ، وان يقوم تخطيط من اجل قيام تخطيط صحيح ، ان صح التعبير . فليس كل تخطيط تخطيطاً ، وكلمة التخطيط كلمة طالمـــا أسيء فهمها واستعمالها وطالما اطلقت على اشياء متباينة . والدول الناشئة — كما سبق انذكرنا — لا تملك بعد الأدوات اللازمة والأجهزة الضرورية لوضع تخطيط كامل ، ولا بد لها بالتالي من اعداد تلك الادوات وتكوين تلك الاجهزة . ومن هنا يعود فيرتقي الى المقام الأول مطلب

تكوين الخبراء والفنيين اللازمين لتسيير عجلة الاقتصاد الاشتراكي في شتى مجالاته . ولا نغلو اذا قلنا مع « دومون Dumont » ان الشرط الأساسي السابق لنجاح اي تجربة اشتراكية تكوين الاطر العلمية والفنية اللازمة ، والافادة من هذه الأطر على اوسع نطاق ممكن . وهكذا يبرز التكامل بين الخطة الاقتصادية والخطة التربوية مطلباً من مطـــالب التخطيط الاشتراكي السليم ، ويقوم في المنزلة الأولى أمر العناية بتكوين الثروة البشرية التي تلعب اليوم في اقتصاد العالم كله دوراً اكبر من الثروة المادية .

واخيراً ، هل ندرك بعد هذا كله اننا امام تجربة شاقة ، لمثلها ينبغي ان تجند القوى وتعبأ الامكانيات ؟ هل نـــدرك ان علينا ان نقتحم مجتمعين ، بكل مايملك بلدنا من طاقات بشرية ومادية ، وبكل مايملك الوطن العربي من عوامل التضامن والمشاركة ، ميداناً خليقاً بأن يقتحم ، ميدان العمل على سعادة الاجيال العربية ، عن طريق تحقيق النظام الاشتراكي العربي القادر على تنمية الاقتصاد العربي ودفعه في طريق الانتاج والابداع ، والقادر على وضع اسس سليمة للعدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقة .

هل ندرك اننا امام تحد كبير ، تقف في وجهه قوى الاستعمار وقوى الرأسمالية وقوى اسرائيل ، وتقف في وجهه ايضاً آفات ذاتيـــة نابعة من اخطائنا وحدودنا وتقصيرنا ؟ هل ندرك اننا قد نكون حلفاء غير واعين للاستعمار وللرأسمالية ولجميع القوى المعادية للاشتراكية ان لم نعمل مجتمعين في سبيل وضع امتن الاسس واثبتها للتجربة الاشتراكية في وطننا العربي ؟ ان طرح المشكلة – كما يقول المثل اللاتيني – نصف الحل . فهل وفقنا في هذه العجالة الى طرح المشكلة ؟

ان قضية الاشتراكية في الوطن العربي هي قضية الشعب العربي بأكمله ، قضية الجماهير ، وينبغي ان توضع بالتالي بين ايديهم . ينبغي ان يواكبوا سيرها وتعثرها وصعوباتها كما يواكبون انتصاراتها وانجازاتها ، وينبغي ان يدركوا اولا وآخراً انها امامهم وليست وراءهم ، انها ابنة جهدهم ونصبهم ووعيهم المتزايد ، وانها هدية الانسان للانسان ينسجها بعرقه ودموعه ، ليحقق فرحة كبرى ، فرحة وطن عربي متفتح ، وانسانية تحترم الانسان وتحترم قيمه ، وتطرد الوحش الثاوي في اعماقه والذئب العاتي على اقرانه ، وتبقي الانسان الحق ، الانسان القادر دوما على الارتقاء فوق ذاته من اجل ذاته .



طرق محاربة التخلّف الاقتصادي

• بقلم شارل بتلهيم

• ترجمة الدكتور هشام متولي

لعله من العبث أن تأمل الدول المتخلفة تحقيق نمو اقتصادي بشكل عفوي ، سواء أكانت هذه الدول متخلفة فعلاً ، وهي الحالة العامة الغالبة ، أو كانت بلداناً تابعة اقتصادياً .

ان الضرورات في محاربة « التخلف » الاقتصادي تبدو على درجات مختلفة ، وذلك تبعاً لتصور الأهداف التي تبغيها سياسة اقتصادية بوضع حد للتخلف الاقتصادي أو تبعاً لتصور الوسائل التي يؤدي تطبيقها الى تحقيق هذه الأهداف .

---

(١) بعد أن ترجمنا للاستاذ بتلهيم محاضرته عن « ما معنى التخطيط الاقتصادي الاشتراكي » في العدد ٣٦ ، شباط ١٩٦٥ من مجلة المعرفة ، ثم محاضرته عن التخلف الاقتصادي ومفهومه اليوم » في العددين ٣٧ ، ٣٨ من هذه المجلة ، نقدم هنا ترجمة لهذه المحاضرة التي القاها المؤلف المذكور في « المدينة الجامعية » في باريس .

من المسلم به أن التحليل يجب أن يبدأ بالأهداف التي يجب بلوغها اذ تبعاً لها وعلى أساسها يمكن تحديد الوسائل الواجب اتباعها .

أهداف محاربة التخلف :

يمكن تقسيم هذه الاهداف الى اهداف **مبتغاة** واهداف **وسيطة** .

أما الاهداف المبتغاة فهي بطبيعة الامر تحسين مستوى المعيشة لكافة افراد الشعب تحسيناً جوهرياً ، ووضع ركائز اقتصاد قادر على إشباع ، بقدر الامكان ، الحاجات المتزايدة للشعب ، واقامة معالم بنيان اقتصادي يؤمن لكل فرد تحقيق الوسائل المؤدية الى ازدهار شخصيته وانطلاق طاقاته . ولا يمكن تحقيق ذلك الا بعد تحقق مستوى للاستهلاك على درجة كبيرة من الاهمية ، ومستوى مرتفع للتعليم والتربية ، وازالة تامة لجميع الامراض المزمنة .

واذا كانت تلك هي الاهداف المبتغاة أو النهائية لمحاربة التخلف ، فان تحققها مرهون بتحقق بعض الاهداف الوسيطة . وان هذه الاخيرة تشكل الشروط اللازمـــة والضرورية لتحقق الاولى .

يتألف احد هذه الاهداف الوسيطة من الارتفاع المستمر والكافي لمستوى انتاجية العمل بحيث يتمكن كل فرد من أن ينتج ، خلال فترة عمل معقولة ، مقداراً أكبر من المنتجات الصناعية والزراعية مما هو قادر على تقديمه اليوم بالوسائل والادوات البالية التي يعمل بها وبموجبها اغلب العمال في البلدان المنعوتة « بالتخلف » .

وفي الواقع يلاحظ انه فيما يتعلق بالناحية الاساسية للنشاط الاقتصادي في هذه البلدان ، اي النشاط المتعلق مباشرة بحياة سكان هذه البلدان ، وليس بناحيتها التصديرية ، لايملك المنتجون الا وسائل انتاج مستعملة ، بالية وذات انتاجية ضعيفة . ولا يمكن التوصل في هذه البلدان الى زيادة انتاجية العمل ، ووضع ركائز تقنية ضرورية لتحسين مستوى المعيشة وشروط الحياة ، أي تحقيق الاهداف المبتغاة ، الا اذا استبدلت وسائل الانتاج البالية باخرى حديثة ، واذا ادخلت الوسائل التقنية الجديدة ، وجرى وضع الكثير من المبتكرات والاختراعات موضع التطبيق .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان التعاليم المستنبطة من التجربة والنظرية على حد سواء تقول إنه يستحيل التوصل الى تحقيق تجديد أساسي وعام في الوسائل التقنية للانتاج اذ لم يعمد الى انتاج الجزء الأعظم من هذه الوسائل محلياً . وهذا يعني أن كل سياسة تهدف الى محاربة التخلف تتضمن بالضرورة وكجزء متمم لها سياسة تصنيعية .

فالمظاهر الثلاثة الرئيسية الواجبة التوفر من أجل تحقيق تنمية سريعة للطاقات الانتاجية هي إذن :

التصنيع ، وتحديث الزراعة ، وتنويع الانتاج الاقتصادي .

من المؤكد أن أشكال وتوقيت ومدى وطبيعة التصنيع اكل بلد تتعلق جميعها بالشروط الواقعية والجيدة لهذا البلد : بثرواته المنجمية والزراعية والمائية ، بعدد السكان والكثافة السكانية ولكن هذا لايمنـع من القول ان التصنيع هو دوماً الشرط الضروري للتطور الاقتصادي . فتجديد وسائل الانتاج ، والطرق التقنية ، ورفع انتاجية العمل ، تشكل جميعها ، وفي كل الأحوال ، الاسلحة الاساسية لمحاربة التخلف والاهداف الأولية الوسيطية .

إن تحقيق هذه الأهداف لايكون ممكنا ، بدوره ، الا اذا تم تنفيذ بعض الوسائل ، والا اذا تم تحقيق بعض الضرورات والمتطلبات المسبقة . وتتمثل احدى هذه الضرورات في أن التنمية الاقتصادية لهذه البلدان التي هي اليوم «متخلفة» ، تكف عن أن تكون خاضعة ومرتبطة بعوامل تحكمية خارجية . وهكذا فانه من أجل تحقيق ذلك يجب أن تتخذ القرارات المتعلقـة بالنشاطات الاقتصادية الاساسية داخـل البلد نفسه . وهذه هي ظاهرة رئيسية وجوهرية لمحاربة التخلف . وفي المجال العملي ، تنتظم وتنسق بقية الشروط والمتطلبات بعد وضـع هذه الظاهرة موضع التطبيق .

هذا ، ونظراً لتعدد القضايا المطروحة هنا وتشعبها ، فاني سأقتصر على تعداد هـذه المتطلبات وشرح بعضها .

الدور الاقتصادي المهيمن للدولة :

انطلاقاً مما تقدم ، نستطيع أن نقول ان اكثر الضرورات أولوية من أجل العمل على رفع مستوى معيشة سكان البلدان المنعوتة بالتخلف هي وضع حد لحالة التبعية الاقتصادية التي تميز هذه البلدان ، ومن أجل القضاء على حالة التبعية هذه ، لابد في يومنا هذا من قيام الدولة بالدور الاقتصادي الأول . اذ أن الدولة وحدها تملك الوسائل الكفيلة بوضع حد لحالة التبعية الاقتصادية ، وبتجهيز مجموع الطاقات الانتاجية التي لابد من توفرها من أجل تحقيق تنميـة اقتصادية سريعة . وعلى هذا الاساس يمكن القول انه قد أصبح من باب التوهم الاعتقاد بامكانية سياسة اقتصادية مرتكزة على مذهب الحرية أو العفوية الاقتصادية ازالة التخلف بصورة تدريجية وقادة البلدان المتخلفة يدركون ذلك وهم ينصتون مرتابين الى نصائح بعض الاقتصاديين الذين مازالوا ينصبون أنفسهم حماة مذهب الحرية الاقتصادية والدور المسيطر الذي يلعبه تثمير رأس المال الخاص .

لقد أظهرت التجارب التي مرت بها البلدان المتخلفة أن الاعتاد على مبدأ عدم التدخل Laisser - faire في المجال الاقتصادي يؤدي الى فارق متزايد بين مستوى التطور في البلدان المتخلفة ومثيله في البلدان الصناعيـة .

وهكذا فان سياسة ترسمها الدولة نفسها كفيلة وقادرة لوحدها بوضع حد نهائي ، وبالتدرج ، لحالة التخلف ، وذلك شريطة أن تكون هذه السياسة موسومة بشكل صحيح ، وموضوعة قيد التنفيذ بشكل جوهري .

على أنه لايمكن لدور الدولة الاقتصادي في البلدان المتخلفة أن يكون فعالاً وذا أثر الا اذا عمد منذ البدء الى ازالة الوضع المسيطر لرأس المال الأجنبي الذي يساهم في عملية ابقاء هذه البلدان في حالة من التبعية الاقتصادية التي مازالت تميز هذه البلدان . وتبعاً لطبيعة التركيب الاقتصادي لهذا البلد المتخلف او ذاك ، يلعب رأس المال الاجنبي الدور المسيطر في التجارة تارة ، وعن طريق المصارف تارة أخرى ، وبواسطة المزروعات الوحيدة او الصناعات الاستخراجية والتحويلية تارة ثالثة . على أنه في جميع الأحوال يساهم رأس المال الاجنبي في الابقاء على حالة التبعية الاقتصادية في البلدان التي يوظف فيها . ويجري ذلك مباشرة وبزيادة عجز ميزان الحسابات الجاري بسبب تحويل الفوائد والأتاوات والأرباح وغير ذلك الى خارج البلاد . وبصورة عامة يمكن القول ان مجرد وجود رأس المال الاجنبي في بلد متخلف يكون دلالة على كون هذا البلد في وضعية من التبعية الاقتصادية . وتستمر حالة التبعية هذه ، إن لم تنزع نحو الزيادة ، مادام سببها ، أي وجود رأس المال الاجنبي ، قائماً .

استقلال التجارة الخارجية :

كنا ذكرنا (١) أن حالة التبعية الاقتصادية هذه تنتج ايضاً عن طبيعة العلاقات التجارية الخارجية للبلدان المتخلفة ، وعن هيمنة بعض المنتجات التصديرية ، وعن نقص أو عدم تنوع هذه الصادرات أما بسبب عدم تنوع الانتاج أو بسبب عدم تعدد تيارات التعامل التجاري . وهكذا فان غالبية البلدان المتخلفة هي في وضعها هذا بسبب قيام علاقات تجارية بينها وبين العالم الخارجي تضعها في مصاف البلدان المستغلة اقتصادياً . وما الاسراع بوضع حد لهذا الوضع الا ظاهرة من ظواهر محاربة التخلف .

هذا ، ومن أجل وضع حد لهذا اللون من التبعية ، يجب الاسراع بقدر الامكان في ربط التجارة الخارجية للبلدان المتخلفة بالحاجات **القومية** لهذه البلدان عوضاً عن ربطها بحاجات البلدان الاجنبية.

ومن أجل أن تصبح التجارة الخارجية أداة في خدمة التنمية الاقتصادية القومية بدلا من ان تكون أداة من أدوات التبعية الاقتصادية ، يجب أن تقوم الدولة نفسها بتأمين التجارة الخارجية،

---

(١) — انظر « التخلف الاقتصادي ومفهومه المبهم » في العددين ٣٧ ، ٣٨ من مجلة المرئة . « المترجم »

وذلك بالتدرج ، وعلى اعتبارها تمثل مصالح المجتمع . ولكن التجارة الخارجية في أغلب الدول المتخلفة هي في أيـدي الرأسماليين الاجانب . وحتى في حال كون هـذه التجارة بين أيدي الرأسماليين الوطنيين ، فانهم لايشكلون مطلقـاً الضمانة الـكافية في أن التجـارة الخارجية تتطور وفقـاً لتطور الحاجات القومية . اذ في الواقع نجد أن أرباح هؤلاء الرأسماليين تنتج ، وبدرجة كبيرة ، عن التبعية الاقتصادية ذاتها التي تكون عليها بلادهم . وهـذه التبعية بالذات هي التي تضطر بلادهم لأن تستورد كميات كبيرة من المنتجات المصنوعة ، التي تمكن التجار ، حتى المحليين منهم ، من تحقيق ارباح طائلة ، ومن الطبيعي والحالة هذه ان يعملوا على أن تكون درجة هذه المستوردات كبيرة . وبالتالي ليسوا هم الذين يساهمون في خلق حالة اقتصادية تجعـل استيراد مثل هذه المنتوجات أقل فأقل ضرورة . وبالاضافة الى ذلك فان الارباح التي يحققونهامن هذه العمليات التجارية لاتساهم في تمويل المشاريع التثميرية الضرورية للتنمية الاقتصاديـة . وبالمقابل فانه اذا حققت الدولة نفسها هذه الارباح فانه يمكن استخدامها كوسائل تمويلية لاغنى عنها لتطوير الاقتصاد القومي .

وهكذا فان الدور الاقتصادي للدولة يجب أن يشمل قطاع التجارة الخارجية منذ البدء في السير نحو تحقيق تنمية اقتصادية سريعة .

أولوية تراكم الثروة القومية :

انه من الضروري لدى بدء تطبيق سياسة غائية اللجوء الى ازالة جميع الركائز القديمـة للبنيان الاقتصادي والاجتماعي لأنها تعرقل ، بل تجعل التقدم الاقتصادي مستحيلا . وتتمثـل أهم جوانب البنيان المذكور بعلاقات الانتاج القديمة ، كذلك علاقات الملكية المتبعة ، والعـلاقات البشرية أو الاجتماعية المعروفةالتي تضع موضع التبعية العمال والمنتجين والنساء والاطفال ، أي جميع العناصر الخلاقة والنشيطةفي المجتمع .

وكانت هذه الجوانب القديمة للبنيان المذكورتحت سيطرة النفوذ الاجنبي في أغلب الاحيان لانها تشكل عقبات جدية في وجه التنمية الاقتصادية .

وبعد وضع الشروط المؤسسية للاستقلال موضع التنفيذ ، كذلك تلك المؤدية الى ازالـة العقبات في وجه التقدم الاقتصادي ، يصبح من الضروري أيضاً اتخاذ التدابير العملية والايجابية المؤدية الى زيادة تقوية الاقتصاد القومي ، وذلك بفضل ومساعدة تطور الطاقات الانتاجيـة ، وتقدم انتاجية العمل ، واستخدام واستغلال جميع مصادر الثروة التي تمكن من استثمارها الطرق التقنية الحديثة .

وهنا تتكشف الضرورة عن وجوب القيام بسياسة تثميرية واسعة النطاق سواء في مجال

تنفيذ المشاريع ، أو في الميدان العلمي والتطبيقي على وجه العموم ، من زيادة في المعرفة الى البحوث العلمية والتطبيقية . وكلما كانت هذه التثميرات هامة ، كلما تدرجت وسائل الانتاج الجديدة في احتلال مركز الأهمية وأدت شيئاً فشيئاً الى زيادة الانتاجية .

وأظهرت التجربة ، الى جانب التحليل العقلي ، انه اذا أريد لسياسة التثمير هذه أن تؤدي الى زيادة تمكين الاستقلال القومي ، كما هو مرغوب ، فلابد لها من أن ترتكز بصورة رئيسية على مبدأ تراكم الثروة القومية وليس على المساعدات المالية الخارجية التي غالبا ماتؤدي ، وفق أشكال وطرق جديدة ، الى المحافظة على حالة التبعية القائمة والمرغوب ازالتها .

وهكذا فان الزيادة السريعة في تراكم الثروة القومية تشكل الشرط الاساسي لتحقيق تنمية اقتصادية سريعة تشكل بدورها ، في الوقت ذاته ، العامل الاكثر فالاكثر قدرة في الاعتماد على الذات ، وفي تأمين مستوى معيشة متزايد لمجموع السكان . ولابد من الاشارة في هذا المجال الى ان المساعدات والتسهيلات المالية الخارجية التي تتلقاها الدول المنعوتة بالتخلف لاتعفيها من القيام بالجهد الضروري لتحقيق تراكم الثروة القومية . بل ان الامر على عكس ذلك : اذ كلما ازدادت هذه المساهمات والمساعدات المالية الخارجية ، كان من الضروري العمل على زيادة الجهد في تشكيل ومراكمة الثروة القومية ، وذلك لكي تظل هذه المساعدات ثانوية بالنسبة للثروة القومية المتراكمة . وفي الواقع ان هذه الثروة المتراكمة تشكل العامل الاساسي الوحيد الذي يمكن أن تبنى عليه سياسة انمائية اقتصاديه حقيقية .

وان التنمية الاقتصادية الكاذبة ، أو الخادعة ، التي ترتكز أساساً على المساعدات والمساهمات الخارجية ، انما تبنى على الرمال ، ويمكن للنشاط الاقتصادي المتولد عنها أن يتوقف في أية لحظة اذا ماتوقفت هذه المساعدات أو المساهمات الخارجية التي تعتمد عليها التنمية المذكورة وان تنمية اقتصادية على هذا الشكل انما توجد لتخفي الحقيقة التي هي استمرار التبعية الاقتصادية تجاه الخارج بشكل جديد .

ولعله من الجدير أن نشير هنا الى ان بعض الاقتصاديين أكدوا أن البلدان المنعوتة بالتخلف غير قادرة أن تحقق تنميتها الاقتصادية بالاعتماد على الثروة القومية المتراكمة ، وأنه لا بد لهذه البلدان ، بطريقة أو بأخرى ، وبعد زمن طال أم قصر ، من اللجوء للمساعدة الخارجية ولطلب رؤوس الأموال الأجنبية ، الأمر الذي سيضطرها الى قبول استمرار تبعيتها الاقتصادية قبولاً قدرياً .

على أن اتصالاتي وتجاربي التي قمت بها في عدد كبير من الدول المنعوتة بالتخلف أرشدتني الى أنه تتوفر دوماً طاقات انتاجية كبيرة غير مستخدمة وأنها لو استغلت أو استخدمت بصورة صحيحة أمكنها أن تؤدي الى تحقيق شروط تنمية سريعة لتراكم الثروة القومية والدخل القومي. هذا ومن المؤكد أن هذا الاستخدام المتزايد للطاقات الانتاجية المتوفرة ووضعها في خدمة تراكم الثروة القومية لا يمكن أن يتم الا اذا عمد في الوقت ذاته الى الاستغناء عن مختلف أشكال الاستهلاك الطفيلي أو الذي لا فائدة منه في وجوده.

وان اشكال الاستهلاك الطفيلي عديدة في أغلب البلدان المتخلفة وخاصة في المستعمرات القديمة. ووجود هذا النوع من الاستهلاك هو نتيجة طبيعية للمرحلة الاستعمارية، وذلك بالنسبة لفئة محدودة من السكان وهو يتمثل بعادات استهلاكية لا تمت بصلة الى المستوى الذي بلغته درجة تقدم الطاقات الانتاجية، وان مجرد وجود هذه العادات الاستهلاكية هو دلالة على حالة التبعية تجاه العالم الخارجي، هذه التبعية التي تتميز بها البلدان المتخلفة. وفضلاً عن ذلك فان هذه العادات الاستهلاكية تشكل عاملاً في المحافظة على حالة التبعية هذه. وبالمقابل، فانه اذا ما تم اللجوء الى هذه العادات الاستهلاكية الموروثة عن العهد الاستعماري، فان خطوة هامة تكون قد اتخذت، ويجب أن تتبعها أخرى تهدف الى تحقيق استقلال اقتصادي أمتن عن طريق استغلال أكمل للموارد والثروات القومية لصالح التنمية الاقتصادية.

ولعله من الجدير أن نشير هنا الى ان متطلبات محاربة التخلف تسير بشكل مواز لمتطلبات تحقيق نسبة أكبر من العدالة الاجتماعية، ودرجة أكبر من المساواة الاقتصادية.

كذلك الأمر فيما يتعلق باعطاء الأولوية في اشباع الحاجات الاجتماعية على الحاجات الفردية. واقصد من ذلك أنه لا يمكن تحقيق تنمية اقتصادية سريعة الا اذا أشبعت أولاً الحاجات الاجتماعية المتعلقة بالتربية والتعليم والصحة العامة ... وانه من الضروري تأجيل اشباع بعض الحاجات الفردية التي هي، في المرحلة التطورية التي بلغتها الطاقات الانتاجية المتوفرة في أكثر البلدان المتخلفة، حاجات ثانوية، وذلك من أجل تحقيق سريع للحاجات الاجتماعية.

واننا هنا نجد أنفسنا بصورة عامة تجاه مشكلة شاملة تتعلق باقامة واحترام مبدأ **الأولوية أو الأرجحية في التنمية**. وتتداخل هذه المشكلة مع متطلبات أخرى تتعلق باقامة وتحقيق خطة اقتصادية ذات طابع قسري. ونظراً لاستحالة تحقيق وتنفيذ كافة الامور في وقت واحد، ونظراً لكون امكانيات الدول المنعوتة بالتخلف محدودة، فانه من الامور الحيوية بالنسبة لهذه البلدان أن تحدد الأولويات في تنفيذ المشاريع. وهذا ما يفسر ان التخطيط القسري impératif يشكل احدى متطلبات محاربة التخلف الاقتصادي.

أهمية الأجهزة السياسية :

ما أن نبلغ هذه المرحلة من التحليل حتى نجد أنفسنا تجاه الضرورات المؤسسية . وفي الواقع فانه اذا لم يصاحب تحضير خطة التنمية العمل على ايجـــاد البنيان والمؤسسات الضرورية لامكانية تحقيق هذه الخطة ، فانها تبقى حبراً على ورق . وعلى هذا فانه من المهم الاشارة والتنبيه الى أن مجرد وضع خطة سليمة من النواحي التقنية لايعني مطلقاً امكانية تحقيقها وتنفيذها.

ان التحقيق السريع لخطة اقتصادية انمائية لايمكن ان يتم الا اذا توفرت وتحققت بعض الشروط المؤسسية والبشرية او الانسانية .

أما الشروط المؤسسية فتتمثل في أن توضع تحت تصرف الدولة اهم وسائـــل الانتاج والتبادل ، وفي ازالة المصالح الفردية الرأسمالية الكبرى التي يمكن لها ان تقاوم تحقيق خطة تهدف تنفيذ متطلبات تنمية الاقتصاد القومي . وعلى هذا الاعتبار فان تأميم الثروات الطبيعية والمناجم ، وأهم وسائل الانتاج ، والجهاز المصرفي ، والجزء الاكبر من التجارة الداخلية ، يشكل بصورة لا مجـــال للشك فيها الضرورة الاولى والاساسية لسياسة اقتصادية انمائية سريعة التحقق . واذا كنت لن اتوسع في تفصيل هذه الامور الهامة جداً فلأنه سبق لي ان شرحتها شرحاً مسهباً في بقية دراساتي .

ولكني بالمقابل سأولي عناية خاصة الشروط الذاتية او الانسانية في محاربة التخلف . والضرورة الاولى الواجب توفرها في هـــذا المجال هي وجود الاجهزة السياسية ذات النظرة الجلية والواضحة للأهداف والأولويات في محاربة التخلف . وهذه الضرورة هي ضرورة مذهبية (ايديولوجية) بالدرجة الاولى . من المؤكد انه يمكن للخبراء والتقنيين تقدير مدى الاهمية النسبية لمختلف الاهداف ، كذلك الوسائل الواجب اتباعها لتحقيق هـــذه الاهداف ، ولكن هذا الجهد ، الذي هو علمي بطبيعته ، لا يمكن له بأي شكل من الاشكال أن يحل محل الضمير او الشعور او الحس السياسي الواضح تجاه الاهداف ، ومدى الأرجحية لهـــذه الاهداف في الميادين الاقتصادية والاجتماعية . ان مجرد التهيئة السليمة لخطة اقتصادية هو عمل مفيد آنياً ، وبصورة محدودة ، اذا لم تكن الاجهزة السياسية ، وهي المسؤولة عن وضع هذه الخطة موضع التنفيذ ، مدركة تمام الادراك لطبيعة الاهـــداف الواجبة التحقيق ، والوسائل التي لاغنى عنها للتوصل الى بلوغ هذه الاهداف .

ذلك هو الشرط الأول في مجال المتطلبات الانسانية أو البشرية الواجب توفرهـا من أجل محاربة التخلف . أما الثاني فيتمثل باخلاص الأجهزة السياسية اخلاصاً كاملاً ومطلقـــاً للمصلحة القومية . انه فقط حينما تتمكن الأجهزة السياسيةمن تفضيل المصلحة القومية ،وبصورة دائمة ، على المصالح الفردية لاعضائها ، أو مصلحة فئة اجتماعية محدودة ، تستطيع أن تسير

بصورة سليمة بالمهمة المعقدة والصعبة التي هي محاربة التخلف . وهذا الشرط هو شرط مذهبي (ايديولوجي) بطبيعته ، وهو على درجة من الأهمية لا يمكن التسامح معها بتعرضه للخلل . وما الجهود الاقتصادي لعدد كبير من دول أمريكا اللاتينية ، هذه الدول الغنية بمواردها الطبيعية ، الا دليل يجعلنا ندرك انه رغم الاستقلال السياسي لهذه البلدان ، فان مجرد وجود جهاز سياسي غير مخلص كل الاخلاص لمشكلة التقدم القومي ، وهو اما ان يكون أداة تمثل المصالح الخاصة ، أو المصالح الأجنبية ، أو حتى الوطنية المرتبطة بالمصالح الأجنبيه ، فانه يعيق تحقق تنمية اقتصادية سريعة .

مساهمة الجماهير :

ناظرين الى الموضوع دوماً من وجهة نظر الحاجات والمتطلبات البشرية لمحاربة التخلف ، وخاصة فيما يتعلق بالأجهزة السياسية ، يجب التأكيد على ضرورة وجود صلات وثيقة بين هذه الأجهزة والفئات الأكثر تمثيلا للشعب . وقد دلت التجارب على انه لا يمكن لجهاز «بيروقراطي » بصورة كاملة ، حتى ولو كان يملك نظرات سليمة تقنياً لمتطلبات التنمية ، أن ينفذ بصورة سليمة سياسة انمائية سريعة ، أنها ليست في البيروقراطية ، أي طبقة الموظفين التي تستطيع ان تبلغ بجهود الشعب الغاية القصوى . وبالاضافة الى ذلك فان الشعب يؤلف الطاقة الانتاجية الرئيسية ، وخاصة في البلدان ذات النمو الاقتصادي الضعيف .

ان نجاح سياسة التنمية الاقتصادية انما يتعلق بمدى نشاط الجماهير ومساهمتها بحماس وثقة في تحقيق وتنفيذ هذه السياسة . وهكذا يتوجب على الأجهزة التي يقع على عاتقها أمر توجيه البلاد ان تفسح المجال امام المبادهات الشعبية ، وان تشجعها وتطلقها من عنانهــــا ، من أجل السير قدماً في تحقيق سياسة التنمية .

ولعله من الضروري هنا ان أشير الى ما يمكن قوله من تحفظات ضد المفهوم البيروقراطي والمالي لخطة التنمية . فالامر الاكثر خطورة بالنسبة لبلد متخلف في هذا المجال هو التصور انه يكفي ان تطلب الفئة الحاكمة من بعض التقنيين والخبراء وضع خطة تنمية ، ومن ثم تلجأ الى الدول الاجنبية طالبة الاموال الضرورية لتمويل هذه الخطة . من الممكن لهذه الطريقة ان تحقق بعض النتائج الايجابية المحدودة في بعض القطاعات ، ولكنها لا تكون قد ساهمت بالمرة في شن حرب حقيقية ضد التخلف . ذلك ان حرباً كهذه تستوجب بالدرجة الاولى ، وكما سبق واشرت الى ذلك ، جهداً كبيراً لتراكم الثروة القومية ، هذا التراكم الذي يفترض بدوره المساهمة الحماسية للجماهير . وانه يمكن فقط لبعض البلدان القليلة ، كالهند ، حيث توجد بورجوازية وطنية قديرة وقادرة ، تسيطر على الوسائل المؤدية الى تحقيق التراكم ، ان تحقق بعض التقدم

الاقتصادي دون مساهمة فعالة وحماسية من قبل الجماهير . ولكن التقدم الاقتصادي المتحقق في مثل هذه الحالات الخاصة يبقى محدوداً ، وبطيئاً ، وغير كاف . ذلك لأنه يترك هامشاً واسعاً للتبعية الاقتصادية ولبقاء الجزء الاكبر من السكان في حالة من الفقر والبؤس .

ان ماتقدم ذكره من ملاحظات يؤدي بنا الى التحدث عن متطلبات جديدة في ميدان محاربة التخلف . واولاها هي ضرورة القيام بجهد صادق وواسع ومستمر من اجل رفع مستوى التوعية الشعبية الى أعلى درجة ممكنة . وهنا تحتل محاربة الامية ، والسير في خط قائم على تربية ترتكز على اسس موضوعية ثابتة ، المكانة الاولى . وانه من الخطأ والخطر السير في طريق البناء الاقتصادي دون السير ، في الوقت ذاته ، في طريق القضاء على الامية والجهل . وهذا مايستوجب اعطاء الاهمية الاولى للتطوير السريع للتعليم الابتدائي وتعليم البالغين . من المؤكد أنه يجب ان يسير تطور التعليم الثانوي والتقني والعالي جنباً الى جنب . ولكن هذا لايعني ان يسير هذا التطور المتوازي بطورة اسرع من سير التعليم الابتدائي وتعليم البالغين ، وإلا يخشى تشكيل جيل من البيروقراطيين المنعزلين عن الجماهير ، حيث تنقطع الصلة مابين الطرفين ، وتصبح مصالح الطرف الواحد غريبة عن مصالح الطرف الآخر وعن مفاهيمه أيضاً . وهذا يتناقض مع مبدأ ومتطلبات محاربة التخلف .

وبصورة عامة ، يجب ألا يغرب عن البال أنه ضمن الشروط القائمة للاقتصاد العالمي التي تستوجب قيام الدولة في البلدان المتخلفة بدور رئيسي في مجال البناء الاقتصادي ، يكمن خطر كبير . وهذا الخطر هو بلوغ مرحلة رأسمالية الدولة ، بشكل بيروقراطي ، الامر الذي لايسير بعيداً ولا بسرعة في طريق التنمية الاقتصادية ، ذلك لانه غير قادر على التفاعل مع الجماهير ومن شأن ذلك ان يؤدي بالدولة الى اللجوء الى طلب مساعدات مالية خارجية وذات اعباء ثقيلة ، وذلك بسبب عدم كفاية تراكم الثروة القومية .

ان سياسة انمائية تخدم بصورة اساسية مصالح فئة محدودة من السكان تؤدي بالضرورة الى هذا اللون من الرأسمالية البيروقراطية ، هذه الرأسمالية التي من شأنها ان تحد اكثر فأكثر من النمو الاقتصادي بحيث تعود في آخر الامر الى المحافظة ان لم نقل الى زيادة وضع التبعية الاقتصادية .

وجملة القول ، وكخلاصة لماذكر ، ان سياسة محاربة التخلف تفترض ان تحقق ، في الوقت ذاته ، المتطلبات الموضوعية ، تلك التي تؤدي الى تحولات مؤسسية ، والمتطلبات الذاتية او المذهبية (الايدولوجية) .

وتتشكل المتطلبات الموضوعية ، كما رأينا ، من تحول شروط الانتاج وطرق ونماذج التملك . فيجب ، من جهة ، ازالة أشكال التملك التي تمكن المصالح الفردية ، او الخاصة ،

-سواء أكانت اجنبية ام وطنية، من التغلب على المصالح الاجتماعية التي هي عوامل النمو الاقتصادي السريع . ولتحقيق هذه الغاية الأخيرة لا بد للدولة او المؤسسات العامة من ان تضع يدها وتسيّر التجارة الخارجية والداخلية ، والمصارف ، ووسائل الانتاج الهامة ومصادر الثروة الطبيعية ، وأهم وسائل المواصلات . واذا ما تحقق ذلك أمكن وضع خطة اقتصادية انمائية سريعة النتائج وذات صفة قسرية . ومن جهة ثانية ، تجب ازالة طرق ووسائل الانتاج البالية تدريجياً واستبدالها بطرق ووسائل اكثر فعالية وحديثة .

كذلك ، وبصورة موازية ، يجب اشباع الحاجات الفردية وخاصة الاجتماعية بصورة متزايدة ، وخاصة في ميداني التربية والصحة . وهذا يتطلب تحديد الأولويات بصورة عادلة ودقيقة ، كذلك الوسائل المؤدية الى ذلك ، ضمن اطار الخطة . ولكن لا يمكن لهذه الخطة أن تستجيب لمتطلبات التنمية ، كذلك لا يمكن تطبيقها بشكل مرضي ، الا اذا تم تحقيق ، من جهة الأجهزة السياسية والجماهير ، عدد من المتطلبات الذاتية والمذهبية التي سبقت الاشارة اليها.

هذا ، واني اذا ما اردت تلخيص الجزء الاخير من الملاحظات المذكورة ، فاني اقول انه من وجهة نظر مذهبية يكون احد العوامل الرئيسية في التنمية في كل بلد متخلف هو الثقة العاقلة والمنطقية للبلد المتخلف في طاقاته ، بدءاً من قدرة وطاقات السكان . كذلك لابد من توفر الارادة الصادقة ، والتصميم الحازم على تحقيق الخطة الاقتصادية ، وتحقيق التعاون القائم على الثقة والحماس بين الجزء الاكبر من فئات الشعب ، أي ، وقبل كل شيء ، الفئات الاكثر حرماناً .

وبتعبير آخر ، لا يمكن لسياسة تنمية اقتصادية ان تستمر وتكون ناجحة الا اذا كانت « الفئة المختارة » التي تشرف على تنفيذها على درجة كبيرة من التضحية الفردية والاخلاص .

وختام القول ان متطلبات محاربة التخلف تتداخل بصورة اساسية مع المتطلبات التي يستوجب توفرها اقتصاد مخطط اشتراكي . وتزداد نزعة التداخل هذه اكثر فأكثر في عالمنا المعاصر . لذلك فاني شديد الثقة في ان مستقبلاً زاهراً ينتظر البلدان التي يدعوها البعض بالبلدان المتخلفة .



صور من النهضة الثقافية العربية

في غرب افريقية

بقلم نعيم قداح

كان الاستعمار في غرب افريقية نهاية الحقبة المزدهرة التي توهجت فيهـا الثقافة العربية الاسلامية في ظل الدول الاسلامية التي قامت في تلك الاصقاع[1]. فلقد التهمت نيران الجيوش الاستعمارية في مدن افريقية الغربية الثقافية كثيراً من المدارس والمكتبات ، وأتى المستعمر على كل أثر علمي عندما قطع التيار الحضاري العربي الاسلامي القادم من شمال افريقية ومصر .

(١) انظر في هذا البحث المصادر التالية :

١ — مجلة حضارة الاسلام التي تصدر في دمشق.

٢ — J. C. Froelich : Les Musulmans d'Afrique Noire Paris 1962

٣ — A. Gouilly : L'Islam dans L'A.O.F. Paris 1952

٤ — V. Monteil : L'Islam Noir Paris 1964

وكان من شأن ذلك أن تدهور التعليم العربي الاسلامي حتى وصـل في منتصف القرن التاسع عشر الى مستوى المدارس الاولية . ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للافريقيين بصورة عامة وجد كثير منهـــم ان الاسلام سيخلصهم من ظلم المستعمرين لذا تضاعف عدد معتنقيه في مدى نصف قرن واقترنت الدعوة للدين الحنيف بجهود فردي لاعادة امجاد الثقافة العربية الاسلامية .

ومنذ ١٨٥٧ وضع فيدرب Faidherbe رائد الاستعمار الفرنسي الاول في غرب افريقية القواعد لاعادة تنظيم التعليم بغية السيطرة على القائمين عليه ، وقامت قوانين عام ١٨٧٠ ، ١٨٩٦ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٥ ، لتنظمه وتحسنه شكليا ، فقد نصت على انه لا يمكن لأحد ان يفتح مدرسة دون ان يجري امتحانا يثبت مقدرته في اللغة العربية ، مع ان الذين كانوا يقومون بفتح المدارس آنئذ من العرب الموريتانيين أو من تلاميذهم السنغاليين كانوا على مستوى علمي لائق في دراسة اللغة العربية ، وكان هؤلاء ممنوعين من ممارسة النشاط الثقافي ، لذا فان الذين يسمح لهم بفتـــح المدارس هم قلة قليلة من الافريقيين ، واعترضت الاوساط الاسلامية المثقفة على ذلك فهي ترى أن لأي كان ان يفتـــح معهداً من غير مراقبة ادارية اذ المهم ان يكون المعلم حسن السيرة والسلوك ، وقد وجد الحكام الفرنسيون في بناء المدارس التي تنشر تعليما موسعاً عربياً فرنسيا في بوتيليميت Boutilimit وعطار Attar وكيفا Kiffa وتاميدرا Timbedra وديوربل Déourble وبورتونوفو Portonovo وطومبوكتو Tombouctou وآبيشه Abéché منفذاً للاستعمار الثقافي ، وجل هذه المدارس تقريباً وجدت في اقطار ذات ثقافة عربية اسلامية يعمل فيها معلمون محليون مغربيون او افريقيون تحت ادارة مسلمين حصـــلوا على شهادات من جامعة الجزائر وفاس وغيرها ، لكن ضعف المنهاج العربي وتفاهة مضمونة تبط من عزيمة اغلبية الطلبة .

وقد يعترض الاستعماريون على اسماء الذين يرغبون في فتح مدرسة في بعض الاحيان اذا آنسوا منهم افكاراً تحررية تشكل اخطاراً على النظام الاستعماري ، ويكون ضحية هذا الرفض عادة سكان احدى المـدن أو مجموعة من القرى ، اذ يحرم السكان في مثل هذه الحالات من كل تعليم ، وقد التمس مراراً معلمو المدارس الاسلامية اعانات على غرار المدارس المسيحية وكانت حجة الرفض ان مدارس البعثات تحصل على اعانات من حكوماتها الاستعمارية لأنها تطبق منهاج المدارس الرسمية الاوربية ولا يحصلون على اعانات على نشاطهم الثقافي ، لكن معلمي المدارس الاسلامية لم يستطيعوا انشاء معاهد تماثل مدارس البعثات التبشيرية المزودة بأحسن المدرسين وافضل الابنية والادوات والمخابر ، ولهـــذا انقرضت المدارس الاسلامية أو تدهورت الى مستوى الكتاتيب التقليدية ومدرسوها لايحذقون سوى آيات القرآن عن ظهر قلب وبذلك كانت معلوماتهم محدودة وقليل منهم من حاول تعلم الفقه او الآداب والذين جربوا حظهم في ذلك التجؤوا الى نصوص قديمة .

وفي غينيا وموريتانيا بدأت محاولة خلق منهاج عربي مخطط على النسق العربي الموجود في

شمال افريقيا ، على ان التعليم القرآني لايتبع أية طريقة ولا يصح وصفه بأنه تعليم من الدرجـــة الثانية رغم اننا نغدق عليه هذا اللقب احيانا .

كما ان الزوايا لاتتبع منهـــاجا موحدا ، فالقائمون على الزاوية يدرسون مايحلو لهم وما يعرفونه من النصوص التي تعرف باسم :

الرسالة او التحفة والجزء الاول لمبتكر سيدي خليل .

واليوم يمكن ان نؤكد ان تعليم القرآن ، المنطلق الاول في التعليم العربي هناك ، قد استقر على نحو غير مستحب ، فاغلب المدرسين لايتقنون القراءة والكتابة باللغة العربية اتقانا تاما . فهم يجهلون النصوص المقدسة بصعوبة ويجهلون المعنى الحقيقي لما يقرؤون .

يجلس المؤدب في سقيفة منزله يحيط به عشرة أو اثنــا عشر من التلامذة الذين لاتتجـاوز اعمارهم العاشرة او الثانيةعشرة يحمل كل منهم لوحا ودواة وقلما ، ويعيد المؤدب دون فهم الـسور القصيرة من القرآن . وهو يخلط في قراءته الارتجـــالية بعض الافكار الخاصة في التفسير والفقه ويعلق على الكل حسب طريقته .

أما التلامذة فيعيدون عن ظهر قلب ويبتور دروسهم فيرسخ في اذهانهم بعض النصوص وبعض الصلوات التي لايستطيعون ان يؤدوها صحيحة . ومن هؤلاء التلامذة من هو خارجي ومنهم من هو داخلي وفي هذه الحالة تتكفل بهم زوجة المؤدب وهم غالبا يعيشون حيـــاة لاتتوفر فيها الشروط الصحية : مسكن سيء وأكل رديء وعمل يتجاوز طاقتهم وفي بعض الاحيان يلجؤون للاستحسان لفائدة المدارس . أما البورجوازيون الموسرون في السنغال فيتعاقدون غالبا مع المؤدب ليدرس ابناءهم وابناء جيرانهم .

ولا يستحق التعليم الملقب بالعالي مثل هذا النقد بسبب ارتفاع المستوى العلمي للمدرسين هناك وهذا التعليم يستند الى نظام الزاوية والمختلفون الى هذه الزوايا يمضون فيها من ثلاث الى عشر سنوات ولا يدفعون لذلك مقابلا .

ولكن عندانتهاء دراستهم يرسلون كل سنة هدايا الى اساتذتهم القدامى وفي اثناء دراستهم يقوم القادر منهم بنسخ مخطوطات لاساتذته .

وهذه المدارس الملقبة بالمدارس الثانوية كثيرة . **والمدرسون الذين يديرونها عاشوا بعض الوقت في الزوايا الكبيرة أي قرؤوا بعض الكتب في (الفقه) والتوحيد وبعضهم اتبع دروسا في جامعات المغرب او الأزهر مدة سنتين** أو ثلاث . لكن حظهم كان تعيسا بسبب مجانية التعليم . اما الهبـــات التي تصلهم فلاتضمن لهم

عيشا محترما ، وقد يقوم بعض التلامذة في العمل في ارض الاستاذ المؤدب على أن هذا لايمكنه الا من الحصول على القوت الضروري .

في السنغال

كانت بعض العائلات الملقبة Forolée في هضاب Fouta toro السنغالية تعنى اشد العناية بالتعليم وهذه الكلمة تعني باللغة المحلية المؤدب . وقد نجحت هذه العائلات في المحافظة على المستوى العلمي الرفيع لأن المعلمين هنا كانوا قد تعلموا في فاس (جامعة القرويين) وتونس (جامع الزيتونة) .

لقد كان تعليمهم يقوم على **الاساليب العربية القديمة في العناية بالنصوص القرآنية والحديث والتفسيرات السلفية والفقه المالكي** ، وبعد مدة أخذ ينضب نشاطهم واصبحوا يقدمون لتلاميذهم هيكلا فارغا من المادة فيحفظ هؤلاء دون ان يفهموا .

وقد زاحمهم اليوم مدرسون شبان اكثر ثقافة منهم وتلامذة زوايا مغربية او طلاب ذوو تفكير ديمقراطي قدموا من الخارج وتعلموا في الازهر . اما في باقي السنغال فالمدارس الابتدائية القرآنية كثيرة وهي دائما مفتوحة بدون مراقبة ولكنها لاتقدم شيئا في ميدان الثقافة العربية . وبعد الحرب العالمية الاولى قامت نهضة ثقافية عربية اسلامية روادها افريقيون تعلموا في مصر وفاس فانشئت مدرسة دار القادرية قرب لوكا Louga والمدرسة التابعة لطائفــة المريدية في كيد Guède وتقوم على شؤونها اسرة بوسو Bousso المشهورة بخدمة العلم . وبعد ذلك فتح في عدة سنوات مايقرب من ثلاثين مدرسة ثانوية لتدريس اللغة العربية من بينهــا المدارس الخمس التابعة للاتحاد الثقافي الاسلامي في تيز Thies **وفيها ٤٠٥ تلميذا من بينهم ٢٠٠ فتاة يتعلمون اللغة العربية** بادارة ثلاثة من تلامذة القرويين والأزهر القدامى .

من هذا النوع مدارس منصورسي ومنصور وبوف في تيفاوان Tivaouane ومدارس محمود با في مدينة كاولاك Kaolak والمدارس الاربع في دكار الــتي منها مدرسة تيديم Thiedème وهي تؤوي ٢٠٠ تلميذا ومدرسة سانتيابا Santibiaba التي فيها ١٤٥ تلميذا وتدرس فيها اللغــة العربية والتوحيد والعقيدة وفقا للمناهج المصرية . بالاضافة الى بعض المدارس العربية التي اسسها محمود باشيخ المريدية في وادي نهر السنغال .

في مالي

التعليم الابتدائي في الشمال من نوع التعلـيم الموجود في غرب افريقية فلكل مجموعة من القرى مدارسها الصغيرة وكان التعليم العالي في هذه المنطقة قد بلغ الاوج في القرون الوسطى ،

حيث سطع هناك نجم العالم أحمد بابا وكثيرون من تلامذته ، وتهافت الطلاب من كل صوب الى تلقي العلم في جامعة تومبوكتو tomboctou وذاع صيت هذه المدينة الافريقية على أنها مركز عظيم للثقافة العربية في افريقية .

ولما حل وباء الاستعمار في هذه المنطقة اختفى العلماء من ميدان الثقافة ولوحقوا واضطهدوا ، ومن كان منهم على قيد الحياة لم يكن أهلا لأي لقب علمي . أما الشبان الافريقيون فانهم يختلفون الى المدارس التي تتبع منهاجاً ثنائيا عربيا افرنسيا وهؤلاء بعيدون عن النهضة الفكرية والتي رفع اعمدتها أسلافهم والتي كان من نتائجها وجود عدد كبير من المراجع الرئيسية للمعرفة في السودان أصبحت خير مرشد ومعين في حقل البحث العلمي وقد اتجهت افكار الشباب في حقبة الاستعمار المشؤومة الى النضال بكل انواعه للتخلص من شرور المستعمرين **ونالت الثقافة العربية حيزا كبيرا من اهتمامهم وعاد الكثير من المتعلمين في الازهر لينشئوا عددا من المدارس الاسلامية التي ينتظر منها اعادة أمجاد السودان الثقافية ، وعادت معاهد العلم تزدهر مرة أخرى في غاوه وغوندام وماسينا وغيرها .**

وفي حينه **قامت المدرسة العربية** تريد ان تعيد المجد الثقافي الغابر لهذه المدينة العريقة في **ثقافتها الاسلامية** ، وكان لمدرسيها طموح واضح في التقدم والرقي . فانشأ تلامذتهم عدداً من المدارس الاخرى لم يستطع الاستعمار ان يعيق تقدمها .

وفي سيغو تقبل المدارس من (١٥٠ ــ ٢٠٠) تلميذا يتعلمون الشريعة على أيدي رجل العلم والمعرفة وسليل بيت النضال المعلم بن مصطفى تال .

وفي باماكو عاصمة مالي يربو عدد التلاميذ على (٦٠٠) وهم موزعون في مدارس محمد توري M, Touré التقليدية التي تنافسها منذ عام ١٩٥٠ مدارس كابين كابا Kabine Kaba الثورية التي حاولت ان تتبع الطرق التربوية الحديثة في التعليم القرآني ، مستندة في ذلك على الثقافة العربية الاصيلة التي تلقاها مدرسوها في القاهرة وفاس . ولم تكن المدارس التي أسسها احمد با A . Hampathé Ba (١) لتنمو وتزدهر لأن المستعمرين قاوموها ، ولكنها عادت اليوم في ظل الاستقلال الى الظهور والنشاط .

وفي منطقة الساحل القريبة من موريتانيا توجد بعض مراكز للتعليم العالي في نارا Nara مورديا‌ه Mourdiah كايس Kayos نيورو Nioro اساتذتها شبان **متحمسون وعصاميون**

---

(١) أحمد هامباته باهو اليوم سفير جمهورية مالي في ساحل العاج وهو من أشهر العلماء في باماكو .

وهم متـأثرون جميعاً بمبادىء الشريف حمى الله الذي رفع راية النضال ضد الاستعمار في مطلع القرن العشرين .

في ساحل العاج

في ساحل العاج ليس هناك سوى مدارس قرآنية ابتدائية وظهرت محاولات التجديد قام بها الحاج ماري كامارا Mari Kamara في مدرسته في بواكه Bouakē وقام بها ايضاً كلين ديان في مضمار التعليم الابتدائي ، وينحصر هذا التعليم في الشمال حيث تعيش القبائل الاسلامية بالقرب من مالي وغينيا .

في غينيا :

يعتبر المعلم في هذه الجمهورية الغينية محوراً هاماً **تدور حوله الثقافة العربية الاسلامية** ذلك لأن السكان **مسلمون في اكثريتهم الساحقة** وقد كانت الفوتارجالون (غينيا الوسطى الجبلية) مركزاً ومنطلقاً للحركات السياسية التي تهدف الى توحيد مسلمي افريقية الغربية تحت راية واحدة هي راية الثقافة العربية الاسلامية .

لهذا يتمتع المعلم Karamoko بالاحترام الاجتماعي من السكان .

ولما احتل الفرنسيون (كما يقول بول مارتي) هذه البلاد وجدوا مدارس كثيرة للغة العربية ومكتبات مليئة بالمجلدات العربية من تصانيف المؤلفين العرب والافريقيين الذين ألفوا باللغة العربية على ان هذه الصورة الرائعة المشرقة قد نالها التشويه على ايدي الاستعماريين الآثمة .

فقد سرق المستعمرون الكتب ونقلوها الى بلادهم وأغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين بصورة واضحة ، فقد كان عدد المعلمين (عام ١٩٠٧) ٢٩٥٠ معلماً يعلمون ١٨٦٧٣٧ تلميذاً ولكن هذا العدد انخفض بجهود الاستعمار المؤذية الى ١٨٧٥ معلماً يدرسون ٢٦٣٨١ تلميذاً في عام ١٩٤٥ (١) وكانت المدارس الاستعمارية والمدارس التبشيرية التي يشجعها الاستعمار في كل مكان سبباً في تقهقر الثقافة العربية الاسلامية على الرغم من ان عدد الذين اعتنقوا الاسلام في تلك الفترة المذكورة يتضخم بصورة متزايدة وقد حافظ شعب الفولا (قبائل ضخمة عديدة في اواسط غينيا) على ثقافته العربية الاصلية فالاطفال يذهبون بالآلاف الى المدارس القرآنية والى المدارس الرسمية في آن واحد — اما وضع التعليم العالي فليس مرضياً . فالمعلمون القدامى يتناقصون بالموت ولايعوضون على ان الشبان الذين يتابعون دراستهم يحاولون الوصول الى مستويات رفيعة في العلم تضاهي تلك التي عرفها أجدادهم فهم يدرسون علوم اللغة العربية والتوحيد

---

(١) يفسر لنا العدد ٢٦٣٨١ اقبال التلاميذ على تعلم العربية على الرغم من قلة المعلمين .

(الفقه) التي تؤلف مايسمى باللغة الفولانية Figurol المرحلة التكميلية لتعليم القرآن التي تمهد للتعليم العالي الحقيقي حيث يتعمقون في دراسة المواد السابقة ويضيفون اليها الادب والحديث والتصوف.ولاتزال بعض المراكز الثقافية تمارس نشاطها العلمي ففي طوبا مايقرب من ٢٥معلماً وكذلك فمدارس تيمبودلاي وكاوال والدنكراي تسير في مناهجها على اسس تعليمية اساسية اصلية .

وفي كانكان (غينيا العليا) ، العاصمة **الثقافية لشعب المالانكة** مدرسة كبيرة باشراف فانتا مادي وهي مدرسة ثانوية تؤوي مائتي تلميذ تقريباً وعدداً كبيراً من الزائرين للاطلاع . وفي هذه المدرسة يتابع الطلاب دراسات الفقه والتوحيد .

وتعتبر مكتبتها ذات اهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين في غرب افريقية اذ تحوي على ٩٠٠ مجلد من المؤلفات العربية في مختلف العلوم ويمتد تأثير المدرسة الى مسلمي السيراليون (١).

في الفولتا

في هذه البلاد اغلبية وثنية واقلية اسلامية الا ان المسلمين نشطوا في كل مكان من البلاد فهناك عدد من المدارس يدرس طلابهـا القرآن والتفسير والحديث وفي بوبو ديولاسو Bobo Dioulasso مدرسة عالية يديرها المعلم كوندي ماري Kondé Mari ويؤمهـا مائتي تلميذ يدرسون فيها القواعد وفقه اللغة والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وتاريخ العالم العربي والحساب والهندسة حسب كتب حديثة يجلبونها من لبنان ومصر .

في النيجر ونيجيريا

تعتبر جمهورية النيجر ساحة كبيرة تلتقي عليها الثقافة العربية القادمة من السودان العربي ومن افريقية الغربية ، لهذا تنتشر في هذا البلد الواسع المدارس الصغيرة الابتدائية لتعليم القرآن وهناك مدرسة واحدة على الأقل يدرس فيها التفسير والتوحيد واللغة العربية والفقه وتضم كل مدرسة نحو خمسين طالبا ، في حين ان الطلاب الذين يرغبون متابعة علومهم في التحصيل العالي

---

(١) في فريتاون عاصمة السيراليون مدرسة اسلامية سمح المستعمرون بفتحها منذ أمد بعيد غير ان المسلمين في الجهات الداخلية من البلاد ،لايستطيعون المجيء اليها ومنذ مدة عمد اللبنانيون فيها الى فتح مدرسة عربية لاولادهم بمساعدة مصرية وينتسب الى هذه المدرسة بعض الافريقيين المسلمين ..

يؤمون المدن التالية في شمال نيجريا مثل كانو وكاتسينا وسوكوتوزاريا ويرجع هؤلاء الطلاب الى بلادهم النيجر ليصبحوا معلمين في المدارس .

أما في نيجريا فان المستعمرين الانكليز قد حالوا بصورة عامة بين المسلمين والتعلم . اذ كانوا يشترطون على المسلم ان يغير اسمه الى اسم لاتيني ويشترطون عليه حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعماري .

وقد وجد المسلمون أن أمامهم طريقين اما أن يعمدوا الى تغيير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين أو أن يحتالوا على المستعمرين ليتعلموا ثم يعودون الى دينهم بعد أن تشبعوا بآراء وتوجيهات الاستعماريين .

ويبدو ان الكثير منهم خوفا على الدين عزفوا عن هذين الطريقين وفضلوا البقاء في الجهل والفقر لذلك تجدهم يعملون حمالين أو حرفيين وفلاحين مأجورين الا ان مطلع القرن العشرين قد شهد نشاطا ثقافيا عربيا قد رافق الافكار التحررية التي هبت على افريقية الغربية قادمة من البلدان العربية فاضطر الانكليز الى فتح مدرسة الشريعة الاسلامية في شمال نيجريا ومدرسة الصفوتي . وكان يقوم بالتعليم في هاتين المدرستين اساتذة قدموا من الخرطوم (١) وهاتان المدرستان تخرجان القضاة الذين يحكمون بالشريعة الاسلامية في شمال نيجريا حتى اليوم ومن هاتين المدرستين يذهب الطلاب الى الازهر .

وفي عام ١٩٤٨ احدث كرسي اللغة العربية في جامعة ابادان كما فتحت مدرسة ثانوية في مدينة (لاغوس) بجهود الطائفة الاحمدية .

وقد قام بعض الافريقيين من المتأثرين بالسياسة الانكليزية بمناهضة التعلم العربي على انه دعوة لقومية خارجية غير نيجرية الا ان المسلمين قد استطاعوا عام ١٩٥٧ انشاء مركز التعليم العربي تخرج منه عدد كبير من المعلمين . ويقوم منهاجه على تعلم اللغة العربية والفقه وعلوم اللغة والادب والحديث والقرآن والحساب والتاريخ والجغرافيا ولهذا المركز فرقة تتجول في انحاء نيجريا لتقوم بتعليم المسلمين اللغة العربية والثقافة الاسلامية . وفي شمال نيجريا تأخذ الثقافة العربية شكلاً قوياً وظاهراً حيث لم تتبدل الثقافة والتعليم منذ القرن التاسع عشر ويقوم على رعايتها زعماء الفرق التيجانية والقادرية والشاذلية وهناك تطبق احكام الشريعة بحزم فيقام

(١) ذكر مونتي Monteil في كتابه L'Islam Noir انه زار هذه المدرسة ووجد فيها المخطوطات العربية التي ترجع الى القرن الثامن عشر .

الحد على الزاني وترجم الزانية وتقطع يد السارق وتدفع الزكاة بدقة تامة .

كما ان اللغة المحلية (الحاوصه والفولا) تكتب بحروف عربية بل ان كثيرا من اللغات المتداولة هناك قد دخلتها ألفاظ عربيـــة . مثل مالم (المعلم) وصواباً (الصواب) وأمنيو (الأمين) ويعتبر المسلمون في شمال نيجريا تعلم العربية فرضا مقدساً واجب الاداء لذا يرسلون أولادهم الى المدارس لهذه الغاية .

في تشـاد

المدارس الابتدائية القرآنية كثيرة عند الافـــريقيين المسلمين والعرب(1)

والدراسة فيها غير منتظمة وقصيرة ـ والمعلم في هذه المدارس يعلم الكتابة العربية ويقرىء الآيات القرآنية اما التلامذة فيتدربون على تلاوة القرآن عند معلم خاص يدعى (كوني Goni) يجيد حفظ القرآن عن ظهر قلب بعد ان تعلم في احدى مدن شمال نيجريا واجرى فحصا في Kaduna ويقوم التعليم العالي على ستين مدرساً (ويسمى المدرس الفقير) يعلمون نحو اربعمائة تلميذ .

اما الطلاب فهم مطالبون بضمان قوتهم ويشتغلون لصـــالح المدرس الذي يؤمن لهم ضروريات الحياة وهم يدرسون التفسير وفقه اللغة والقواعد والتوحيد . وتنتشر مراكز التعليم الشهيرة في فورلامي العاصمة وأهمها مدرسة محمد المهدي الشنقالي وفي كيسكاوا Kiskavoa وموسورو Moussoro وقد اشتهر العالم العربي عبد الكريم القواتي في تلك المنطقة بجهوده العلمية في مختلف الاصقاع التي يتنقل فيها .

اما المركز الحقيقي للحياة الثقافية التشادية فانه يقع في Abéché آبيشه وقد ظلت مركزاً للاشعاع الثقافي طيلة القرن التاسع عشر على ان الاستعمار الفرنسي قد عمل على القضاء على المدارس العربية في هذه المدينة فهجرها العلماء الى فورف السوداني العربي .

تشتهر آبيشه بالعالم الذائع الصيت ابراهيم مختار الذي يدير مدرسة ثانوية يقوم منهاجها على التفسير والتوحيد والفقه والقراءات وعلوم اللغة ويختلف الى هذه المدرسة اربعون تلميذا وفي عام ١٩٤٧ قام محمد ايليش (وهو تشادي) درس في مصر بانشاء مدرسة في آبيشه وقد جعلها على غرار نموذج المدارس المصرية الحديثة وهو يدرس الى جانب المواد الدينية الفلسفـــة والحساب والتاريخ العربي والجغرافيا وقد كثر تلاميذ هذه المدرسة مما جعل المستعمرين يعمدون

---

(1) العرب في منطقة تشاد هم بالاصل من السودان العربي او من عرب جنوب ليبيا . وقد قدموا مع الموجات الاسلامية العربية التي وصلت الى تلك المنطقة حاملة الدعوة الاسلامية في القرن الثاني عشر وما بعد ..

الى انشاء المعهد الاسلامي الفرنسي لمنافستها الا ان الغاية التي أنشىء من اجلها أدركت وظل التشاديون يرتادون المدارس الاسلامية .

في الكاميرون

يقوم بالتعليم في الكاميرون أفراد من الشعب الفولاني الذي يسكن شمال نيجريا وهو يشبه التعليم في تشاد وفي نيجريا وهناك نحو ثلاثمائة طالب في التعليم العالي يتعلمون التوحيد والشعر في مروه Maroua وفي غروا Garoua وفومبان Foumban ويذهبون غالبا ليحسنوا مستواهم في يولا Yola **في الشمال الغربي من الكاميرون حيث تسود اغلبية اسلامية** وحيث ترعى شؤون الثقافة الاسلامية هناك سلالة عثمان دان فوديو (من اكبر الفاتحين المسلمين في شمال نيجريا) .

المستوى الثقافي :

ان التعليم القرآني والمدارس العربية الابتدائية والثانوية المنتشرة في كل مكان من افريقية الغربية لاتعطي وحدها فكرة واضحة عن تقدم الثقافة العربية . ان هناك عدداً من العلماء لهم وزنهم في ميدان الثقافـــة عاشوا في عهود الاستعمار والتحرر ، تمكنوا من تأليف الكتب في شتى فروع المعرفة وأصدروا الدواوين الشعرية بالعربية او باللغات المحلية التي تكتب بحروف عربية ولقد استمد هؤلاء ثقافتهم من زوايا الطرق الدينية التي لاتزال منتشرة بصورة واسعة في غرب افريقية وأتموا تحصيلهم بالسفر الى البلدان العربية في شمال افريقية اواستوردوا كتباً عربية بأسعار مرتفعة من القاهرة والجزائر وتونس ، على ان القرآن الموسوعة الفكرية الهائلة ، يشكل حجر الزاوية في البناء الثقافي الذي تقوم عليه شهرة العلماء الافريقيين فمن هؤلاء العلماء من عـــاش في الحقبة التي سبقت الاستعمار ففي نيجريا درس العالمان الانكليزيان بيفار وهسكيت تاريخ الادب العربي في نيجريا الشمالية حتى عام ١٨٠٤ وقد ذكرا اسم المغيلي المتوفي عام ١٥٠٤ م وقد الف هذا العالم نحو عشرين كتابا منها كتاب واجبات الامير وقد طبع في بيروت عام ١٩٣٢ وهناك آخر اسمه البلبالي (القرن السادس عشر) وكان حافظاً بارعاً في علم الحديث .

وفي القرن الثامن عشر ظهر في نيجريا عدد من العلماء الذين ألفوا بالعربية نذكر منهم على سبيل المثال الامام البرناوي في كتابه شرب الزلال وهو ديوان شعر وقد عاصر هذا العالم الداعية الاسلامي والفاتح عثمان دان فودين وهناك جبريل العالم الذي قضى عشرين عاماً مجاور في الحجاز

وساهم بيفار في نشر عدد من المخطوطات التي كتبت باللغة العربية أو بلغة الحوصة المكتوبة بحروف عربية .

ومن جهة اخرى يؤكد بول مارتي وروبرت آرنو ان افراد الفوتادجالون (غينيا) كانوا يكتبون مراسلاتهم باللغة العربية وأن كلا منهم كان يملك مكتبة عربية ضخمة وكان من عادة السكان هناك (وهم سكان الفوتا) ان يتعمقوا في دراسة الدين الاسلامي حتى ان اسماء الافراد كانت تدل على القاب علمية وادبية كقولهم : موديبو (مؤدب) وتيرنو (الشيخ المعلم) وآلفا (المؤلف) ...

وفي عام ١٩٦٠ نشر في السنغال مشروع لتطوير التعليم ويدل مخطط المشروع على أن في كل قرية خمسة افراد على الاقل يعرفون اللغة العربية قراءة وكتابـــة وهذا الرقم يرتفع الى خمس وعشرين في مناطق التكرور . وأن المطبوعات العربية من تونس وبيروت والقاهرة والرباط تنتشر في كل المدن السنغالية تقريباً ويعتبر السنغال موئلاً لعدد كبير من علماء الاسلام في افريقية الغربية ومن هؤلاء ابراهيم تباس (من مدينة الكاولاك) وقد خط ببراعة اكثر من مائة كتاب وكتيب والشنقيطي ابراهيم ولد الشيخ واحمد هامباته با (من باماكو) والشيخ ابو بكر تيرنو صاحب المقامات الافريقية المشهورة وقد كتبها باللغة العربية وأحمد بامبا زعيم المريدية وله عدد كبير من المؤلفات الدينية باللغة العربية والحاج عمر تال صاحب التفسير المشهور وغيرهم من العلماء الذين ساهموا بقسط وافر في جميع فروع الدراسات العربية كالقواعد واللغة والنقد والتوحيد والوعظ والادب بكل انواعه والحكم .

بعد هذا العرض نستطيع ان نخرج بنتيجة حتمية هي ان الافريقيين قـــد تعلقوا تعلقاً شديداً بالثقافة العربية وساهموا بنشرها وهذا مايؤكده فونتيل حين قال: **ان مسلمي افريقية جميعاً تواقون الى التعبير عن افكارهم باللغة العربية .**



مشاكل الزراعة

في الدول النامية

بقلم نعيم جمعة

في الدول النامية تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي للثروة الوطنية ويشتغل اكثر السكان بها . فالنسبة المئوية للعاملين في الزراعة بالنسبة لمجموع السكان تختلف من بلد الى آخر وهي على وجه العموم تبلغ في الدول النامية حوالي ٥٠—٨٥٪ وتنخفض هذه النسبة فقط الى أقل من ٥٠٪ في بلاد فنزويلا والشيلي .

ومع أن نسبة العمال الزراعيين كبيرة بالنسبة لمجموع السكان فان نسبة الاستهلاك الفردي في السنة من المواد الغذائية هي أقل بكثير من الدول المتطورة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان نسبة المصاريف الغذائية بالنسبة للمصاريف العامة أكبر منها في الدول المتطورة ، كما هو مبين في الجدول التالي :

البلد	مجموع المصاريف السنوية للعامل الزراعي الواحد مقدرة بالدولار لعام ٥٩	مصاريف المواد الغذائية بالدولار	نسبة المصاريف الغذائية بالنسبة للمصاريف العامة
الولايات المتحدة	١٧٨٧	٣٩٣	٢٢
انكلترا	٨٨٤	٢٦٥	٣٠
فرنسا	٨٣٦	٢٥٩	٣١
ايطاليا	٣٩٨	١٧٩	٤٥
غانا	١٦٥	٨٩	٥٤
قبرص	١٠٠	٥٢	٥٢
البيرو	٩١	٣٦	٤٠
نيجيريا	٦٤	٥١	٧٤

فمن هذا الجدول يتضح لنا ان قيمة استهلاك الفرد الواحد من المواد الغذائية في الدول النامية قليلة ففي نيجيريا مثلا تبلغ هذه القيمة ٥١ دولاراً بينما في الولايات المتحدة تبلغ ٣٩٣ دولاراً هذا مع العلم أن نسبة مصاريف المواد الغذائية في نيجيريا الى المصاريف العامة ٧٤٪ بينما لا تبلغ هذه النسبة في الولايات المتحدة سوى ٢٢٪

كذلك من ناحية الانتاج فان العامل الزراعي الواحد ينتج في الدول النامية أقل بكثير مما ينتجه العامل الزراعي في الدول المتطورة كما هو مبين في الجدول التالي :

البلد	انتاج الفرد الواحد بالكغ			الاستهلاك من الأنسجة بالكغ
	حبوب	مواد زيتية	لحم	
أوربا	٣٤٤	٧	٣٧	٨،٩
أمريكا الشمالية	١٠٩٧	١١٦	٧٠	١٥،١
أمريكا اللاتينية	٢١٥	٢٦	٣٣	٤،٣
الشرق الاوسط	٢٣٨	٢٠	١٠	٣،٣
الشرق الاقصى	٢٠٧	١٤	٣	٢،٧
أفريقيا	١٥٣	٢٣	١٠	١،٧

ومع أن أرقام هذا الجدول لا تعطي فكرة واضحة عن كل دولة من الدول الا أنها تعطي فكرة عامة عن البون الشاسع في الانتـــاج الزراعي بالنسبة للفرد الواحد في قارات العالم .

هذا مع العلم أنه يوجد في بعض الدول النامية مناطق تسود فيها قلة المواد الغذائية التي يذهب ضحيتها ملايين من البشر. زد على ذلك تفشي الامراض السارية بين شعوبها .

فاذا لاحظنا تطور الزراعة في البلاد النامية في السنين الاخيرة وجدنا أنها تنمو نمواً بطيئـاً حتى أنه يعتبر تطوراً سلبياً في بعض هذه الدول بالنسبـة لتطور عدد السكان ، اذ أن عدد السكان يزداد زيادة ايجابية وسريعة في حين نمو الموارد الغذائية لا يتناسب مع زيادة عدد السكان فهو تطور سلبي في بعض الدول النامية كما هو مبين في الجدول التالي :

البلد	النسبة المئوية لزيادة عدد السكان في السنة (متوسط الاعوام ٥٥ / ٥٦ و ٦٠ / ٦١ م	النسبة المئوية لزيادة تطور الانتاج الزراعي بالنسبة لزيادة عدد السكان
الجمهورية العربية السورية	٣٫٥	– ٣٫٠٥
مراكش	٣	– ٠٫٣٢
العراق	٢٫٩	– ١٫١٦
الجزائر	٢٫٣	– ٠٫٤٣
الباكستان	١٫٩	+ ١٫٣٩
البيرو	٢٫٧	+ ١٫٩٨
الجمهورية العربية المتحدة	٢٫٤	+ ٢٫١٦
فرنسا	٠٫٩	+ ٢٫٩٦
انكلترا	٠٫٥	+ ٢٫٦٧
الارجنتين	١٫٢	+ ٠٫٠٧

من هذا الجدول نلاحظ أن نمو الانتاج بالنسبة لزيادة عدد السكان يختلف

من بلد الى آخر ونتائجه على وجه العموم في الدول النامية نتائج سلبيـة والقليل من هذه الدول تكاد تكون الزيادة في الانتاج فيها مساوية للزيادة في عدد السكان أو زيادة بسيطة.

ونتيجة لذلك يمكننا القول أن الزيادة في الدول الناميـــة تتطور تطوراً بطيئاً ومعنى هذا أن المواد الرئيسية التي تعتمد عليها في التصدير تتناقص في الوقت الذي تزداد فيه الحاجة الى الاستيراد ، وليس غريباً أن نجد دولاً كثيرة كانت من قبل مصدرة للحبوب ثم أصبحت مستوردة له في بعض السنين .

والجدول التالي يبين التصدير والاستيراد للحبوب في الدول النامية «دول أمريكا اللاتينية (بدون الارجنتين) وآسيا وأفريقيا » مقدرة بملايين الاطنان .

السنة	الزيادة في الاستهلاك	الكمية العامة المستوردة من الحبوب	الكمية المستوردة من لولايات المتحدة
١٩٥٦ / ٥٧	٣٫٥٥	٣٫٨٣	٢٫٤٩
١٩٥٧ / ٥٨	٠٫٢١٢	٠٫٢٦٥	– ١٫٠
١٩٥٨ / ٥٩	٣٫٢٥	١٫٦٢	١٫٢٩
١٩٥٩ / ٦٠	٢٫٧٦	٢٫٧٥	٢٫٢٨
١٩٦٠ / ٦١	٠٫٨٣	٣٫١٤	١٫١٧
وسطي السنين الخمس	٢٫١٠	٢٫٤٢	١٫٢٥

فمن الملاحظ أن الكمية المستوردة هي على وجه العموم أكثر من الزيادة في الاستهلاك مما يدل على التطور الزراعي السلبي في هذه الدول . والشيء المهم هو أن الدول النامية منتجة لاحتياجاتها المتزايدة وخصوصاً احتياجها للمواد الغذائية ، مع انها دول زراعية ، تقع تحت رحمة الدول الرأسمالية كالولايات المتحدة الامريكية اذ أن أكثر الكميات المستوردة هي من مصدر امريكي ، ذلك لأن الانتاج الذاتي لكثير من الدول النامية لا يكفي الا لحوالي ٣٥-٧٥ ٪ من الاستهلاك العام في

بلادها والباقي تضطر لاستيراده كالجمهورية العربية المتحـــدة وقبرص والبرازيل وكولومبيا والهند .

اذا تصورنا ان الدول النامية هي على وجه العموم دول زراعيـــة وان الزراعة التي هي المصدر الاساسي للثروة القومية ، لا تكاد تكفي للاستهلاك المحلي كانت النتيجة هي أن تطور هذه البـلدان سيظل تطوراً سلبياً على الصعيدين الاقتصادي والسياسي .

فالزراعة في الدول النامية تواجه عقبات كبيرة تحد من تطورها على الرغم من أنها تملك الامكانيات الكثيرة لتزيد في سرعة التطور وتدفع بالعجلة الاقتصادية أشواطاً كبيرة الى الأمام .

فالحياة الاقتصادية التي عاشتها الدول النامية خلال الحكم الاستعماري لهـا كانت مخططة اقتصادياً حسب اقتصاديات الدول الاستعمارية (مثال على ذلك التخصص في زراعة القطن في كل من مصر والهند) وبذلك كانت الدول الاستعمارية ترى مرتعاً خصباً لها في هذه الدول .

زد على ذلك أن كلفة الانتاج الزراعي في الدول الناميـــة غالية والمردود قليل . ولدى المقارنة نجد أنه لانتاج ١٠٠ كغ قمح في الولايات المتحدة يحتاج المرء الى ساعة عمل يدوية واحدة فقط وكذلك الأمر في الاتحـــاد السوفييتي (نظام الكولخوزات ـ المزارع الحكومية ـ بينما ترتفع هذه المدة الى ٣ـ٦ ساعات عمل يدوية في نظام السوفخوزات (المزارع التعاونية) وتزداد هـذه الكلفة ازدياداً كبيراً في الدول النامية . وبذلك نلاحظ الفرق الكبير في كلفة الانتاج ومن ثم ايجـــاد أسواق خارجية لهذا الانتاج بهذه الكلفة الغالية ومن ثم المرابح القليلة التي يجنيهـا المزارعون من الزراعة والتي بها لايستطيعون تحسين انتاجهم مما يدفع بالكثير منهم الى ترك الزراعة والهجرة الى المدينة طلباً للعمل .

وبذلك يزداد عدد العاطلين عن العمل زيادة على النسب الكبيرة التي يزداد بها عدد السكان بالنسبة للدول المتطورة نتيجة الولادة .

ففي البلاد النامية يوجد الى جانب العاطلين عن العمل الأراضي الزراعية الخصبة الواسعة والمتروكة بوراً . ففي ٢٢ دولة من الدول النامية يوجـــد ٢٣٣ مليون هكتار من الاراضي الزراعية الخصبة متروكة بوراً أي مايزيـد على مساحة الاراضي الزراعية في أوروبا كلها .

زد على ذلك أنه توجد في البلاد النامية (باستثناء الشرق الأقصى) اراض مزروعة قليلة بالنسبة لمساحة الاراضي الزراعية الحالية بنسبة تبلغ ٢١٪ في أمريكا اللاتينية و ٢٨ ٪ في افريقيا و ٣١ ٪ فقط في منطقة الشرق الاوسط . ويتضح من ذلك أن الانتاج الزراعي يزداد طرداً مع زيادة المساحة المزروعة .

إن الأسباب التي تجعل مردود الانتاج الزراعي قليلاً في هذه البلدان هي أسباب متنوعة منها الاعتماد على مياه المطر . فاقامة السدود على الأنهار المتوفرة فيها واستغلال المياه الجوفية يمكن السير قدماً وبسرعة في تطوير هذه البلدان اقتصاديا .

والطريقة البدائية التي تعمل بها الدول النامية في الزراعة لاتساعد على زيادة الانتاج من ناحية كما أنها تزيد في كلفة هذا الانتاج من ناحية اخرى فاذا قارنا عدد الجرارات الزراعية في العـــالم لوجدنا أنه في عام ١٩٦٠ كان مخصص لكل ٤٢ هكتاراً من أراضي زراعية في أمريكا الشمالية جرار واحد وفي أوربا ٤٤ هكتاراً وفي أمريكا اللاتينية ٢٧٠ هكتاراً وفي منطقة الشرق الاوسط ٩٥١ هكتاراً وفي أفريقيا ١١٠٨ هكتاراً وفي الشرق الأقصى ٣٧٧١ هكتاراً مما يدل على قلة الاعتماد على الآلة في الزراعة في الدول النامية . وقلة استعمال الآلة في الاعمال الزراعية يزيد من كلفة الانتاج مثال ذلك : إن عمليات الحصاد والرجاد والتذرية

السائدة في القطر السوري بالطريقة البدائية تكلف حوالي ٦٥٪ من الانتاج في حين أنه اذا استعملت الحصادة الدراسة فتقل هذه الكلفة وتصبح ١٠ — ٢٠ ٪ من الانتـاج.

وعدم استخدام الدول النامية للطرق الفنية في الزراعة تقلل من الانتاج فأوربا مثلا باستعمالها للطرق الفنية واعتمادها على اختيار البذور المنقاة من السلالات الجيدة الأصناف والمواعيد الرئيسية للزراعة تحصل على زيادة تقـدر بـ ٢٥٪ من الانتاج العـام .

إن الدول النامية تقلل كثيراً من استعمال الأسمدة الكيماوية والعضوية حتى أن **الأسمدة العضوية** تحرق بدلاً من أن تعطى للتربة لتزيد من خصوبتها وتؤمن المواد الغذائية الرئيسية للنباتات على سطحها . فقد دلت التجارب الحديثة على أن كغ واحد من السماد الازوتي لارض مروية مزروعة بالقمح غير مسمدة من قبل تعطي حوالي ١٦ كغ قمح زيادة بعد التسميد .

والجدول التالي يبين الفرق الكبير بين مردود الهكتار الواحد من الحبوب في الدول النامية والدول المتطورة للعـام الزراعي ١٩٦٠ ـ ٦١ مقارنة بالمردود الوسطي للأعوام ١٩٤٨ ـ ٤٩ و ١٩٥٢ ـ ٥٣ .

البلد	مردود الهكتار الواحد من الحبوب بالكغ لوسطى السنين ١٩٤٨ / ٤٩ و ١٩٥٢ / ٥٣	كمية السماد الكيمياوي المستعملة بالكغ	الزيادة في مردود الهكتار بالكغ في عام ١٩٦٠/٦١
أوروبا	٢٠٠٠٫١	٨٣٫٥	٥٠٠٫٢
أمريكا الشمالية	٢٢٠٠٫٩	٣٣٫٢	٦٠٠٫٧
منطقة الشرق الاقصى	١٢٠٠٫٢	١٢٫٠	٢٠٠٫١
أمريـكا اللاتينية	١٢٠٠٫٣	١٠,٣	١٠٠٫٢
منطقة الشرق الاوسط	١٠٠٠٫٥	٤٫٥	٣٠
أفريقيا	٧٠٠٫١	٢٫١	٧٠

ولا يقتصر الضعف في الدول النامية على الانتاج الزراعي وانما يتعداه كذلك الى الانتاج الحيواني فمن الملاحظ أن تطور التربية الحيوانية في البلاد النامية تأخذ طريقاً معاكساً بالنسبة للتربية الحيوانية في الدول المتطورة . ففي امريكا الشمالية يقدم الانسان حوالي ٨٠٪ من انتاج الحبوب علفاً للحيوانات وفي أوربا ٥٢٪ وفي امريكا اللاتينية ٣٥٪ وفي آسيا ١٤٪ وفي افريقيا ٩٪ فقط .

وكثافة الحيوان الزراعي قليلة في الدول النامية بالنسبة للدول المتطورة باستثناء الشرق الاقصى اذ تبلغ ٧٢ (وحدة حيوان رزاعي[١]) لكل ١٠٠ هكتار أراضي زراعية وفي أوربا ٦٢ وحدة وفي امريكا اللاتينية ٤٧ وحدة وفي امريكا الشمالية ٢١ وحدة وفي منطقة الشرق الاوسط ٢٤ وحدة وفي افريقيا ١٥ وحدة . ان هذه الاعداد لا تعطي المعنى الصحيح بالنسبة لانتاج اللحوم . اذ أن التربية الحيوانية تختلف اختلافاً كبيراً بين الدول النامية والدول المتطورة فمثلاً إن كمية اللحوم المستخرجة من ١٠٠ بقرة في امريكا الشمالية تعطي ٧,٣ طناً من اللحم وفي أوربا ٥,٥ طناً وفي امريكا اللاتينية ٢,٧ طناً وفي الشرق الاوسط ٢,١ طناً فمن هذا المثال يتبين لنا ما للغذاء والتربية الحيوانية الجيدة من نتائج ايجابية على الانتاج الحيواني ومن ثم تأثيرها المباشر على الاستهلاك والتصدير .

وعلينا بهذه المناسبة أن لا ننسى أن بعض دول الشرق الاقصى لا تذبح الابقار لاعتقادات دينية خاصة بها كالهند مثلا .

زيادة على ما سبق فمن الضروريات اللازمة لتطوير الزراعة في الدول النامية تثقيف العمال الزراعيين وتعليمهم اصول الزراعة الحديثة .

والشيء المهم لتطوير الزراعة والحياة الاقتصادية عامة في الدول النامية هو القروض المالية التي تحتاجها هذه الدول لاقامة السدود على الانهار

(١) تعتبر البقرة والحصان وحدة حيوان زراعي الغنم ٠,١ وحدة .

واستغلال الميـــاه الجوفية وادخال الآلة في الزراعة وتحسين صفات الانتاج ... الخ .

وليس تأمين القروض هو الشيء الاساسي وانما كيفية صرف هذه القروض التي تعتبر من أهم المشاكل التي تعانيها الدول النامية . اذ أن كبر الملكية الزراعية أو صغرها له تأثير كبير على التطور الزراعي بشكل عام في هذه الدول. فلو تصفحنا احصائيات الملكية الزراعية في الدول الناميـــة وجدنا أن القسم الاكبر من الاراضي الزراعية هو في أيدي كبار الملاك الذين لا يعملون في الزراعة بأيديهم بل بالواسطة .

واذا أرادت دولة من الدول النامية أن تساعد الفلاحين وتقرضهم أموالا لتحسين أحوالهم فما لاشك فيه أن جماعة الملاك الكبار هم الذين يستفيدون بصورة رئيسية من هذه القروض لأنهم يملكون الضمانات الكافية لتسديدها بينما يتعذر على الملاك الصغار ، الذين يشكلون الاغلبية العظمى من السكان ، الذين لا يملكون الضمانات الاستفادة من هذه القروض . وحتى انه اذا وزعت هذه القروض على عدد كبير من الفلاحين فانه من غير المتوقع ظهور نتائج ايجابية بالنسبة للانتاج الزراعي لأنها ستوزع بنسب ضئيلة لا تترك مجالا لتحسين وسائل الانتاج .

هذا وقد قامت أكثر الدول النامية في السنوات الاخيرة بتطبيق نظم الاصلاح الزراعي واحداث الجمعيات الزراعية الاستهلاكية والانتاجيـة وبهذه الطريقة أمكنت الاستفادة من القروض باحداث مصرف زراعي تعاوني يعطي القروض للجمعيات التعاونية التي تعمل فعلا على رفع مستوى الانتـاج وزيادته بتحسين وسائل انتاجه .

مما سبق يتضح لنا أن الدول النامية تعاني نقصاً في الانتاج الزراعي مع أنه يشكل المورد الرئيسي لهذه الدول . ويمكن زيادة الانتاج الزراعي اذا تطور القطاع العام في الدولة لاستغلال جميع الامكانيات الطبيعية المتوفرة لديها وتنظيم الفلاحين في جمعيات زراعية انتاجية تعود عليهم وعلى الدولة عامة بالخير العميم .

العلم والتكنولوجيا
وأثرهما في سير التطور الحضاري

للدكتور البرت جيورجي *

ترجمة ياسر الفهد

لقد استطاع الانسان بفضل العلم والتكنولوجيا أن يرتاد آفاق المعرفة العريضة ويحقق أدهش الانجازات العلمية والانتصارات الطبية واخذ يتلمس طريقه نحو الارتقاء بوجوده الى سماك مستويات رفيعة من الثقافة والسعادة . ولكنه عجز حتى اليوم عن قهر نفسه وتطهيرها من ادران الجشع والحقد والشك .

ان المشكلة التي تواجه البشرية اليوم ليست علمية وطبية بقدر ماهي خلقية ، وتتمثل بتطوير الدوافع الخيرة وانماء مشاعر الحب والتعاون والغيرية في قلب الانسان وروحه .

مقدمة :

لو أننا مثلنا تاريخ الجنس البشري بخط واحد صاعد باستمرار لوجدنا أن الحاضر لايشكل فيه سوى نقطة تفصل الماضي عن المستقبل . وبينما يبدو الماضي في هذا الخط واضحاً بيناً فان الظلام والغموض يكتنفان سائر جوانب المستقبل . وليست هناك سوى وسيلة واحدة لاستشفاف كنه بعض ماينطوي عليه المستقبل وتتمثل بدراسة الماضي ومن ثم محاولة مد قوسه باتجاه المستقبل . ونهتم في هذا المقال بسرد مراحل تطور العلم وتاريخه وعلاقته بقصة الانسان على الأرض .

(*) الكاتب الاميركي صاحب المقال حاز على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٣٧ .

تاريخ العلم :

يمكن تقسيم تاريخ العلم الى ثلاث مراحل : مرحلة العلم القديم ، مرحلة العلم الـكلاسيكي (وتبدأ بعهد النهضة) ثم مرحلة العلم الحديث (وتبدأ مع بداية القرن الحالي) .

أ — فترة العلم القديم :

وأهم مايميز هذه الفترة الايمان الساذج بلوغ حواسنا وعقولنا مرحلة الكمال المطلق فما يراه الانسان هو الحقيقة النهائية . فالـكائن البشري هو مركز الكون حسب قزمولوغيا بطليموس . وهناك « أعلى » و « أسفل » و « فراغ مطلق » حسب هندسة اقليدس .

لقد كان يعتقد ان تفكير الانسان ومحاكمته يقودان الى نتائج افضل واوثق من تلك التي يستحصل عليها بالتجربة وينعكس هذا الاعتقاد في قول ارسطو « ان الحجر الكبير يسقط بسرعة اكبر من الحجر الصغير » والغريب في هذه الفكرة ليس أنها خاطئة ولكنــه لم يخطر قط ببال ارسطو ان يجرب ليثبت صحة مايقوده اليه تفكيره بل لعله كان يعتبر أي اقتراح من هذا النوع اهانة له .

ب — مرحلة العلم الكلاسيكي :

وبعد حوالي الفي سنة أي ابان صحوة الفكر الغربي التي تعرف « بالنهضة » لابد وان شيئاً جديداً قد حدث للعقل الانساني فقد صعد شاب شجاع اسمه غاليليو الى أعلى برج مائل وهو يحمل حجرين احدهما كبير والآخر صغير ليسقطهما معا في نفس الوقت . وكان قد طلب من شلة من اصدقائه أن يرقبوا سقوط الحجرين ليلاحظوا أيهما يسقط قبل الآخر . وتبين بعد الملاحظة أن الحجرين وصلا في نفس الوقت (خلافا لاعتقاد ارسطو الذي لم يكن قائماً على التجربة) وهــذا الرجل نفسه ارتاب في قوة حواسه فبنى مجهرا لتحسين حاسة البصر واكتشف بواسطته حلقات زحل وتوابع المشتري ويعتبر ذلك اكتشافا دراماتيكيا لأنه لم يسبق لأحد أن شاهد هــذه الاشياء من قبل . ولم يكن هذا العالم العظيم سوى زهرة واحدة في موكب ازهار الربيع اليانعة .

وقبل غاليليو بفترة قليلة كان كوبرنيكوس قد استنتج بانه ليس من الضروري تماما ان نفترض ان الشمس هي التي تدور حول الارض فلربما كان العكس هو الصحيح .

وذلك في نفس الوقت الذي استبدل فيه كبار الملاحظة العفوية والمحاكمة البسيطة بالقياس الدقيق . وبعد غاليليو بقليل طور ليونهوك الهولندي الأصل ، حواسه ببناء المجهر الذي اكتشف فيه عالماً جديدا من المخلوقات الحية التي لايمكن رؤيتها بالعين المجردة .

وهكذا بدأ العلم الذي يمكن ان نطلق عليه اسم العلم الـكلاسيكي والذي بلغ ذروته بنظرية نيوتن في الجاذبية (Gravitation) . لقد استعاض العلم الـكلاسيكي عن النزوة

الالهية بالقوانين الطبيعية وصحح كثيرا من الاخطاء السابقة الا أنه لم يأت بشيء جديد مما لم يستطع الانسان أن يفهمه . ونقصد «بالفهم» القدرة على الربط بين الظاهرة المعروضة وخبراتنا السابقة فلو اننا قلنا ان الجاذبية هي التي تبقي الارض مرتبطة بالشمس لقلت : « انني أفهم » . **رغم انه لايوجد شخص يعرف حقيقة الجاذبية** . ومع ذلك فانك تفهم لأنك تعرف ان الجاذبية هي التي تجعل حبات التفاح تتساقط . ولمدة قرون لم يكن لهذا العلم الكلاسيكي تأثير كبير على الحياة اليومية أو على العلاقات الانسانية وكان مجرد الاساس الفكري لنخبة مختارة من المتعلمين التي ارادت أن تتعمق في دراسة مشاكل الطبيعة .

جـ ـ فترة العلم الحديث

لقد لازم هذه الفترة التي بدأت منذ حوالي ١٨٩٦ اكتشافان غامضان : الاول اشعة رونتجن الجديدة التي تخترق المادة الصلبة . والثاني النشاط الاشعاعي (من اكتشاف بكويرل) الذي هز الاعتقاد القديم القائم على الاساس الصلب للكون والمبني من مادة غير قابلة للتهشم .

لقد ازاحت الفترة الحديثة الستار عن عالم جديد لم يكن الانسان يعرف عنه شيئاً من قبل ألا وهو عالم الكوانتا (Quanta) والجزيء (Molecule) والسحب الالكترونية والنوى الذرية والموجات الكهرطيسية وقوانين النسبية في السرعات والابعاد الفائقة . والى حد فان هذا هو العالم الحقيقي . واما العالم الذي كنا نعرفه فلم يكن سوى ظلال واهية . ان الذرات التي تتكون منها اجسادنا كانت موجودة فعلا منذ ملايين السنين الا ان تلاحمها الموقت الذي يكون بنياننا ليس سوى ظاهرة مدبرة .

وليس فقط ان حواسنا تعجز عن كشف هذا العالم الجديد لنا بل انها خلقت لتكون كذلك . انها اريد لها فقط ان تساعدنا على قضاء ايامنا وحصولنا على القوت والسلامة . ولو انها تظهر الحقائق الاساسية فانها ستكون عديمة الجدوى ، لاننا لورأينا ذاك الرصيف المتد امام ابصارنا على حقيقته : فراغ هنا وهناك ، نواة ذرية تحيطها سحب الكترونية لدفعنا ذلك الى الذعر ولخشينا الوقوف على الرصيف ، ولا يوجد هناك اية خبرة انسانية لتساعدنا على فهم هذا العالم الجديد ولا لغة لوصفه ان الانسان وافد جديد غريب في هذا العالم وقد اصبح يهيمن على قوى وسرعات تفوق الحدود الطبيعية ولكنه في نفس الوقت يحمل في عقله مخلفات اجداده من الجشع والضراوة والحقد والشك والأنانية الضيقة وحب السلطة ، وملك في نفس الوقت القدرة على خلق السعادة والثروة والكرامة بجانب القدرة على تحطيم نفسه والحاق الدمار بموروثاته التي بقيت تحرسها الطبيعة ملايين السنين . ويتأرجح الانسان اليوم بين طرفين : السعادة

والانحسار ولسوء الحظ فان تراثه المتوارث يقوده نحو الطرف الآخر . ان الحاجة تستلزم منا اذا اردنا أن نبقى احياء في هذا العالم الجديد بناء طرائق تفكير واسس سياسية وعلاقات انسانية جديدة كلية .

التكنولوجيا Tecgnology :

ان الحديث عن العلم يقودنا الى الحديث عن التكنولوجيا ولا يختلف الاثنان الا في الأهداف النهائية فبينما يريد العلم أن « يفهم » فان التكنولوجيا تستهدف ابتداع الأدوات والوسائل المفيدة .

وتأثير التكنولوجيا العميق على التاريخ الانساني يفوق تأثير العلم فبينما بقي الاخير مجرد المجال الفكري للعقول المتلهفة للمعرفة فان التقدم التكنولوجي كان اساس التطور والصعود الانساني الى سماك الحضارة .

ان الاحداث الهامة للماضي البعيد لاتتمثل بالحروب وعظمة المنتصرين بل باكتشاف الوسائل الاولى : الابرة والعجلة والحديد والصلب والنحاس ومشتقاته وفي بدايه القرن الماضي بدأت التكنولوجيا تؤثر بصورة فعالةعلى مجرى السياسة واخذت تغير من شكل التاريخ السياسي لاوروبا: فروبرت فولتن الذي بنى السفينة البخارية الاولى قدم اختراعه لنابليون ، ولو ان نابليون أصغى له لتغلب على الاسطول البريطاني ولهزم انكلترا ولكان التاريخ السياسي قد سار في طريق آخر .

ومع مرور الزمن اصبح تأثير التكنولوجيا حاسماً بصورة متزايدة في النصف الاول من القرن الماضي حل حصان ستيفنسون الحديدي مكان الحصان الحي . وفي منتصف القرن الماضي بدأت الآلات مع بداية الثورة الصناعية تعيد بناء شكل التنظيمات الاجتماعية .

ترابط العلم والتكنولوجيا : (ارتباط العلم بالتكنولوجيا)

حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر لم يكن بين العلم والتكنولوجيا اية علاقة ، وفي نهاية القرن الماضي تسجل اول ارتباط للعلم بالتكنولوجيا وذلك ببدء الانتفاع بالكهرباء واستعمال دينامو فاراداي ، ويبدو الالتحام بين الاثنين تاما في فترة العلم الحديث حيث تعتمد التكنولوجيا كلية على تقدم المعرفة مما يجعل مستقبل اية امة ناهضة يتوقف على تقدمها في الابحاث الاساسية .

الكيمياء الحيوية والبيولوجيا والطب :

ان العلوم في الواقع ليست مستقلة عن بعضها البعض بل انها تعتمد جميعها على تقدم العلم بصورة عامة فالكيمياء الحيوية نشأت على اكتاف الكيمياء ، والكيمياء بدورها اعتمدت على الافكار الكلاسيكية .

ان هدف البحث الرئيسي في الكيمياء هو الجزيء وتركيبه وتفاعلاته وبالتالي فان اهتمام الكيمياء الحيوية يتركز بتحليل الجهاز الحي الى جزئيات ومن ثم دراستها واستقصائها . ومن هنا برز تعبير « الكيمياء الحيوية الجزيئية » . لقد قادهذا العلم الى انتصارات باهرة فعزلت الهرمونات الغامضة التي تهيمن على تطورنا وتفاعلاتنا فاصبحت اليوم توجد بشكل مساحيق على الرفوف في معامل الكيميائي الحيوي لتركيبها . كما تم عزل الفيتامينات التي كان نقصها في الماضي يؤدي الى علل خطيرة وكانت الامراض الناجمة عن نقص الفيتامينات تجتاح الاقطار كالأوبئة . واستطاعت الكيمياء الحيوية ان تكشف عن اسرار تركيب البروتينات وهي المسؤولة عن اهم التفاعلات الجارية في أجسادنا وكذلك كشف النقاب عن خفايا الحمض النووي الذي يقوم بمهمة تركيب البروتينات . وبفضل الجهود المشتركة للكيمياء الحيوية و « المجهرية » امكن رؤية الفيروسات وهي من اصغر انواع الجراثيم واشدها خطراً على حياة الانسان . وتشير الابحاث الجارية اليوم في اكبر مخابر العالم الى ان العلماء في طريقهم الى اكتشاف هرمون الشباب الذي من شأنه كما يأمل الباحثون ان يؤدي الى اطالة فترة سني الفتوة والحيوية ويتوقع ان يتم عن طريق هذه الابحاث نفسها العثور على مادة تساعد في محاربة السرطان والقضاء عليه .

المشاكل المستعصية

اذا كان الانسان قد حقق حتى اليوم انتصارات ونجاحات ضخمة فانه لم يسلم من الفشل في كثير من النواحي . وهذا الفشل المقلق مرتبط باخفاقنا في فهم ظاهرة الحياة الهامة التي نفرق بواسطتها بين الموت والحياة ، فمنذ فجر البشرية ونحن نعرف الموت على انه انعدام في الحركة والانعكاسات والافرازات أو بلغة علمية بحتة توقف تحول الطاقة الكيماوية الى عمل ميكانيكي ـ كهربائي ـ ارتشاحي . واذا تعمقنا في مشاكل البيولوجيا نجد ان أهم المشاكل الاساسية لم تحل بعد. فما هي الخلية ... وحدة الحياة الجوهرية ؟ كيف نشأت الحياة وتطورت ؟ كيف تعمل الهرمونات ؟ ماذا يعني التركيب الصحافي للخلايا ؟

فلماذا بقيت هذه المشاكل الاساسية نقاطاً فارغة في خارطة المعرفة البشرية ؟ ان هذا السؤال من اهم مايشغل بال العلماء في الوقت الحاضر . لقد توصل بعضهم الى نتيجة انه من اجل الوصول الى حل لهذه المشاكل لابد من تجاوز (مستوى الجزيئات) الى حقل العلم الحديث الذي يعالج قضايا الكوانتا والسحب الالكترونية وتفاعلاتها . وهم يؤكدون ان الحياة لم تبدأ بالجزيئات (Molecules) وانما كانت هناك في الاصل القدرة والكوانتا والنواة الذرية والالكترون . ومن هذه الاشياء نشأت الحياة فلابد للكيمياء الحيوية من ولوج هذا الباب على مصراعيه اذا ارادت ان تسجل انجازات حاسمة ويتوقع العلماء ان تأتي قفزة الطب التالية من هذا الميدان بالذات

ان الانسانية اليوم في طريقها للوصول الى شكل سام رفيع من اشكال الحياة . واذا كنا لانلاحظ هذا التحول نحو الأفضل فلأنه تدريجي وعلى مراحل .

آفاق المستقبل

ان اعظم مشكلة تواجهنا في المستقبل لاتتمثل في انتاج الضروريات اللازمة للحياة بل في تأمين الطرق الكفيلة بمعالجة مشكلة اوقات فراغنا وفي كيفية ابتداع الجمال والمعرفة لرفع وجودنا الى سماك مستويات عليا من الثقافة والسعادة . وماحققه الانسان حتى اليوم يفوق كل ماحلم به في الماضي فقد قضى على الاوبئة والامراض الخطيرة . وتستطيع زوجاتنا اليوم ان يأملن في انجاب اطفال اصحاء يكفل لهم العلم سائر سبل السلامة . صحيح ان فئة قليلة من الناس هي التي تتمتع بانجازات العلم الكبيرة ولكن ليس هناك مايمنع انتشارها واشاعتها بين سائر طبقات الشعب بحيث لايبقى جائع أو مريض .

واذا كنا لانحب ان نتوسع في تصوير الآفاق العريضة التي ينتظر ان تنتصر فيها الكيمياء الحيوية والطب فلأن ألد اعداء الانسان لم يهزم حتى اليوم . وهـذا العدو الغاشم ليس الفيروس أو البكتريا أو الجوع بل هو الانسان نفسه ، الانسان بقصر بصره وتحزبه الضيق وحقده وشكه وتطلعه الى الاستئثار بالسلطة .

لقد استطاع هذا الانسان ان يجد في الطاقات الاشعاعية الهائلة وسيلة لتدمير مادته الوراثية التي بقيت الطبيعة تحفظها له بشكل عناية ملايين السنين ، لقد وجد الطريقة ليمحو نفسه من على وجه الكرة الارضية نتيجة لسلسلة الجهود والمعاناة المضنية ، **وهكذا فاننا لانواجه اليوم مشكلة طبية بقدر مانواجه مشكلة خلقية ، انها مشكلة تطوير روح الاخوة الانسانية وارداقها بنظام سياسي متمش مع هذه الروح .**



سلسلة
كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة كتب قومية ، تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه ، ومشاغله الفكرية والقومية . وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها ، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة .

وفيما يلي بعض البحوث التي تصدر في هذه السلسلة الجديدة ، خلال الاشهر القادمة من عام ١٩٦٥ :

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية	للدكتور صلاح وزان
« صدر في الحلقة الاولى »	
التخطيط الاشتراكي	للدكتور عبد الله عبد الدايم
المغتربون العرب في امريكا الشمالية	للدكتور جورج طعمة
ادب الوحدة العربية	لفؤاد الشايب
الفن والقومية	للدكتور عفيف بهنسي
الموقع الاستراتيجي العربي (حلقتان)	لهيثم الكيلاني

وقد اجاب على دعوة السيد الوزير بالقبول والاستعداد للاشتراك في تأليف (كتب قومية) كل من الاساتذة : الدكتور جميل صليبا الدكتور احمد السمان ، اديب اللحجي ، شاكر مصطفى ، الدكتور انور الرفاعي ، سلامة عبيد ، خليل هنداوي توفيق برو ، وعبد الله مكسور

الكتاب والموضوعات

الآداب

من لغة القرآن

للدكتور ابراهيم السامرائي *

بغداد ---

مازال القرآن مصدراً لدراسات كثيرة ، وما زالت لغة التنزيل تمدنا ، بل قل توحي الينا بالممتع من المباحث . لقد بحث الأقدمون في كتاب الله وتناولوه من وجوه عديدة ، وكان من نتيجة ذلك أن كان مادعي بعلوم العربية ، وعلوم العربية موضوعات شتى ، ثم كان من ذلك ايضاً « علوم القرآن » وهي جملة مواد تؤلف طائفة من الاختصاصات التي نعنى بها في عصرنا هذا .

ولا أحسب ان هذا السلف الصالح قد استوفى مافي كتاب الله الكريم من فوائد دقيقة ذلك أن هذا العصر على افتقاره الى علوم السلف قد جدّ فيه من ابواب العلم مابصرنا بشيء يعوض لنا في لغة

* رئيس قسم اللغة العربية في كلية الادب — جامعة بغداد .

التنزيل العزيز . فما زال فينا حاجة للعود الى هذه اللغة الشريفة نستوحي منها كل جديد . وفي الحق أن نقول : ان جيلنا الحاضر لم يول كتاب الله الكثير من عنايته واهتمامه . فهو متخلف في هذا الباب ، مأخوذ بهوى العصر ومغرياته بالابتعاد عن كل قديم .

ولقد قيض الله لي أن اهتم بتاريخ القرآن ، ومسألة لغة القرآن والبحث في القراءات ثم كان لي أن خرجت من ذلك بمادة ممتعة في مسألة « الفعل في القرآن » ، ومن المعلوم ان للقرآن لغة خاصة بلغت من الدقائق والأسرار ماخرج منها الباحثون الى تقرير اعجازه وأنه صنعة لطيف خبير لاتدركه هذه العربية السمحة الجارية على ألسنة فصحاء العرب .

وسأعنى في هذا البحث بذكر مسائل من لغة القرآن بدا لي أن أقول فيها شيئاً يلقي ضوءاً على تاريخ هذه اللغة العريقة .

ومن ذلك قوله تعالى « **ان هذان لساحران** » (١) واقوال النحويين في هذه الآية كثيرة : منها أن المبرد حمل « إن » هذه على معنى « نعم » واعترض عليه بأمرين أحدهما أن مجيء «ان» بمعنى «نعم» شاذ حتى قيل انه لم يثبت ، والثاني أن اللام لاتدخل على خبر المبتدا واجيب عن هذا بانها زائدة وليست للابتداء (٢) . وضعف هذا القول واضح بيّن ، وهو كسائر أقوال النحويين التي يبدو عليها الاصطناع الذي لايخدم العلم اللغوي .

على أنه قد يرد في اقوالهم مافيه فائدة علمية تاريخية . ومن ذلك ماقالوا في تفسير مجيء المثنى بالالف والنون في هذه الآية فقد جاء في كتبهم أن الآية جاءت على لغة الحارث ابن كعب في اجراء المثنى بالالف والنون دائماً (٣) واختار ابن مالك هذا الوجه . (٤) . قلت : ان في هذه المسألة فائدة تاريخية ، وذلك أن عربية القرآن تعطينا وجهاً من وجوه اللغات الخاصة التي لم يبق منها بقية والتي تجنبها اللغويون بسبب من هذه اللغة الكريمة التي اريد لها أن تسود بين المسلمين وأن تشيع فينسى بها المعربون الوان تلك «اللغات» . غير أن هذا لم يتحقق على هذه الصورة فقد بقي الناس يدرجون في كلامهم على ماجبلوا عليه من الوان الكلام ، واختلاف القراءات في القرآن دليل على هذه الناحية اللغوية التاريخية . وقد تجاوز الأمر هذا الحد فكانت هناك القراءات الشاذة وفيها مافيها من وجوه الكلام الذي كان سائراً والذي يدل على ان كل جماعة

---

(١) طه ٦٣ .
(٢) ابن هشام ، المغني ٣٦/١ (نشرة المكتبة التجارية) .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ٧٢/٣ (طبعة مطبعة الاستقامة ١٩٤٦) .
(٤) ابن هشام ، المغني .

او طائفة أو قبيلة درجت على نمط خاص في الكلام له حدوده الصوتيــة وحدوده الاخرى التي يقتضيها البناء اللغوي .

ونستخلص من هذا أن العربية مازالت في عصر القرآن مفتقرة الى شيء كثير من التوحيد والانسجام فجاءت لغة القرآن دليلاً على هذه الفترة التاريخية من تاريخ هذه اللغة الكريمة .

وقد بدا لي أن اقول شيئاً آخر له علاقته بالموضوع نفسه وهو أنهم قالوا ان المثنى في لغة بلحارث بن كعب يلزم الالف والنون دائماً وفاتهم أن يحققوا ان كان المثنى قد ورد بالياء والنون دائماً . واكبر الظن ان هذا كان معروفاً ولكن الشواهد فاتتهم ، أو قل انهم لم يحتاجوا اليه في تفسير آية أو شرح كلمة من كلمات الله البينات .

أقول : ان هذا كان معروفاً كما كان المثنى بالالف والنون معروفاً دائماً ، ويدل عليه قولهم ان **(هذان)** مبني لدلالته على معنى الاشارة وان قول الاكثرين **(هذين)** جراً ونصباً ليس إعراباً ، ومعنى هذا أنه لابد أن يكون المثنى بالياء والنون قد جرى في استعمالهم وأنه لزم الياء والنون دائماً .

ونخرج من هذا أن العربية لما توحدت وشاعت أنماطها المشهورة بين العرب عامة جرى استعمالهم بمرور الزمن أن اختص المثنى بالألف والنون في حالة اعرابية هي الرفع كما اختص ما كان بالياء والنون في حالة اخرى هي النصب والجر . وتعكس لغة التنزيل الكريم هذا التطور في الاستعمال التاريخي .

ويؤيد مانذهب اليه ان المثنى بالياء والنون قد يحصل ويتولد من إمالة الالف نحو الياء أو قل إمالة الفتحة في اللام مثلاً من « **رجلان** » الى الكسرة حتى تتولد الياء . ومعنى هذا ان المثنى اذا كان بالالف والنون أو كان بالياء والنون فكل منهما صيغة خاصة لاعلاقة لها بالاحوال الاعرابية ولكن الاستعمال الطويل لهذه الصيغة المثناة اخذ بها نحو الدلالة الاعرابية .

ثم نقرأ قوله تعالى : « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**»(١)

فنجد أن « **الصابئون** » وردت بالواو والنون وهي على هذا الوجه مرفوعة ، وكان يجب أن تأتي بالياء والنون لتكون معطوفة على اسم « **إن** » وهو « **الذين** » غير أن النحاة لم يصعب عليهم الأمر ولم يجدوا في هذه الآية شيئاً يبعدها عن مألوف العربية ، فقالوا « **الصابئون** »

---

(١) المائدة ٦٩

رفع على الابتداء وخبره محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز « إن » من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابئون كذلك** »(١) .

وقالوا : إن هذا جاء في اشعارهم ومنه ما أنشد سيبويه :

والا فاعلموا أنا وأنتم بُغاة مابقينا في شقاق(٢)

فقد ذكر الآية قائلا هي التقديم والتأخير كأنه ابتداء . (٣)

وما اظن أن هذه التخريجات تكفي البـاحث الحديث الذي ينظر الى هذه المسائل نظراً آخر ، ذلك انهم كانوا في حيرة من أمر هذه الآيات التي خرجت عن المستعمل الكثير في كلامهم .

جاء في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : انه روى ابو معاوية محمد بن خازم التميمي عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام عن أبيه عن عائشة أنها قالت : ثلاثة أحرف في كتـاب الله من خطأ من الكاتب : قوله (**ان هذان لساحران**) وفي سورة المائدة (**ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ...**) وفي سورة النساء (**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة**) (٤) .

أقول : انهم في حيرة من أمر هذه الآيات فأهل اللغة ينسبونها الى أهلها القائلين بهـذه الوجوه الكلامية ، وأهل النحو يلجأون للتأويل كما عرفنا .

ومن العجيب أن هذه الآية قد وردت هي نفسها ماعدا تغييراً طفيفاً في غير هذه السورة .

جاء في سورة البقرة قوله تعالى « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله . . . . . .** » (٥) وجاء في سورة الحج « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس .....** » (٦)

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ١/٦٦٠

(٢) البيت مع آخر سبقه لبشر بن أبي حازم الأسدي يخاطب بني طيء ويتوعدهم بما صنعوا بآل بدر حلفاء بني أسد .

(٣) سيبويه ، الكتاب ١/٢٩٠

(٤) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ١٩

(٥) البقرة ٦٢

(٦) الحج ١٧

وفي هاتين الآيتين وردت كلمة « **الصابئين** » على المألوف المشهور من استعمال المعطوف على اسم « إن » ومجيئها على هذه الصورة . وقد وردت بالواو والنون في الآية الاولى وذلك دليل على ان الاستعمال في عصر القرآن لم يستقر على ما يشبه القاعدة ، او قل إن العربية مازالت في تلك الفترة تفتقر الى التوحيد والانسجام ، وان اللغات الخاصة مازالت واضحة المعالم . وعلى ذلك لابد من القول ان الجمع المذكر بالواو والنون شيء من لغة ما ، لا نعرف نسبتها الى اصحابها ومثل ذلك الجمع بالياء والنون ، ثم خصص الاستعمال الطويل كل صيغة بحالة خاصة فاستقراهـا النحويون وضبطوها كما هو المشهور المعروف .

ومن المفيد ان نشير أن أبيّ من القراء كان قد قرأ « **الصابئين** » في الآية الاولى « المائدة ٦٩ » ، وبهذه القراءة قرأ ابن كثير . وقرأ عبد الله « **يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون . . .** »(1) وهذا يدل على ما ذهبنا اليه من عدم الاستقرار في استعمال هذه الصيغ من وجوه القول في هذه الفترة التأريخية .

وجاء قوله تعالى : «**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ......**»(2)

وقالوا نصب « **المقيمين** » على المدح لبيان فضل الصلاة . قال الزمخشري . « وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد . ولايلتفت الى مازعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر في « الكتاب » ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم في النصب على الاختصاص من الافتنان »(3)

وفي هذه الآية يقف النحوي متأولا لما ورد مخالفاً للاستعمال المشهور ، ذلك ان حمل « **المقيمين** » على العطف يؤيده ماجاء بعده من قوله تعالى « **والمؤتون** » ومما يدل على القول بالعطف قراءة مالك بن دينار « **والمقيمون** » كما قرأ بذلك الجحدري وعيسى الثقفي . وقد ورد ذلك في مصحف عبدالله(4).

(1) الزمخشري ، الكشاف ١/٦٦٢
(2) النساء ١٦٢
(3) الزمخشري ، الكشاف ١/٥٩٠
(4) المصدر السابق

وقراءة هؤلاء بالواو والنون وقراءة الآخرين بالياء والنون تدل على عدم اختصاص كل صيغة من هاتين الصيغتين بحالة اعرابية في عصر القرآن .

وقد اشار الزمخشري الى حديث عائشة الذي ذكرناه وماكان من خطأ الكاتب الذي وقع في لغة التنزيل .

وقد جاء في شواهد النحو في باب اسم الموصول أن عقيل وهذيل تقول « الذون » ومنه قول الشاعر :

نحن الذون صبّحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا

ونفيد فائدة أخرى من لغة القرآن وهي أن آيات كثيرة لم يتوفر فيها عنصر المطابقة بين اجزاء الجملة . ونريد بالمطابقة مراعاة التذكير والتأنيث والافراد والتثنية والجمع . وفي جميع هذا مسايرة للعربية في هذا العصر القرآني فقد كان هذا معروفاً في كلامهم كثيرا . غير أن أهل التفسير ربما لحوا اسراراً أخرى لمخالفة القرآن لهذه القاعدة في كلامهم، قال تعالى : «**يخرجكم طفلا**»(١) وقال « **او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** »(٢) وأريد بـ «**طفل**» في الآية الاولى الجمع وهو (اطفال) ، اما في الآية الثانية فقد حمل « **الطفل** » على الجمع أو ما يسمى باسم الجمع ويتضح هذا بوصفه باسم الموصول (الذين) وهذا من غرائب لغة التنزيل التي ابقت فيها مايستدل به على بقاء اللغات الخاصة في العربية في هذا العصر .

ونقرأ قوله تعالى « **والملائكة بعد ذلك ظهير** »(٣) والمطابقة تقضي أن يأتي الخبر جمعاً وهو «ظهراء» غير أن النحاة الاقدمين والمفسرين قد ذهبوا مذهباً آخر ، فالزمخشري من النحويين والمفسرين ذهب الى ان المراد بـ «ظهير» فوج مظاهرله (٧). ويعني هذا أن « ظهير » وصف لموصوف محذوف .

واذا استقرينا الآيات التي وردت فيها كلمة « **الملائكة** » لنتحرى كيف عوملت هذه المجموعة من حيث الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وجـدنا في قوله تعالى :

---

(١) الحج ٥
(٢) النور ٣١
(٣) التحريم ٤
(٤) الزمخشري ، الكشاف ٤/٥٦٦

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى » . (١) أن الفعل المسند قد لحقه ضمير الجمع المذكر وهو « اسجدوا » و « سجدوا » .

وفي قوله تعالى : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب » . (٢) الفعل المسند قد لحقته تاء التأنيث .

وفي قوله تعالى : « ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم » (٣) وقد وصفت الملائكة بالخبر « باسطوا » وهو جمع مذكر للعاقل .

وفي قوله تعالى : « لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » (٤) وخبر الملائكة فعل مسند لجماعة الغائبين .

وفي قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (٥) وفي هذه الآية لم يؤنث الفعل كما مر في آيات عدة ، ثم ان الضمير في (كلهم) لجمع الغائب المذكر ، ثم الوصف (أجمعون) جمع مذكر للتوكيد .

ويتضح من هذه الآيات ان العربية تعتبر اللفظ في مراعاة الفعل للفاعل كثيراً ، فقد حملت « الملائكة » على التأنيث في قوله تعالى « فنادته الملائكة » مجاراة للفظ ، فاذا تأخر الفعل أو عاد على الاسم المتقدم ضمير أو وصف الاسم « الملائكة » بوصف اعتبر المعنى وقد تصوروا ان « الملائكة » مذكر في المعنى مؤنث في اللفظ .

وفي هذا التردد بين التأنيث والتذكير ايضاح لشيء من التاريخ اللغوي في هذه الفترة التي تميزت بهذه الحالة من التردد في اعتبار الالفاظ مفردة أو في حشو الجملة .

ومما يؤيد هذا ما جاء في صحيح البخاري «تلك الملائكة دنت» (٦) فقد اعتبر اللفظ ولذلك أشير الى الملائكة بالاشارة « تلك » ، غير أن الفعل الذي اسند الى الاسم قد أنث لتأنيث الفاعل حملاً على اللفظ .

---

(١) البقرة ٣٤
(٢) آل عمران ٣٩
(٣) الانعام ٩٣
(٤) النساء ١٦٦
(٥) الحجر ٣٠
(٦) البخاري ، الجامع الصحيح (طبعة ليدن) ٣/٤٠٠

وقد سبقت الاشارة الى قوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » فجاء الخبر صفة مفردة وهو قليل في كلامهم ، وقد حملوا على هذا الوجه قول الشاعر :

خبيرٌ بنو لِهبٍ فلا تك ملغياً   مقالة لِهبيٍ اذا الطير ولّتِ

وقد قالوا : « ان فعيلاً قد يستعمل للجماعة » .(١)

وقد جاء منه قول الآخر : « هن صديق للذي لم يشب » .

ومن ذلك أيضاً قول جميل بن معمر :

الا ليت أيام الشباب جديد   ودهراً تولى يابثين يعود

في رواية هذا البيت على هذا النحو .

فهذه الشواهد دليل يشير الى مرحلة من مراحل التطور اللغوي .

وفي لغة التنزيل استعمالات فريدة من هذا الباب وذلك باعتبار اللفظ تارة وباعتبار المعنى تارة أخرى . ومن ذلك قوله تعالى : « قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل » (٢) . والفاعل في هذه الآية « بنو اسرائيل » وهو من الالفاظ الملحقة بجمع المذكر السالم ، ولم يرد في كلام العرب تأنيث الفعل اذا كان فاعله جمعاً مذكراً سالماً ، غير أن الآية خرجت على أن (بنوا) حملت على المعنى اذ المراد بها « شعب » او « طائفة » أو نحو ذلك .

ومن ذلك ايضاً استعمال القرآن للسحاب فقد وردمفرداً مذكراً تارة وجمعاًتارة اخرى .

ففي قوله تعالى : « وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » (٣) جاء السحاب موصوفاً بـ « المسخر » .

وفي قوله تعالى : « وينشيء السحاب الثقال » (٤) وردت الكلمة دالة على الجمع « الثقال » وهي جمع تكسير ينصرف الى التأنيث .

وفي قوله تعالى : « حتى اذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت » (٥)

---

(١) ابن هشام ، قطر الندى (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) ٢٧٣

(٢) يونس ٩٠

(٣) البقرة ١٦٤

(٤) الرعد ١٢

(٥) الاعراف ٥٧

« السحاب » كما في الآية السابقة ولكن الضمير في الفعل « سقناه » ضمير النائب المذكر .

وفي مجموع هذا من الاستعمال القرآني لهذه الكلمة فوائد لغوية ذلك ان القرآن الذي انزل بالعربية السمحة سجل هذه الفترة من تاريخ العربية التي لم تكن آنئذ قد تخلصت من فروق اللغات الخاصة .

ومثل « السحاب » « الفلك » في الاستعمال القرآني من حيث هذه الدلالة اللغوية

ونقرأ قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى » (١) ، أو قوله « ثم توفىٰ كل نفس » (٢) فنجد أن الفعل قد طابق المضاف إليه وكأنه هو الفاعل الحقيقي في المعنى ولا اعتبار للفاعل « كل » الظاهر في بناء الجملة .

وعود الفعل على المضاف إليه جار في لغة القرآن ، ومثله عود الضمير على المضاف، ومثل هذا ايضاً مطابقة الخبر للمضاف إليه في التأنيث اذا كان هذا المضاف إليه جزءاً من المسند إليه.

ومن ذلك قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة فانقذكم منها » (٣) ، وقوله تعالى : « قد علم كل أناس مشربهم »(٤) ، وقوله تعالى : «كل نفس ذائقة الموت»(٥)

وهذه الاستعمالات مما شهدت به لغة القرآن ، وما ورد من ذلك قليل في كلامهم ، وان جاء شيء من ذلك ففي الشواهد الشعرية . ومعلوم أن الشاعر قد يأتي من الاستعمال مالا تجيزه لغة الترسل ، وورود ذلك في لغة القرآن يهدينا الى شيء من التاريخ اللغوي .

وهو أن لغة القرآن قد حفلت في هذا المضمار كان جارياً من ذلك على ألسنتهم .

وقد قلنا : إنه قد ورد شيء من ذلك في أشعارهم ، ومن ذلك قول جرير :

رأت مرَّ السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال

وكقول العجاج :

طول الليالي أسرعت في نقضي طوين طولي وطوين بعضي

وبعد فهذه جملة فوائد وقفت عليها في لغة التنزيل العزيز وبدا لي أن أحملها على شيء ذي دلالة لغوية تاريخية . وقد رأيت أن أجتزىء بما هداني اليه الاستقراء الوافي بهذا القدر وسأتبع هذه الصفحات بأخرى أعرض فيها للاستعمال الجميل الذي شاع في هذه اللغة السمحة الشريفة .

---

(١) الرعد ٨
(٢) آل عمران ١٦١
(٣) آل عمران ١٠٣
(٤) النحل ٦٠
(٥) آل عمران ١٨٥

الشعر العربي

وأثره في الآداب الأوربية

• بقلم عبد القادر شكري

الثقافة كالطيور لها فصولها التي تهاجر فيها من بلد الى بلد آخر ومن منطقة الى اخرى .

مهاجر من بلد غريب
اتى الى بلدي مبشراً بالطقس الجديد
وعندما بسط جناحيه الأسودين كالابنوس
ابان لنا جسمه الابيض العاجي
وحرك عرفه تيهاً وزهواً
وشدا بلحن ساحر هادي

هذه الابيات من الشعر المنثور ترجمتها الادبية الانكليزية الليدي جوان غرانت Lady Joan Grant عن اللغة الاسبانية وهي جزء من قصيدة نظمت بالعربية في العصر الاندلسي ، انها نفحة من نفحات التراث العربي ونسمة من نسمات الشرق العليلة التي بعثت الحياة في الاداب الاوروبية في عصر النهضة .

يقول الكاتب الانكليزي هيوغوردون بورتيوس في كتاب نشره مؤخراً تحت عنوان «ترجمات من الشرق» ان مصادر الشعر الاوروبي مختلفة الا ان النبع الغزير الذي استقت منه اوروبا آدابها القومية تدفق اليها من الشرق عن طريق العرب في الاندلس ، وروح القصيدة العربية الاندلسية وما تضمنته من نزعة صوفية وآراء فلسفية مستقاة من الادب الفارسي والادب العربي القديم كالمعلقات ، وهذه الروح تظهر بوضوح وجلاء في معظم الآداب الاوروبية في النهضة ، وخير مثال على ذلك ما نجـــده في مؤلفات دانتي وبترارك وتاسو وبوكاتسيو ولافونتين وشكسبير نوابغ الآداب الاوروبية في العصور الوسطى وروادها في العصر الحديث .

ولقد بدأ سير الحضارة العربية في الاندلس حينما استقر الحكم لبني امية في اواسط القرن الثامن للميلاد ، فشادوا في الربوع الاندلسية الجميلة المدن والقصور واسسوا المدارس ودور العلم والمكاتب العامة واستدعوا العلماء من الشرق ، فنهجوا نهج علماء المشرق في ترجمة علوم اليونان والفرس وآدابهم الى العربية ، وانتشرت اللغة العربية في الاندلس انتشاراً واسعاً سريعاً حتى بين سكان البلدان الاصليين .

ويقول ابن القوطية القرطبي في كتابه **تاريخ افتتاح الاندلس** انه بعد ان استطاع عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك ان يفر متنكرا من مطارديه العباسيين في شمال سورية ويحط رحاله في الاندلس عام ٧٥٥

الميلاد اقام نفسه سيدا على شبه الجزيرة لاينازعه في ذلك منازع واختير عاصمة له مدينة قرطبة التي ازدهرت واصبحت عاصمة لملكه ومهدا لحضارة راقية ، وانشأ عبد الرحمن دولته على غرار دولة الامويين في الشام وسار على منهج اجداده ، وكان هشام جده قبل وصول عبد الرحمن الى الاندلس باربعة عشر عاما قد وجه جيشا مؤلفا من سبعة وعشرين الف مقاتل من الشاميين العرب بقيادة بلـج بن بشر القشيري لمحاربة البربر فاستقر هذا الجيش في قطاعات عسكرية منتشرة على الساحل الاسباني المحاذي للبحر الابيض المتوسط واقامت فرق من دمشق وحمص وقنسرين والاردن وفلسطين في المرية واشبيليه وجيان ومالقة وشذونة واعطى هؤلاء الوافدون لمواطنهم الجديدة اسماء جغرافية بلاد الشام وكانت المشابهة في الاحوال الجوية والاوضاع الطبيعية الجغرافية بين المنطقتين تساعـد الوافدين الجدد على الاستئناس باوطانهم الجديدة ، وباكتساب العرب الشاميين لهذه المناطق الجديدة اخذت الاغاني الشامية العربية والشعر والفن العربيان يستحوذان على قلوب ابناء البلاد ، وقدر لكثير من هذه العناصر ان تتسرب في مابعد من اسبانيا والبرتغال الى داخل اوروبا .

اصبح المجتمع الاندلسي بعد ان اقامت القبائل العربية الوافدة اليه من الشرق في كل مكان من ربوع الاندلس ، اصبح مجتمعا عربي الملامح والسمات واشتهر بسبب العوامل الكثيرة ، بعلو ثقافته ورقي حضارته ، فـكان الفلاح والصانع والتاجر ورجال الدين والدولة والعلماء كلهم يجيدون المشاركة في امور الثقافة والادب والشعر ، وكانت اللغة العربية التي يتحدث بها هذا المجتمع لغةراقية مهذبة رقيقة تتسم بفصاحة اهل البادية ورقة اهل المدن المتحضرة .

ويقول استانلي بول : اخذ النصارى ، سكان الاندلس الاصليون ،

يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة وينصرفون عن ادابها فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين ان يكتبوا بها كما يكتب العرب انفسهم وندد يولوجيوس (احد كبار رجال الدين المسيحي في الاندلس) بهذه الحال فقال ان النصارى يولعون بقصائد الشعر العربي وقصصه ويقرأون الكتب العربية بشغف وينشؤون الخزائن لها حتى نسوا لغتهم واصبحوا يستطيعون ان ينظموا شعرا عربيا رائعا .

ومما ساعد في نشر اللغة العربية وترسيخ دعائمها في اسبانيا بالاضافة الى القبائل العربية التي وفدت اليها أيام الفتح وبعده لترسيخ حكم بني امية ، هجرة عدد كبير من علماء الشرق الى الاندلس والرحلات التي كان يقوم بهـــا العلماء والادباء الاندلسيون بين المشرق والمغرب ، فكانت قرطبة واشبيليـــة وغرناطة وطليطلة من جهة ودمشق وبغداد والقاهرة من جهة اخرى على اتصال مستمر ، ومع تنقل هؤلاء العلماء كانت المئات والالوف من الكتب تنقل باستمرار من الشرق العربي الى الاندلس حتى قيل أنه كان في قرطبة وحدها سبعون مكتبة عامة تحتوي على اثمن الكتب واجلها وافضلها ، وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة فيهـــا ستمائة الف كتاب .

وثمة وسيلة اخرى انتقلت عبرها الحضارة العربية واللغة العربية وآدابهـــا الى اوروبا ، عبر الغزوات الصليبية . لقـــد كانت هذه الغزوات عاملا آخر من العوامل التي ساهمت في انتقال الآداب العربية الى اوروبا وعاد الصليبيون الى بلادهم بعد الغزوات التي قاموا بها في سورية وفلسطين ومصر وهم يحملون الى اوروبا وخاصة الوسطى والغربية منها حضارة الشرق وعلومه .

ان الباحث عن اثر الادب العربي في الآداب الاوروبية لا بد وان يلاحظ وجوه الشبه بينها ولعل أصدق مثال على ذلك الشبه الدقيق بين أشعار دانتي ، شاعر

ايطاليا الكبير في الكوميديا المقدسة واشعار فيلسوف المعرة أبي العلاء في رسالة الغفران ، ان وجوه الشبه العديدة بين رسالة الغفران والكوميديا المقدسة لم تأت بصورة عفوية بل تدل دلالة واضحة على تأثر شاعر ايطاليا الكبير بالادب العربي ، فالتقاء الشاعر الايطالي أثناء طوافه في الجحيم بالشعراء اللاتينيين الذين ماتوا قبل انتشار الديانة المسيحية شبيه بالتقاء صاحب المعري بامريء القيس والنابغة الذبياني وغيرهما من شعراء الجاهلية في النار ، وهنالك غير هذا الشبه تصوير دانتي للنار وسكانها وهو مماثل لتصوير المعري للجحيم ، وما يحمل على الاعتقاد بأن دانتي اقتبس فكرة الكوميديا المقدسة من رسالة الغفران .

ان الآداب العربية كانت في عصر النهضة الاوروبية تدرس دراسة واسعة في ايطاليا ، ومن المستبعد أن يكون هذا الشاعر الكبير قد عاش بمعزل عن التيارات الثقافية التي كانت تجتاح عصره ، وبمناسبة ذكر ايطاليا يجدر بنا ألا ننسى الدور الذي قامت به جزيرة صقلية الواقعة جنوبي ايطاليا في نقل الحضارة العربية الى اوروبا ، فقد جاء في كتاب البلاذري أن اسطول معاوية بلغ صقلية عام ٦٦٤ ميلادية وتوالت عليها هجمات كثيرة حتى قدر لها أن تغدو ولاية عربية زاهرة ، وشاركت الاندلس في نقل الحضارة العربية وساعد علماؤها علماء الاندلس في ترجمة اللغة العربية وآدابها الى اللغة الايطالية ، ومن ثم الى اللغات الاوروبية الاخرى ، ومن اشهر علماء صقلية وادبائها ابن حمديس الصقلي الشاعر العربي الكبير الذي رحل عن صقلية الى الاندلس والتحق بحاشية المعتمد بن عباد ، احد ملوك الطوائف .

وليست الاشعار العربية وحدها التي اثرت في اداب العصور الوسطى في أوروبا واشعارها بل كان للامثال والنوادر والقصص العربية اثر كبير ايضا في هذا المجال ، ويظهر هذا الاثر جليا في مقطوعات الشاعر الفرنسي الكبير لافونتين

تلك المقطوعات التي نجد فيها شبها كبيرا بأقاصيص كتاب كليلة ودمنة الذي ترجم الى الاسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر ، ومن ثم ترجم الى اللغات الاوروبية المختلفة . كان اول من امر بترجمة كليلة ودمنة عن العربية الملك الاسباني الفونسو الملقب بحكيم اسبانيا الذي كان بلاطه يضم خيرة علماء عصره ، وتم في زمانه ترجمة العديد من الكتب العربية الاخرى ، ومن بعده ، حذا اخوه الملك دون فردريك حذوه في رعاية العلماء والادباء وشجعهم على ترجمة الكتب العربية وفي ايامه ترجم كتاب (رحلات السندباد) الذي اقتبس عنه الاديب الانكليزي (جوناثان سويفت) فكرة (رحلات غلفر) وسار دون جوان مانويل ، ابن عم الملك الفونسو على نهج ابن عمه في رعاية الادباء وكان هو نفسه ، اديبا كبيرا موهوبا بالاضافة الى كونه سياسيا وفارسا مغوارا ، فقام بسرد عدد كبير من الاقاصيص العربية الشرقية بلغة اسبانية مما ساعد على انتشارها ، انتشارا واسعا في اسبانيا ووجدت هذه الاقاصيص طريقاً لها بسهولة الى سائر انحاء اوروبا وكانت من بين الينابيع التي نهل منها وليم شكسبير واقتبس رواياته ، ولعل ابرز رواياته المسماة بترويض الشرسة ، وواضح في هذه الرواية ان موضوعها مقتبس من قصة جون مانويل العروس الشرسة ، وهي في الاصل احدى القصص الشرقية القديمة، ولهذا يقول الاديب الانكليزي بورتيوس في كتابه الجديد ، ان بذور النهضة الادبية في انكلترا في عصر الملكة اليزابيت ، الذي ظهر فيه وليم شكسبير ، مصدرها الرئيسي بغداد ودمشق في الشرق وقرطبة وغرناطة واشبيلية في المغرب.

وثمة اديب اسباني آخر ساهم في ترجمة الادب العربي الى الاسبانية ومهد السبل الى نقل بعض تراثه الى اللغات الاوروبية الاخرى ،هذا الاديب هوميغول سرفنتز ، مؤلف رواية دون كيشوت الذي تأثر بالادب العربي تأثرا كبيرا ،

ويعود ذلك الى اقامته ردحا طويلا من حياته في ايطاليا في عصر النهضة بالاضافة الى مقامه في اسبانيا ايام صباه ووقوعه في الاسر زهاء خمس سنوات في الجزائر ولعل سرفنتز تأثر بالقصة العربية «مجنون ليلى» في تأليفه رواية (دون كيشوت) .

ومما ساعد على نقل آداب اللغة العربية وخاصة الشعر العربي الى اوروبا ظهور طائفة جديدة من الشعراء في القرن الحادي عشر في اوروبا حملوا في اشعارهم الروح العربية الشرقية والطابع العربي واسلوب الشعر العربي واطلق على هؤلاء الشعراء اسم الطروبادور، وهي كلمة مشتقة من لفظ الطرب ، وكانت قصائد هؤلاء الشعراء مشابهة الى حد كبير للاناشيد الاندلسية في نظام اوزانها وقوافيها، وقد انتشرت هذه الاشعار لاول مرة في اسبانيا ثم في جنوب فرنسا وايطاليا ولم تلبث حتى عمت اوروبا الغربية والوسطى ، وقد اثرت هذه الاشعار الى حد كبير في اشعار الامم الاوروبية واصبحت تعتبر اساساً من اسس الشعر في الاداب الاوروبية الحديثة .

واذا كان لا بد لنا ان نذكر شعراء الاندلس وادباؤها في حديثنا فيجدر بنا ان نورد اسم شاعر الاندلس العظيم ابن حزم الذي يمثل العصر الاندلسي والذي يعتبر من اجمع اهل عصره لعلوم العرب واوسعهم معرفة في البلاغة والسير والشعر ، ولابن حزم منزلة كبيرة عند المستشرقين الغربيين وقداورد الكاتب الانكليزي بورتيوس جزءاً من قصيدة نظمها ابن حزم وضمنها كتابه طوق الحمامة، فكانت درة خالدة في آداب العرب وترجمت الى عدة لغات اوروبية منها الانكليزية في عصر النهضة ، وفي ختام حديثنا نتلو ثلاثة أبيات منها :

اتيتني وهلال الجو مطلع	قبيل قرع النصارى للنواقيس
كحاجب الشيخ عم الشيب اكثره	واخمص الرجل في لطف وتقويس
ولاح في الافق قوس الله مكتسيا	من كل لون كاذيال الطواويس

أنا والمصور

* شعر محمد الحريري



ياليتني كنت المصور يصطفيك فلا يُرد
يجري على الخدين أنمله ، فلا يحتج خد
ويصف شعرك أو يبعثره على النمط الأجد
ويطوف حولك يدعي أن خانه الوضع الأسد
لم يرضه نول يهل عليك أو ظل يمد
فيثور ينهر هذه الشمس التي لم تتقد
ويعاتب الظل المدلل كيف جاوز كل حد
ويعود يستجلي الزوايا هل رسخن على سند
وهل انتظمن ، فكل زاوية لثانية مدد
الزند عون للخدود ، وان تباعد أو شرد
والانف أغنية الجبين تسربت لو لم تصد
جسد اذا ضل انسجام ، دله هذا الجسد
هو في اتساق مسعف فمتى المصور يستعد
ومتى يصوب لقطة تطوي الجمال المستبد
قدم ، فارتعشت يداه ، وزرعينا ، واحتشد
فتسابقت عيني وآلته لرسم منفرد
هو باللسان يعد ، والخفقات من قلبي أعد
ولقد أخذنا صورتين ، لكل واحدة صدد
رسم على روحي ، ورسم في بطاقته جمد

يتحدث الطمي

للشاعر محمد عفيفي مطر
القاهرة —



بقلب الليل ، تحت السلّم الطينيّ ناديتُ :
« خذيني وارحميني من صرير الباب يا أماه
فإني لم أزل يقظان مذ جئتُ
وصوت الباب يشنقني ، يساقط ثلجه الليليّ في قلبي
ويغرس نابه في ركبتيّ ، يطير من ركن إلى ركن
فينفض ريشه المسنون في عيني
تعالَيْ .. ليس في قنديلنا زيتُ
تعالَيْ واطرحي من شعرك المجدول قمصانا
وضميني لأغفو ساعةٍ ما بين نهديك . »

« لماذا خفتَ ياطفلي الخفيف القلبْ ؟!
أنا في السطح .. أُحضِرُ من رياح الليل إبريقي
أسامر نجم « محيي الدين »
وأستقيه .. لكني أراه يغيب منطفئاً خلال السحُبْ
أمديديْ .. علّ قُطيْرَةً من مائه تروي جذورَ
الحزن أو تنسلُّ تحت مرارة الريقِ . »

« خذي رأسي على ساقيك يا أماه
ضعي رأسي على أرجوحة العطو التي تهتزُّ في الزنار والجلبابِ
خذيني قبل أن ينقضَّ قطُّ الليل عبر الباب
أخاف بريق عينيه
يسمّرني إذا التمعتْ خناجرُ عينه النارية الأهدابْ . . »

« تكلَّمْ أيها الطفلُ
وكبِّرْ خوفك الملسوخَ ، واطردْ رعبك
الشجيَّ في الألفاظ
سأهبط ، لم يعد نجمٌ ولا جادت سواقي الليل بالماء .

* * *

« ضعي ثدييك في كفيَّ يا أماه
دعيني مرةً أندسُ بين حدائق اللبن
فأرقص عارياً وأطير تحت سمائها البيضاءْ
وأنظر شمسها البيضاء
وأغوفطميها وأعوم في تيارها الأبيض
وأنعس ساعةً في شاطئٍ صمتٍ وموسيقى
ضعيني مرة في لونك القمحيِّ يا أماه
لأطرح جسميَ المقرور فوق مسارج الدفء
وأحلم حينا أندس في عينيك بالأقمارْ
وأغسل قلبيَ النعسان بالأمطارْ
خذيني مرة لمآذن الفيء
لأرقص في رنين هوائها المغسول بالليمون
خذيني وارحلي يا أمُّ تحت جدائل الصفصاف والكافورْ

لأرقص مرة في النور
وتهبط من سماء الصمت في صدري يمامةُ قلبيَ الخضراءْ
أراقصها ونقرأ سورة الزيتون . »

« سأمنحك الدم المحرورُ
لتبحث فيه عن عش من البلورْ
وتقطف من حدائق زهور الشمس ، تأكل
من روافد صيفه خبزاً من الأعشاب والأقمارْ
وتطلق في احمرار سمائه الأطيارْ
وتنعس في دمى وتعيدني حبلى .»

« أنصمتُ حينما نمضي الى القبر
أنرفع وجهنا في الليل ننظر دثبة الغيطان في الصمت
فنصرخ دونما صوت
وهل يستصرخ الموتى مجيباً يرجم الظلمةْ ؟؟ »

« بقلب الليل أسمع صوت « محيي الدين »
يدق بإصبع شرّاعةَ الباب
ويبرق عبر شقّ الحائط الغربيّ ، يرقص
طائر الخطوات ، يلعب دونما حركةْ
ويأكل خبزنا فيحل فيه الخير والبركةْ
ويغمس إصبعا في الماء والزيت
فلا نحتاج طول العام . »

« سمعتُ الآن في الدهليز قطاً يخمش الصمتا

ويدخل رأسه بقدورنا كي يلعق الزيتا
وينفض ذيله بدقيقنا »

« صمتاً أيا طفلي
فهذا صوتُ « محيي الدين »
يعوء الجوع في جنبيه والرعبُ
تطارده الشموس السود والذئبُ
وتأكل عشبه الديدان
فيمرق عبر شقّ الحائط الغربي ، يملأ صدره
بروائح الدارِ
ويقرأ بعض ترتيلاته ؛ ويعود في الفجرِ
فإن الموت يهجرهم على فرسٍ من النورِ .. »





الشعر والنار والزنزانة

شعر: محمد جميل شلش
بغداد —

سارق النار الذي غنى لنا (١)
من عهدِ عادْ
عن إلهٍ رابضٍ في دَمِنا
عن سندبادْ
حلمه الأخضرُ : أن يخفق للدنيا شراعْ
في عُباب الشمس ...
لا في عتمة الذات .. ولا بحرِ الضياعْ .

سارق النار رفيقي
ورفيق الناس في ليل الصراع
سارق النار الذي شقَّ على الصخرِ ..
على الجمر طريقي ،
لم يزل كالأمس في أعماق غَيْهَبْ .
لم يزل مثلك ياقلبي المعذبْ
قابعاً ، يأرقُ في زنزانةِ الموتِ ..

(١) سارق النار هو « بروميثيوس » الذي سرق النار من السماء وأتى بها لأهل الارض لينتفعوا بها ، فعاقبه كبير الآلهة ، وشده الى جبل «القوقاز» وسلط عليه نسراً يأكل من كبده ، ولا تكاد أن تنتهي حتى تتجدد ··· الى أن فكه من الأسر « هرقل » ··· وكان بروميثيوس لايخشى التعذيب لعلمه أن مصير معذبه في يده .

يغني .. ينتشي .. يحزنُ .. يطوبْ
لم يزل يحلم من ألفِ عجافٍ بالمعادِ
بخاض الشرقِ في أعماق أعماقِ بلادي
بليالي شهرزادِ
بشراع أخضرٍ للسندبادِ
أبداً يخفق في ليل السهادِ :
عربي اللون
شرقي الهوى
طـَلـْقَ العبيرِ

سارقُ النار ـ رفيقي في المصيرِ
لم يزل يحلم بالفجر الكبيرِ
كبداً ، أقوى من الآلامِ
والأحزانِ
والصمت المريرِ
كبدا مُنْصَدِعَهْ
ينهشُ النسر بقاياها .. وتنزو :
خَسِىء السجانُ .. يأرض استنيري
واستعدّي للغدِ
وانشدي : منْ ألفِ ألفٍ
يحمل الليل ذليلاً مصرعَهْ .

آه .. ماأروعَهْ .. ماأروعهْ
سارقاً مازال فينا

يحمل المشعل في الأعماق دينا
ويغني لعبير الشمس ..
في أعماق ليلِ «العاشره» (١) :
ياعدوُ الفجرِ ، إن الفجر آتٍ
وعلى الباغي تدور الدائره ،
ياعدو الفجرِ .. يانسلَ النسور الفاجره
لم تزل بُقيا حياةٍ
في دمي ، في فلذةٍ من كبدي المنصدعَه
لم يزل يخفق قلبي للفصول الأربعه
لم أزل أومِنُ بالانسانِ
في وهران
في ليل «يهوذا» .. عَبْرَ سور «الناصره» .
عَبْرَ بوابةِ «مندلبوم» (٢)
عَبْرَ الظلمات
وستأتي ساعةٌ فيها تضيء الكلمات
وتغني سارقَ النار الذي غنى لنا
من عهد عاد
عن إلهٍ رابضٍ في دَمِنا ...
عن سندباد

(١) رقم « الزنزانة » ... التي قال فيها الشاعر شعره
(٢) بوابة القدس الشهيرة .

الرجل والديك

قصة : أنطون حمصي



وهكذا ايها الديك الطيب الصغير ترى اننـا وحيدان فلم اعد بشيء ذي بال بالنسبة لاحبتي ، اما احبتك . . آه . . انــك لم تعرف قط حبيباً لاني ما عنيت بسعادتك .

ونظر الديك الى الرجل من خلال كأس الويسكي ، كأسه ولو انه ممزوج بكثير من الماء ، على انــه يكفي لسكرة ديك . كان يبدو مهتماً بالحديث كما لو كانت هناك لذة مشتركة بينه وبين الرجل الذي افسده وانساه طعم الماء النقي . وماذا في ذلك ؟ انه لم يبق له على كل حال ما يربطه بسائر الديكة : فهو يشرب في كأس من الكريستال ، منتصباً على المائدة ، ويسهر حتى شعاعات الفجر الاولى ولا يغني ابداً . ولو انه غنى ، فان غناءه سوف يبدو متنافراً مع هذا المنزل الصامت الكئيب .

نظر الديك الى سيده ثم القى برأسه الى الوراء . وتابع الآخر مرسلا قهقهة ارادها مرحة :

ـ لا داع للمراوغة . انت تظنني مجنوناً اذ تريــد ان تقنعني بانك تحب وحدتك . آه . . بالطبع انت تعيش كما تريد وليس عليك ان تنحني امام نزوات انثى .. ولكن ، اتعرف مع ذلك ان دجاجة جميلة لطيفة تكسب حياتك نكهة ... مجرد ان تستطيع التحدث الى ابنــاء جنسك ، وان تحس الى جانبك مخلوقا في الليل . انك تغش . فانت تتظاهر بالاصغاء الى حديثي لتكسب الوقت وتتوقف عن الشرب .. هيا ايها الصديق الخبيث . . اشرب .

وامسك الرجل بعنق الديك وغمسه في الكأس . ويبدو ان طعم الويسكي لم يكن كريها بالنسبة للديك الذي فتح منقاره بنشوة وتراخ . وتابع الرجل :

اما بالنسبة لي فالامر مختلف تماما . فقد اعتـدت رغم كل شيء وحدتي وانا الآن احبها . اتفهم ما اقول ؟ اني احبها . نعم اني احس في بعض الاحيــان

بالحاجة الى التحدث الى احد في غير شؤون العمل .. ولكنك هنا وانا احدثك . أليس كذلك ؟ انت لا تفهمني .. اجل انت لا تفهمني رغم احتجاجك . . ولكن أ كنا نبقى صديقين لو انك تفهمني ؟ لقد رأيت بعينك الكلب فيدور نفسه الذي يعد حيواناً ذكياً واميناً يهجرني مع الآخرين . ماذا ؟ اتقول انه لحق بابني الذي يحبه ؟ وانا ؟ ألم احبه ؟ ومن الذي كان يطعمه ويعنى به ويداعبه ؟ هل تستطيع اذن ان تقول لي لمـــاذا هجرني ؟ اشرب . . اشرب . . فلسنا نستطيع ان نفعل ما هو احسن من ذلك .

لم يتحمل الديك هذه المرة الحاحا ، فما ان قرب صديقه كأسه منه حتى غطس فيه منقاره واخذ جرعة كبيرة .. وربت الآخر على عنقه وقال بلهجة مواسية :

ـ انك تنهك نفسك كثيرا ويجب ان اعطيك دواء للحنجرة . كلا .. كلا .. اياك ان تنصحني . لو كنت استطيع ان استمر في معالجة الناس ، اتعتقد اني كنت انتظر نصيحة ديك ؟؟ لا تحزن ولا ترمني بهذه النظرة العاتبة . ولكن اسمعني وافهمني جيدا : ان القلب شيء اساسي في عمل الطبيب . انه لا يستطيع العناية بمريض ما لم يحس الله ويشاركه مرضـــه . . اي دون ان يحبه نوعا ما .. وانا لم اعد قادراً على الحب .

وتنقلت نظرات الديك في قسمات الرجل المتعب فاحصة ، وتابع الطبيب قائلا :

ـ اياك ان تعتقد اني كذلك دائمـا . وعلى كل حال كنت طبيباً ناجحاً . انت ديك ، ولذلك لا تستطيع ان تفهم ان هناك اشياء يجب على الانسان الا يفعلها ومن بين هذه الاشياء ، السكر مع ديك . ولكن الناس هنا يقبلون ذلك مني دون ان يرموني بالجنون ، وذلك من اجل الخدمات التي قدمتها لهم . ماذا ؟ اتهز رأسك ؟ الا تصدقني ؟ اتقول انهم بالاحرى اشفقوا علي ؟ انت تخيب رجائي . . انت لست

بصديق حقيقي والا لفهمت اني لست في حاجة الى الشفقة . . لست في حاجة الى من يرثي لي . . حتى انت . . اتفهم ؟ حتى انت . .

واشتعل وجه الرجل ، وامتلأ حيوية وارتفع صوته واخذت قبضته تخبط على الطاولة وهو يصيح :

ــ لست في حاجة الى الشفقة ايها المخلوق الحقير . . انت ايضا تستطيع الذهاب . . تستطيع اللحاق بالآخرين . . اذهب الى السواقي وعش حياة ديك برّي.

وبدا الذعر على الحيوان المسكين الذي فاجأته ثورة سيده ، فقفز على الارض مهتاجاً واخذ يطير على ايقاع خبطات الرجل في ارجاء الغرفة وقد جن جنونه . وايقظ اصطفاق الاجنحة الاخر الذي بدأ يعود الى هدوئه . واخذ يتابع ديكه الذي انتهى بالاستسلام بعد ان هدأت هو الآخر مخاوفه . وحمله سيده الى الطاولة وغمس منقاره في الويسكي وقال مصالحا :

ــ انت لن تخاصم صديقا قديماً . . أليس كذلك ؟ انت ترى اني احبك جيدا واني لم ارد حقا ان اجرح شعورك . اكنت اهوج ؟ آه ان ذلك محتمل او بالحري صحيح . انت تذكرني شيئا . الا تعتقد ان سوء تصرفي هو الذي افقدني الذين احبهم ؟ آه . . انا ارى انك تبتسم . لا بأس . . انا اوافقك على اني كذبت حينما قلت لك اني اعتدت على وحدتي واني احبها . . وماذا في ذلك ؟ الا يستطيع الانسان ان يسمح لنفسه بكذبة صغيرة امام صديق قديم ؟

وركز الديك نظراته الصافية في وجه سيده الذي تابع :

ــ تصور انه لم يتيسر لي قط ان اعرف عطفا حقيقيا . لا تحاول ان تفهم ، لان الامور تجري لديكم معشر الديكة بصورة مختلفة . ان ابي كان مشغولا بذاته عني . اما امي فقد كانت تخشى نموي الذي كان يدنيها من الشيخوخة . انستطيع

ان تصدق يا ديكي الصغير ان ابي لم يعرف اني انهيت دراستي الا يوم كان عليه ان يدفع تكاليف العيادة ؟ وان امي كانت تخشى ان تقول ان لها ولدا في الجامعة كيلا تبدو متقدمة في السن امام زميلاتهـــا في لعب البريدج ؟ الم اقل لك انكم معشر الديكة لا تستطيعون فهم التعقيدات الانسانية ؟

وتوقف الرجل عن الحديث برهة ليأخذ جرعة كبيرة . وبدت نظراته تتيه بعيداً جداً ، ورغم النافذة المفتوحة الى جانبه كان العرق يسيل على خديه . ولم يعد يرى ديكه ، ومع ذلك تابع حديثه قائلا :

ـ في الجامعة لم افعل شيئا ما . ثم .. ثم ليس في دراسة الطب متسع للبحث عن العطف والعاطفة. لاحظ اني لم اكن شقيا . صحيح اني عرفت بعض الخيبات. ولكني لم اكن احس انها دمغتني . اجل ايها الديك الصغير .. لقد دمغتني بصورة اقوى مما كنت اظن ، وربما كانت هذه الخيبات هي التي جعلتني اشرب معك ايها الديك المسكين . وظهرت عليه فجأة علائم التفكير وقال :

ـ اتعتقد ايها الصديق الديك انك تقترف جريمة اذا احببت انسانا ما حباً كبيراً ؟ لقد احببت المرأة وخضعت لكل رغباتها . اكان علي ان اقاوم نزواتها ؟ ربما كانت النهاية غير ذلك لو اني احببتها اقل مما فعلت .

ولكن قل لي يا صديقي الديك اتستطيع ان تفهم ان تهجرك امرأة لانك أحببتها ؟ امن العدل ان تعاقب على حبك بان تهجرك زوجتك ويتبعها ولدك ؟

وبدا على الديك انه يحضن الرجل بنظرات متفهمة مواسية . وضم الرجل وجهه بين كفيه وتمتم :

ـ لقد وددت لو اعاود المحاولة من جديد . . ولكني بعد كل هـذا الفشل خائف .. لم اعد اجرؤ على الحياة اني خائف ايها الديك .. خائف ....

وتهالك على الطاولة وتابع بيأس :

ـ اني خائف .. خائف من ان اعيش .

ولم يستطع ان ينتبه اثناء ذلك ان ديكه يقترب ببطء من حافة الطاولة القريبة من النافذة . وافادالديك من غفلة سيده ، وبرفة جناح صار في الطريق.

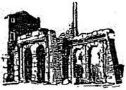
ولم يعرف الرجل كم من الوقت مضى بين اللحظة التي سمع فيها اصطفاق الاجنحة وتلك التي افاق فيها مذعورا على زمجرة سيارة لجمت في ارضها فجأة. ولم يعرف كيف فعل ليخرج الى الشارع .

وعلى الرصيف، كان عدد من الجيران الذين خرجوا على صوت الفرامل، اما السيارة فقد توارت في آخر الشارع .

وفي وسط الطريق ... كان الديك المسكين يتخبط في دمه في محاولة يائسة كي يعيش .

مشهد لن ينساه اهل الحي قط .... هو مشهد طبيبهم وقد حمل بين ذراعيه صديقه القتيل ، ومشى يخطو ثقيلة نحو منزله ، محدودب الظهر ، وكأنه كبر فجأة خمسين عاما ....

وفي هذه اللحظة لم يخش ان يراه سكان الحي يبكي لاول مرة .




الجراد
مسرحية من فصل واحد
بقلم : سعد الله ونوس

(ينجلي الستار عن ظلام مزدحم بالقطاعات
والأشياء التي ستكشف عنها الاضواء فيما بعد ..
وتنثال من خلف المسرح ثمغمة غامضة لاتلبث ،
بعد نصف دقيقة من انجلاءالستار ، انتعلو نبراتها
ويتوضح فيها صوت امرأة مترهلة ومهذار)

صوت المرأة ـ (وهي توالي حديثاً بدأته من قبل) اعرف .. اعرف ماذا تقول دائماً ؟ ولكن لابد أن تفتح عينيك اخيراً . ولسوف يلتهمون كل شيء كالجراد المتكالب لولم تفعل . ألم تقل لي دائـماً أن منظر الجرادة وهي تقضم العشب والسنابل يقلب معدتك ، ويثير تقززك . (لحظة صمت) انت طيب القلب . وهم يتقنون استغلال هذه الطيبة . ديدان لعينة لاتفرق بين الجثث ، وعلى كل ليس لي ان اتحدث عنهم بضر . فهم اذكياء يفعلون مايفعله كل انسان لديه قليل من التبصر . (زفرة تضجر يطلقها رجل) .. نعم .. أدرك انهاخوك . ولكن .. تصور انك الذي مرض لاسمح الله ! اتظن انه سيتفانى في حبك وخدمتك كما تفعل انت . لن اذكرك بقسمة الميراث ، او بالعرس . وعلى كل انت تعرفه خيراً مني ... ثم تلك الفترة المذلة . (زفرة تضجر) لاتزفر . اني لا استطيع الصمت ، وانا ارى سذاجتك تبدد مستقبل ولدي من اجله . لقد اصبحت لاتنام ، ولا تكاد توجد في البيت ... لحظات قصار تأكل فيها ، او تختلس غفوة قلقة ، ثم تهب كالمجنون لتبعثر نقودنا على الاطباء وعلى مطالب المذلة التي لاتنقطع (برهة) وياللوجه المنافق الذي تمتلكه ! اني أشم خلف الحزن الذي ترتديه عيناها رخصاً له رائحة السردين الفاسد . طبعاً ... طبعا ... اغمض عينيكوأنت لاتريد ان تسمعني لأنني أفهم الدنيا اكثر منك . لقد أفسدتك طيبتك حتى انك لاتذكر الاساءة ، ولاتبالي بمصلحتك . ولكن حذار ... لو بذرت كل دخرنا على جثته ، فلن نجد حولنا الا الكلاب الشامتة . ساعتها قد تستيقظ . الا ان الندم عقيم حينذاك . (غطيط خافت متقطع .. ويتحول صوت المرأة

(*) المعرفة تقدم اليوم مسرحيـة (تجريبية) - Experimentale - لـكاتب شاب يحاول فيها ان يتجاوز الشكل التقليدي للعمل المسرحي . على اعتبار ان الـكاتب محوج في كثير من الاحيان ، الى وسائل استثنائية لفهم الانسان . ولهذا فهو يستنطق الحلم بغية النفاذ الى باطن الشخصية ... وحقيقتها .

« والمعرفة » التي تعودت ان تكون مرآة لكل التيارات والاتجاهات الادبية تنشر هذه المسرحية وتطرحها للرأي العام الادبي .

متشكياً ناحبا) آه ... يارب كأني أكلم حجرا يابسا . كيف اجعله يفهم...
ساذج طيب لايصدق ان الدنيا ملأى بالقلوب السوداء والشرور . ومع هذا فان
الطيبة لن تطعمنا خبزا حين يسلبون كل شيء منه (ينتظم الغطيط)
منذ يومين لم يذق طعم النوم . ياله من دب طيب يهلك نفسه من اجل الخنازير .
تلك الدلوعة اللئيمة. وذاك المملول الاناني.. تفو (لحظة) يارب العباد هبني
راحة الفؤاد .

(يصمت الصوت ، ويرتفع الغطيط رتيباً .. منتظماً ، يندفق من وراء المسرح مغلغلاً في الظلام لمدة دقيقتين تقريباً . ثم يسري ضوء شاحب جداً في الزاوية اليسرى من مؤخرة المسرح . لانرى في البدء شيئاً . ولكن وئيداً .. وئيداً تنكشف سبخة صفراء تتناثر عليها أعشاب محترقة كالشعر . وثمة حجارة سوداء في الوسط. وبين الحين والحين تتقافز سمكات حمراء قانية ، تنقلب في الهواء ، وتغوص ثانية في السبخة . خلال انكشاف المنظر التدريجي يظل الغطيط عالياً ومتواصلاً . أما أجزاء المسرح الاخرى فتبقى غائصة في الظلام الدامس .

يظهر يوسف في النور . وهو رجل ناهز الخامسة والثلاثين. وجهه كقناع يتشقق بضغوط من الداخل . ثمة قسوة وخوف ولهفة . والى يساره يظهر رجل آخر في نفس عمر يوسف . له قامة مديدة ، ووجه متطاول صلب الملامح .

يتقهقر الغطيط متحولاً الى نغمة صدى بليد .. متسق)

يوسف - أمتأكد ؟

الرجل - وتسألني أيضاً ؟ فعلتها بضع مرات .

يوسف - (دهشاً) بضع مرات ؟! ألم ينظروا اليك من الثقوب ؟

الرجل - (ضاحكاً .. أسنانه برتقالية) أسد الثقوب .

يوسف - بالغراء لاشك .

الرجل – احذر ان الفراء خادع . وهو في النهاية يسخر من الجميع.

يوسف – الفراء ؟ يااللخبث !

الرجل – (ضاحكاً .. أسنانه برتقالية) انك لاتعرف . أما أنا فبضع مرات فعلت .. استعمل الطين لسد الثقوب (يجرف بيده قبضة طين أصفر من السبخة) انظر اليه . ألا ترى كم هو جيل !

يوسف – نعم .. لابد أنه جيل

(تقفز سمكة كبيرة ، فتصطدم بيد الرجل الآخر ، وتلطخها بخط أحمر كالدم . يرفعها الى عينيه ، فيتأمل الخط ، ويقهقه)

يوسف – أشعر بالبرد

الرجل – أنت خائف

يوسف – ربما .. لا أعلم

الرجل – ولكنك ضربتني يومها على رأسي

يوسف – (بأسف) حقاً .. وانما .. (يصمت)

الرجل – أدرك .. أدرك . وكان العشب كثيفاً تحت رأسه ، ولولا ذلك ..

يوسف – نعم كان هناك حجر أسود . ولو سقط رأسه عليه لانفجر .

(يحملق يوسف بالحجارة السوداء)

الرجل – كنت صديقك وضربتني .

يوسف – لكانت أنبتني أمي لو لم أفعل (ينظر الرجل اليه باسفاف . يتراقص يوسف) كان أخي (الرجل لايزال يسف النظر.. يوسف يبتسم) إلا أنك عرفت كيف تسدد قبضتك الى فكه . لقد صبغ دمه يدك . (شارداً) كان الدم أحمر .. أحمر .. أحمر .

(تهتز الاضواء ، فيتراقص الشخصان والمنظر .. تشحب الاضواء)

يوسف – (لاهثاً) لابد أنه مزروع تحت الحجارة السوداء .

الرجل – (ضاحكاً) الزرنيخ ! كيف عرفت ؟ تحت ذلك الحجر بالذات.(دهشاً)، كنت أحسب أن أحداً لايعرف أين يختبيء الزرنيخ سواي .

يوسف – وبين الاعشاب المحروقة !!

الرجل – أعشاب هزيلة .

يوسف – إنها سوداء .. محروقة . لا أحب العشب الاخضر .

(الضوء يتراقص ثانية ، ويزداد شحوباً)

الرجل – ولكن تكفيها كبة صغيرة ، فهو نوع جيد للغاية .

يوسف – (مرتعشا) تكفيها ؟ من هي ؟

الرجل – (ببساطة) زوجتك

يوسف – زوجتي ؟

الرجل – (بنفس البساطة) بلى . . والا لمــاذا تريد الزرنيخ ؟ (يضحـك فتلمع أسنانه البرتقالية) لا يستعمل الزرنيخ إلا للزوجات أو الآباء .

يوسف – زوجتي امرأة تتعرق كثيراً .

الرجل – لقد قتلت زوجتين حتى الآن . (ضجراً) ما أسرع مابلى النساء!

يوسف – ما أجمل لونه !

الرجل – الزرنيخ ؟ بالتأكيد .. بالتأكيد .

يوسف – (مبتسماً) كان أبي ينهرني لما أقترب من الوعاء الذي وضـع فيه . يا له من رجل بارع في صنع الدبق . كان يدهن يومياً مئات العيدان المبثورة بعجينه الدبق التي تخضر تحت أشعة الشمس.(مبتهجاً) أما الصيد ! فقد كان مشهداً مـلذاً أن أرقب العصافير الثرثارة وهي تعلق بقضبان الدبق . وتتدلى مذعورة نحو الارض . (يبتسم الرجل بدون اكتراث)أوه..أشاد الأب مراراً ببراعتي في اصطيادها (صمت يبرق فيه وجهه . يفرك يديه) في الصيــد سأسترد المديــح (ينحني يوسف بهمـة نحو الحجارة ، فيضمحل المنظر ، وتسود

ومضة ظلال يقترب فيها الخطيط . ثم يتراجع ثانية ، فيا يتناثر رشاش ضوء منحلي قريباً من الوسط . يظهر يوسف وهو يتلصص بعينيه يميناً وشمالاً . باقي المسرح في الظلام)

يوسف ــ (يضغط على جيبه الأيمن بحرص بالغ ، ناظراً الى حذائه بانزعاج) لن أسير خطوة حتى تصيح الارض بضجة فظيعة . (شكوى وضيــــق) لا أكف عن التعرق حين يحدق الناس إلي من كل صوب . كالنــــائم عاريا بين شمائل الشمير (كأنه يحدث أحداً أمامه) على كل لا تستطيع ان تــلوم الناس اذا التفتوا الى طرقات حذاء رصف نعله بالمسامير ذات الطرابيش المفلطحة السميكة ! (يسترق النظر حوله متمعضاً ، ثم يخلع حذاءه ، ويحـــاول نزع المسامير بأظافره .. كأنه يتذكر ، يعود فيضع يده على جيبه . تدخل الى بقعة النور هيئة غريبة ، رجل وجهــــه بلا أنف ، وبلاملامح. حفرتان مجوفتان في الاعلى للعينين. وشق للفم في الأسفل.)

الغريب ــ أعرف ما تنوي .

(يقفز يوسف مرتعداً ، ويسقط الحذاء على الأرض)

يوسف ــ أوه (يحاول التماسك) أحاول نزع المسامير، وقع ضجتها يزعجني. (بعنف) إنه يهيج عيون الناس. (يهز الغريب رأسه) صحيح انهـــا تحمي النعل من التآكل . إلا أنني أعلنت لأبي مراراً كراهيتي لها . (يهز الغريب رأسه ، يتابع يوسف مرتبكاً) وعلى كل ليس ضرورياً يا سيدي أن تخـبره . والا فسيثور غضبه بصورة مخيفة . انك لا تعرفه حين يغضب . أعوذ بالله . (يبتسم فجأة) ومع هذا فهو يحبني . . و . .

الغريب ــ (مقاطعاً) أعرف ما تفعل .

يوسف ــ ما دمت قد رأيتني أهم بانتزاعها . فانك تعرف حتما .

الغريب ــ (باصرار) أعرف ما تفعل .

يوسف ــ (جزعاً) عم تتكلم ؟

الغريب ـ وأعرف ما تخفي في جيبك

يوسف ـ (ضاغطاً على جيبه بمزيد من الجزع) جيبي ؟

الغريب ـ لا تتجاهل

يوسف ـ انك مخطىء للغاية . (بدهشة) ثم من أنت ؟

الغريب ـ لا تعرفني ؟

يوسف ـ طبعاً لا أعرفك . هل تظن أننا التقينا من قبل .

الغريب ـ (بغموض) نحن دائما نلتقي . الا أنك تريد ان تنسى .

يوسف ـ (يتهدج وجهه بغتة كما لو أنه ينتحب) أشعر كما لو كنت أسير على ارض مطلية بالصابون . إني أتزحلق .

الغريب ـ وددت دائماً أن تفر مني

يوسف ـ (خائفاً) في نهاية المنحدر ماء مغلي

الغريب ـ (باسماً) بدأت تتعرفني

يوسف لا أدري (مرتبكاً) اني مضطرب كثيراً .لاريب أن ضجة الحذاء هي التي اجتذبتك إلي .

الغريب ـ ضجة الحذاء ؟

يوسف ـ طاق طاق طاق . قلت لوالدي مراراً أكره أن تتبعني مظاهرة الاصوات هذه .

الغريب ـ يالك من ساذج ! (بعد تمهل) بل سمعت عواء في جيبك

يوسف ـ (شارداً) أي عواء ؟ ! (ببساطة حزينة) آ ... لكنه ميت .

الغريب ـ حقاً ؟ !

يوسف ـ (ينثال في الشرود الحزن) قتل الخضري ذوالشارب السميك كل الكلاب (الحزن أعمق) كان كلباً حقيقيا . جلده بني وعيناه حمراوان كفوهة التنور المشتعل .

الغريب ـ (بقسوة) كان ينبح بضراوة شديدة .

يوسف — ضراوة لذيذة ومبهجة . وكان الليل الهادىء الاسود يتمزق .

الغريب — (بنفس القسوة) أخوك يخاف نباحه ، ويصرخ باكياً حين يسمعه .

يوسف — وكانت أمي تحتضنه بحنان (الغريب يضحك) تمنيت أن أطعم الكلب كسرة خبز (الغريب يضحك) كنت سأمسح على ظهره ، وهو يفتق الهدوء بنباحه الدهش . (الغريب يضحك) لكن الخضري أطلق الرصاص عليه . أرأيت الثقب الذي انفتح في خاصرته . (الغريب يضحك) كان يعوي بألم ورعب . (يهتز الضوء . بعد برهة صمت) سأتركك الآن . اني لا أحب الضحك .

الغريب — (لهجته جافة) لا تستطيع . .

يوسف — أتقول لا أستطيع . .

الغريب — (حازماً) نعم .. (لحظة صمت ، ثم يخرج حبلا قصيراً ، أملس من صدره)

يوسف — (مرتجفاً) ما هذا ؟ ثمان ؟ (يتراجع قليلا الى الوراء)

الغريب — (بدون اكتراث) انه حبل متين .

يوسف — ستربطني ؟

الغريب — ممكن . .

يوسف — لا .. لا . (يتراجع .. الغريب يتقدم) لا .. لا

(يشحب الضوء كثيراً ، حتى يصعب تمييز الشخصين ، بينما يدنو المطبط قليلاً ، فتتبينه آذان النظارة . بعد لحظات قصار ينحسر المطبط ، ويقوى الضوء . تماماً في اللحظة التي تدخل فيها ناديا الى بقعته .. في البدء تكون كالشبح ، ثم لانلبث أن نتميزها ، فاذا هي امرأة جميلة ذات وجه شاحب متناسق ، وعينين سنجابيتين يلمع فيهما حزن شامل وعميق . تحدق الى الغريب بتركيز عاتب ومشمئز ، فيهز رأسه ، وينحدر متبدداً في الظلام .)

يوسف ـ (محلقاً فيها بانشداه) أوه .. ناديا

(تنظر ناديا اليه ، وعلى شفتيها تترقرق ابتسامة عذبة وكئيبة .)

يوسف ـ الحمد لله أنك جئت . كان يفزعني وينمل جلدي .

ناديا ـ (صوتها أعذب من أي شعر بشري) ايها الحبيب الطيب

يوسف ـ (متلهفاً) ناديا ..

ناديا ـ يارفيقي الامين

يوسف ـ وإذن كنت

ناديا ـ نعم .. نعم يا يوسف .

يوسف ـ (مغتبطاً) .. هل ارتعشت يدك حقاً

ناديا ـ (كالحالمة) وظننت أن الزجاجة ستسقط ، وأطير

يوسف ـ كانت يدك كعصفور بلا عش . وقد هزت ملامستها نياط قلبي .. وأحسستني أغيب في دوار عميق .. لذيذ (بخوف) أتراه رآنا ؟ كان واضحاً أنني اقترب منك كثيراً . وكانت يدي تلامس يدك ونحن نهيء الدواء .

ناديا ـ (بحزن) ليكن .. أشعر بنفور شديد منه .

يوسف ـ وأراه يأكلك يوماً بعد يوم

ناديا ـ اني تعبة

يوسف ـ عيناك تهمسان لي دائماً .. أعرف ذلك . يا له من شيطان . حين تحسنت حالته لم يكف لحظة عن الصراخ والتأنيب .

ناديا ـ وأسهر طيلة الليل

يوسف ـ كم احب ان انظر اليك دائماً .. آه .. ما أعذب السهر حين يملأ وجهك عيني .

ناديا ـ أنت من أحب

يوسف ـ (مغتبطاً) لقد انتظرت طويلاً

ناديا ـ (مقتربة منه) كان يجب أن تعلم

يوسف - احببتك منذ ذلك اليوم الذي خطبتـــك له . كنت هادئة الاشراق .. جميلة كالفجر البازغ .

ناديا - أوه .. (تقترب اكثر)

يوسف - لكنه من تزوجك (بعنف) كان ينال دائماً كل الاشياء الجميلة ..

ناديا - أنت طيب.. رائع (لحظة صمت) أحب حكاياتك ووداعـــة وجهك (تمسح على شعره) لقد احببتك دائماً .

يوسف - وهو يعذبك مع هذا

ناديا - (ممتعضة) ويخنقني ايضا بانفاسه الكريهة . (صمت قصير ثم بجذل) أما انفاسك ففيها عبير الشجر الاخضر . كأنك لست اخاه (ووجههـــا يتدانى من وجهه) لكم يبهجني الشجر الاخضر .

يوسف - (لاهثاً بالنشوة) هل ستكونين لي .

ناديا - (هامسة) لك وحدك

يوسف - وسأقبل عينيك مرة ومرة ، حتى انظفهما من الحزن .

ناديا - وننزل سوية ثوباً ابيض .

يوسف - (ضاحكا) لا أعرف شغل السنارة

ناديا - سأعلمك ..

يوسف - (بانبهار شهوي) وتتلامس ايدينا كثيراً . (يمسك يدها) وتطمئن العصافير الى اعشاشها .

ناديا - (متراخية بالتذاذ) يدك دافئة وقوية .

يوسف - (يعض شفته السفلى بانفعال شديد وبعد هنيهات يهمس مصمماً) وسأغمض عينيه باحكام .

ناديا - صحيح !؟

يوسف - سترين

نادیا ـ (متحككة به) قل لي كيف ؟

يوسف ـ اني أتقن صناعة الدبق . علمنيها أبي وكنت بارعاً . أما هو فلم يتعلمـا رغم سهولتها . للدبق أفعال مدهشة .

نادیا ـ اني أثق بك ياحبيبي (يضغط على أصابعها) يدك دافئة وقوية .

(تضمه ، ويغرقان في قبلة هادئة . ينطفىء الضوء برهـة قصيرة جداً ، ثم يتسرب ثانية وقد صار المنظر شبيهاً بمطبخ بلا تفاصيل . كل مايبدو وابور كاز ، ومقلاة ، وبضع أوان . وليس ثمة حيطان فجأة ينتزع يوسف نفسه من ذراعي المرأة ، وهو يدفعها بحنق ، نرى وجهها متغيراً . لقد فقدت بعض نضارتها ، واصبح أنفهـا أطول قليلاً ، والفم أوسع واكثر ارتخاء . أما القامة فما زالت بلا تغير . تعبيرها العام التأنيب المشوب باللا اكتراث .)

يوسف ـ (غاضباً ، وهو يتحاشى النظر اليها) لايامامه . لايحق لك أن تفعلي ذلك معي (فترة) يارب كيف خطر لك أن تخدعيني على هذا النحو الأليم .

الأم ـ (صوت محايد يميل الى الجفاف) هل خدعتك ؟

يوسف ـ بالتأكيد . والا ماذا تسمين هذا ؟ لقد ظننتك ..

الأم ـ (مقاطعة بقسوة) انك لم تنظر جيداً .

يوسف ـ وحق الرب (يتوقف فجأة بيأس) ولكنك كنت دائمـاً تحبينــه أكثر مني .

الأم ـ (بافتتان) وأنت تحسده ، سوف أؤدبك لوحاولت ايذاءه .

يوسف ـ ليس اا ..

الأم ـ (حازمة) أقول لك احذر فأنا أراقبك جيداً .

يوسف ـ هذا أنت . تحصينه دائماً باللعبة الغالية . أما انا فنصيبي اللعب الرخيصة .

(خشن اللهجة) لماذا طردتني تلك الليلة ؟

الأم ـ (لامبالية) تلك الليلة .. تعني من الفراش .

يوسف ـ أجل من الفراش ؟ كنت أريد ان انام عندك . .

الام ـ لم تكن مريضاً

يوسف ـ ولكنه يظل مريضا . انه لايغادر الفراش حتى يعود اليه . وانت دائماً تتفانين في تدليله . وتلبية كل مايحلو له .

الام ـ (بحنان) ابني الساحر .. له قوام الزجاج الثمين .

يوسف ـ (بغصة) لماذا .؟ لماذا .؟

الام ـ ألا يحكي لك ابوك الحكايات الطويلة (ضاحكة) واذا شئت قل له ان يغني لك ، وينام الى جوارك .

يوسف ـ أماه ... أحب صوتك أنت (بالحاح) أريدك ان تغني لي (لحظة صمت) آه ... سوف أتذوق أغانيك أكثر منه .

الام ـ أف .. دعني الآن .. ينبغي أن أعد له طعاماً . لابد أنه جاع .. وأنا أضيع الوقت في الهذر الفارغ . اتركني أعد له غداءه . (تمد يدها الى المقلاة)

يوسف ـ (بتصميم مألوم) نعم سأتركك .

(ينطفىء الضوء ، ويقترب الشخير عنيـــداً .. رتيباً ، فيغطي المسرح . بعد دقيقتين ينسل شعاع ساطع في مؤخرة اليمين كاشفاً عمـــا يشبه البيداء . تلال رمل أسمر . ونفخ ريح ملول . يظهر يوسف وقد بدا عليه التشتت والخوف) .

يوسف ـ (ببطء فزع) الرمل جاحم من نار . ما أحره . غير أنه مأمون (يجيل النظر حوله) اين الحمار الذي كنت اراه . حمارنا ذو الاذن المصلومة. (بدهشة حذرة) لعلني خدعت . ربما كان شركاً . والطريق الاسود ؟ لعنة الله على الرمل الذي يبدد كل شيء حقيقي .(نفخ الريح يتماوج كالصدى) أهي ضجتهم ؟ (يصيخ السمع) كنحيب الف امرأة متشحـــة بالسواد ! قال انها .. لماذا تأخرت ؟ الا تعلم انني سأضيع . (فـــترة صمت)

ستحمل معها إبريق الماء المثلج . (يتمطّق) فمي جاف للغاية . والرمل ساخن كالسمن المغلي . لعنة الله على السمن .

(يظهر الغريب ذو الهيئة العجيبة وهو يتقدم من خلف يوسف . عيناه ازدادتا تجوفاً . يربت على كتف يوسف لينبهه) .

يوسف - (يقفز مرتعباً ، ويلتفت اليه) أنت (١) ؟!

صدى موحش - نت (الغريب صامت)

يوسف - كيف عرفت ؟

صدى موحش - يف عرفت ؟ (الغريب صامت)

يوسف - أكنت تقتفي آثاري ؟

صدى موحش - نت تقتفي آثاري ؟ (الغريب صامت)

يوسف - ما كنت أعلم (يتوقف)

صدى موحش - ا كنت أعلم (الغريب صامت)

يوسف - (بانزعاج) هل رآك أحدهم وأنت تتبعني ؟

صدى موحش - ل رآك أحـدهم وأنت تتبعني (الغريب صامت)

يوسف - (بعد صمت قصير. بعنف) قل لي بربك ماذا تريد مني ؟

الغريب - (يقهقه باحتقار) ها أنذا أظفر بك وحيداً .

يوسف - (بخوف) أبحث عن نبع صاف . إني عطشان .

الغريب - (نفس القهقهة) جفت كل الينابيع .

يوسف - ماشأنك بي ؟

الغريب - سأعرف هذه المرة كيف أقيدك بالحبل المجدول ، وأرميك في كهف مظلم

يوسف - (راجفاً) وتدلهم علي .

الغريب - طبعاً . وسيرافقهم شيطانان صغيران

---

(١) يتم القاء الاسئلة بسرعة لاهثة ...

يوسف – شيطانان ؟ لم أر شيطاناً من قبل . أنت تسخر مني بشكل تافه لايتفق والروح الانسانية .

الغريب – (ضاحكاً بتشفٍ) ستجرب .. ستجرب . لكل شيطان جمجمة عناقيد من الانياب . وفي كل عنقود الف ناب . وستنغرس في جسدك كل هذه الانياب الجائعة .. الماصة الدم .

يوسف – ويلي (يدور في مكانه ضائعاً) لايحق لك . لايحق (مفكراً) اسمع انها ستنقذني .

الغريب – لاأحد يعرف مكاننا .

يوسف – (شعور بالانتصار) بل تعرف . ستأتي . أؤكد لك انها ستأتي .

الغريب – فلأعجل اذن .

يوسف – يارب (صمت .. فجأة وكأنه يجرب فكرة) لاشك أنك تظن .

الغريب – أظن ؟ ألم اكن موجوداً ؟

يوسف – (مذعوراً) كنت موجوداً . لاتحاول الايقاع بي . لم ألحك مطلقاً .

الغريب – هذه مصيبتك . تريد دائماً أن تنسى .

يوسف – (مغتاظاً) لاأريد شيئاً . اني لاأريد شيئاً . آه اعطني بعض الماء فقط .

الغريب – واذن تريد بعض الماء . (يمد يده الى صدره، ويخرج حبلا قصيراً ومتيناً في رأسه مخلب حديدي) .

يوسف – (ملذوغاً) الحبل ؟

الغريب – وفي رأسه مخلب متين.

يوسف – (بضراعة) دعني . . (ملتفتاً) ليتها تأتي قبل أن ..

الغريب – لن ينقذك بعد شيء (في احتقار) كانت فعلة لئيمة لايفعلها انسان ولد من بطن امرأة . منذ زمن طويل كان يجب ألا أفلتــك . وفخ الثعالب كان ينبغي أن أنصبه لك .

(يقترب منــه ، وعلى وجهه تعبير مزيج من الغضب والازدراء والسادية)

يوسف – (متراجعا) انك تعذبني

الغريب – مازلنا في البداية .

يوسف – طيب حاول أن تلحق بي

(يركض بحميا مهووسة ، ويقهقه الغريب . يبتعد يوسف قليلاً ، ثم يتعثر قليلا فيسقط على الرمل متأوهاً . ينطفيء الضوء ، ويتموج شخير لاهث لامنتظم . بعد قليل يسيل على مقدمة اليمين ضوء شاحب . إننا على حاشية البيداء . فهنالك بعض الشجيرات اليابسة . والأنقاض القديمة . يوسف يزداد تعباً ، ولا يزال يتلفت حوله بانزعاج وجزع .)

يوسف – اصبح بعيداً . لقد نجوت (حسرة) بيد أنني ضائع .. تائه (يبصق) وقد رآني رغم كل الاحتياطات . أف .. (تظهر ناديا حاملة بيدها إبريقاً من الفخار .. الكآبة غائرة أكثر في عينها وملمح وجهها . تبتسم ابتسامة ساحرة ومرهقة كأنها تتكشف غب شهور من المرض والعناء) .

يوسف – (بفرح وحشي) تخيلت انني فقدتك . (بشغف) ناديا .. ناديا . (مكفهراً) لو أسرعت اكثر . لقد تبعني حتى آخر الدنيا . أكاد أجن . لايعرف المرء له شكلاً وهو يظهر فجأة كما يختفي . لكنه سرعب كزار الشيخ عون في مدلهم الليل . يقولون ان مجنونة تسكن هناك . وانها تنام عارية على أشجار البلوط . ياحفيظ .. يارب !. (يرى الابريق فيختطفه من يدها) ياحبيبتي .. كم اشعر بالعطش . (يضع فوهة الابريق على فمه . لاماء .. بخيبة فظيعة) انه فارغ .. ناديا ليس به ماء . أين نثرت ميـــاهه ؟ (ينظر في داخله ، ثم يلقيه على الارض بغضب ، فيتناثر هشيما) لوتعلمين مقدار عطشي . هل غسلت بالماء يديك .

ناديا – (بهدوء حنون) مسحت به الرغوة التي طوقت فمه .

يوسف — الرغوة ؟

ناديا — كانت صفراء مدماة (برهة) وضعت له كمية تقتل فيلا .

يوسف — أردت السرعة . وقد ساعدنا الحساء على مضاعفة الكمية .

ناديا — نعم .. كان يحب الحساء . ولم يتأخر . قال ان طعمه غريب . ثم صمت .

يوسف — رحل أخيراً .. رحل .. ولن تجد بعد من ينام في حضنها .. سيجف حضنها ويصير كقصعة الفخار المفحمة .

ناديا — (بدون استثارة) ما اشتهاه حضني قط .

يوسف — حضنك أنت . لا .. لا .. أعرف ياناديا .. أعرف . مذ كانت تلتقي عيوننا عبر السرير . ليس أنت . آه .. بوسعنا الآن أن نتبادل النظر دون خوف . هل أسبلت جفنيه ؟

ناديا — نعم ..

يوسف — لولاك لكنت نسيت . (بفزع) والجثة ؟

ناديا — الجثة ؟ بقيت على السرير .

يوسف — لها شميم كريه ومقيء ياناديا .. كيف سننام معنا ؟ ذلك مزعج ، وستفسد رائحة شعرك .

ناديا — نضعها على السقيفة بين اللعب القديمة .

يوسف — كم كانت تشتري له لعباً جميلة !

ناديا — الجثة ثقيلة .

يوسف — وقد تنبثق منها نافورات صفراء .

ناديا — (بحزن عميق) وبتسخ شرشفنا الابيض .

يوسف — اشعر بالخوف ياناديا .

ناديا — اعددت كل شيء باتقان . كان الزرنيخ قوي التأثير .

يوسف — (ساهياً) له وجه غريب مزعج

ناديا — سأمزق وجهه

يوسف - صحيح ؟ ياليتك تعملين ! ولن نفترق ابداً .

ناديا - إني لك .

يوسف - وستسقيني

ناديا - كنت دائماً لك .

(يمسك بيدها ويلثمها)

يوسف - إنها رطيبة .. طرية كالماء (يمتصها بتلذذ بطيء)

ناديا - إني سعيدة ..

(يقترب منها ، ويطوقها)

ناديا - (مغمغمة) وهطلت السماء عصافير ملونة

يوسف - ما تقولين ؟

ناديا - احبك يايوسف ..

يوسف - ياحبيبتي الرائعة (يطوقها بحرارة اكثر ، ثم فجأة يبتعد عنها متزعجاً ، وينصت) أتسمعين ؟

ناديا - ماذا ..؟

يوسف - (يرهف سمعه ، وتقف أذناه) تا .. تا .. تا .. تي .. تا .. تي .. تا تا تا.. لست ادري

ناديا - (تحاول أن تسمع) لاشيء .

يوسف - كغناء جوقة من الاطفال .

ناديا - الخوف ؟

يوسف - (نافضاً رأسه) بلى .. الخوف . لابد انه الخوف .

(يعود فيطوقها . بينت في مقدمة المسرح نصب قبر .. يبذل جهداً - للاستغراق في تطويقها ، بيد أنه يتأوه ويبتعد ، ليصغي من جديد)

يوسف ـ طنين‌لعين. انتبهي .. تا تا .. تي .. تا .. تي .. تا .. تا .. تا (تهز ناديا كتفيها بدون اكتراث) إني لا اكذب. يجب ان‌تصدقيني.. صدقيني‌ياناديا. (تسير) أين تمضين ؟ (برعب) ناديا اين تمضين ؟

ناديا ـ (هادئة النبرة) الى البحر .

يوسف ـ بحق الله لاتذهبي .

ناديا ـ (هادئة النبرة) البحر واسع لايخاف .

يوسف ـ طيب . خذيني معك

ناديا ـ إذن أسرع

(يبذل يوسف جهداً ضارياً لتحريك قدميه ؛ فلا يستطيع)

يوسف ـ قدماي يا ناديا .

ناديا ـ (مبتسمة) أعلم . . أعلم (تمضي لا مبالية)

يوسف ـ لا تتركيني يا ناديا . لا أستطيع التحرك بعد . قدماي ساقا شجرتين ميتتين . (تختفي ناديا وتنبت قبور أخرى معشوشبه في المقدمة وبينها تتناثر زهور « مؤنس الغرباء ») آه . ماذا يحدث لي يارب ؟ (يحاول أن يسير ولكن عبثاً .يستسلم فيما تجحظ عيناه) تخشبت ساقاي وما عدت أستطيع حرا كاً ، ناديا رحلت . وسربما سيباغتني . أوه .. ما العمل يا الله؟ يرمق ما حوله بعينيه الجاحظتين) قبور ؟ ! أأنا في المقبرة . هو ذا زهر «مؤنس الغرباء » بألوانه‌البنفسجية والخضراء والصفراء . ليرحمني الله . ما الذي أتى بي الى هذا المكان الرهيب ؟ (يتسع‌صيوانا أذنيه) الطنين . . الطنين كلا . . بدأ يتوضح .

(من بعيد يتناهى إنشاد جماعي مغلف بالبخور والابهام :)

مولاى صل وسلم دائماً أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهم

يمتزج بذعر يوسف فضول واصغاء . الانشاد يقترب نامياً . وفي

غضون برهات يدخل من أقصى اليسار جمع من الشيوخ الذين يرتدون جبّات بيضاء مقلمـــة بخطوط سماوية . ويغطون رؤوسهم بالعمائم . يتقدم رجل فقير . يحمل مقلاة تتصاعد منها أنفاس البخور المحترق ، الشيوخ ينشدون :

مولاي صل وسلم دائما ابدا
على حبيبك خير الخلق كلهم

شيخ - سبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم .

الشيوخ - سبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم

شيخ ثان - لا إله إلا الله . الدائم الباقي .

الشيوخ - لا اله الا الله . الدائم الباقي .

(يظهر خلف الشيوخ نعش يحمله رجل وامرأة

مولاي صل وسلم دائماً ابداً
على حبيبك خير الخلق كلهم

يخفت الانشاد متقلصاً الى صـــدى ، ويقترب النعش من يوسف المزروع في مكانه لا يريم حراكاً)

يوسف - يا ساتر . أبي وأمي يحملان الجثة . كيف عرفا ؟ آه . . . أريـــد أن أجري فلا أقف حتى الطرف الآخر من العالم . (يعاود المحاولة فيخيب) لافائـــدة (بضراعة خاشعة) انقذني يارب (تنظر اليه الأم بعينين حاقدتين يتطاير منهما الشرر . أما الأب فينغضي حزيناً .. مهدوماً) لاتنظري الي هكذا .. اسمعي . نظراتك الحارقـــة تقتلني . تطلعي بعيداً . (يصرخ) أقول تطلعي بعيداً ..
(الى أبيه) كنت تحبني ياأبت .

الأب - (بصوت مخنوق) تعيس أنت يايوسف .

يوسف - هو لم يتعلم شيئاً .

الأب – تعيس أنت يايوسف

يوسف – وكان ينال – مع هذا – كل شيء

الأب – تعيس أنت يايوسف

(يضعان النعش على الارض . والأم لاتكف عن التحديق الملتهب اليه)

يوسف – (بضراعة) أبت .. كنا نصنع عجينة الدبق معاً . ونصطادالعصافير سوية في البرية . ولم يكن ليفلت منا عصفور . كنت تقول : دبقنا مبارك .

الأب – تعيس انت يايوسف .

يوسف – (منقلا بصره بين الأب وعيني الأم المتقدتين) كلا .. لايمكنكما أن تفعلا ذلك .. أتسمعان .. لايمكنكما أن تكونا قاسيين الى هـذا الحد . (صخب مبحوح) اني اتألم .. اني خائف .. أماه

الأم – (متقززة) اخرس أيها النجس (تمد يدها المضمومة نحوه ببطء مهدد وغامض ، ثم تفتحها تدريجياً)

يوسف – (ملسوعاً وصارخا) امنعها ياأبت .. لا .. (تنطلق من قبضة الأم جرادة هائلة سوداء تهاجم يوسف في بطنه) أماه .. أبي .. الرحمة . امسك يدها ياأبي . اني لاأستطيع الحراك .

الأب – تعيس أنت يايوسف

(تنفصل جرادة أخرى،تهاجم يوسف في بطنه أيضا . يظهر جهدا جباراً لتحريك يديه فلا يفلح، يجرب تحريك رجليه دونجدوى)

يوسف – يداي . آي . . أبت (جرادات أخرى تهاجم بطنه)انها تنهش امعائي لاأستطيع التحرك .

(يرتفع الانشاد : مولاي صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهم)

يوسف – تتمزق امعائي. (ويجاهد بألم وهلع رهيبين . الا أن اطرافه لا تتطوع. كل مافيـــه جامد جاف الا لسانه . الجراد يتحول أسراباً تتدافع حول سرته) آخ .. آخ .. انهـــا تنحدر الى الاسفل . اماه . بالله الا كففت .. ابت .. ابت (الانشاد ،وعبارة الأب ، وصرخات يوسف، كلها عجينة واحدة . ولمجاهدته اللاهثة المحمومة ايقاع متعاظم يبدو في تلوي الجذع ، كأنه يود تهشيمه وفي تعبيرات الوجه الواخزة القظيعة .) آه .. اسفل بطني .. النجدة يا ابت (يتثنى موجوعاً الى اقصى حد ممكن) ابت .. الجراد ينهش اسفل بطني .. اسفل بطني ينقضم.. آخ .. ينقضم .. آخ .. النجدة .. النجدة

(يعم الظلام .. شخير مرتفع مذبوح ، يتداعى الى خوار ، فتنهد ، فصمت)

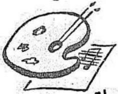
من الوراء صوت واهن يفح عبر الصمت والظلام :

— اللهم ! كفنا الشر

(ويسدل الستـــار)



الفنون



الكتاب والموضوعات

- المعلم الكبير بول سيزان

الدكتور سلمان قطاية

باريس —

- المغني الشاعر

حنين الحيري

يعقوب قوام منصور

بغداد —

المعلم الكبير بول سيزان

أو لايمان بالقوانين الموضوعية للبناء

للدكتور سلمان قطاية



الفنان بريشته

« أريد ان اصور عذرية العالم » سيزان

١ – سيرة الفنان

رفض الفنان الفرنسي بول سيزان ان يرضخ لقوانين المدرسة الانطباعية ومفاهيمها . لانه كان يريد ان يواصل البحث والدراسة كي يصل الى ماهيــة الطبيعة نفسها ، وان يسبر اغوار طلسم الجمال ، والسر الاكبر للابداع والخلق . كان يقول : « ان الحقيقة كائنة في الطبيعة وسوف ابرهن على ذلك » .

واستطاع بنتيجة ابحاثه ان يصل الى مرتبة عالية في تحليل عناصر الطبيعة الجمالية وأن يخلص الانطباعية من شوائبها . فتمكن من ادراك مواطن الضعف فيها ، واقام قواعد راسخة نهض عليها فيما بعد ، بنيان الفن الحديث كله . ويقول في ذلك المؤرخ والناقد الانكليزي

الشهير هربرت ريد « لكي نفهم جيدا مصادر الفن الحديث يجب قبل كل شيء ان نفهم الاهداف التي بحث عنها سيزان » .

* * *

ولد بول سيزان في التاسع عشر من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٨٣٩ في مدينة صغيرة في جنوب فرنسا اسمها : ايكس - أن - بروفانس . وكان والده لويس - اوغست تاجر قبعات ، لم يلبث بفضل جده وعمله ان نشطت تجارته وازدادت ارباحه ، فأصبح صاحب مصرف كبير يدر عليه الاموال الوفيرة ويؤمن له ولعائلته حياة رغيدة هنية .

نشأ سيزان وترعرع في تلك البلدة الصغيرة ، حيث تتلألأ أشعة الشمس الذهبية على الحقول الخضراء والمراعي الواسعة . ودرس الفنان في مدارسها وكان من زملائه في تلك الفترة الكاتب الروائي الكبير أميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) . وكثيرا ماكان الفنان الصغير والكاتب الفتى يقومان بجولات ونزهات في البلدة ومزارعها . تلك الرحلات التي وصفها زولا فيما بعد أبدع وصف خلال رواياته العديدة .

كان الفنان ولوعا منذ صغره بفن الرسم والموسيقى ، حتى انه شكل جوقة موسيقية صغيرة من رفاقه الطلاب وكان يعزف فيها على البوق بينما كان زولا يعزف على الفلوت . كما كان من ابرع الطلاب في الرياضيات والهندسة . ولكنه رغم ذلك فضل اجتياز فحص الدراسة الثانوية في شعبة الآداب فنالها بنجاح ملحوظ .

كان الفنان يحلم بدراسة فن التصوير في باريس البلد الذي طالما تشوق الى رؤيته والعيش تحت سمائه . وكان زولا قد سبقه اليها اذ توفي والده واضطرت امه ان ترحل الى العاصمة مع ولدها الذي كان لاينقطع عن مكاتبة صديق طفولته بول يدعوه بحرارة الى باريس ويحثه على الدراسة فيها .

ولكن احلام الفنان الفتى كانت في واد وارادة والده لويس اوغست في واد آخر . فقد كان هذا يريد من ولده ان يكون خلفا له في ادارة شؤون المصرف وتدبير اموره !... واضطر الفنان ان يتخلى عن حلمه وان يتابع الدراسة في كلية الحقوق بمدينة ايكس . ولكنه كان يعزف عن دروسه ، وكثيرا مايقضي الساعات الطوال امام الصفحة نفسها وهو غارق في احلام طويلة ذهبية لايوقظه منها الا صوت والده الذي يقول «ايها الولد فكر جيدا في المستقبل ، يموت المرء بالعبقرية ولكنه يأكل بالدراهم ! » . ولكن « الولد » كان يصر على العمل للفن ، فيرسم في الخفاء ، ويفشل في تحصيله ! بينما كانت اعمال الأب في ازدهار وانتشار . فاشترى قصرا منيفا قديما قرب البلدة .

واستفاد بول من سعة الغرف وعددها ، فاختار واحدة جعلها مرسما له يقضي فيه معظم وقته يصور ويعلق لوحاته على الجدران العالية العريضة ، بينما كان الاب ينظر الى تلك المحاولات شزرا ويتمتم بكلمات السخط والغضب المكبوت .

كان الفنان يزداد يقينا يوما بعد يوم بانه خلق لفن التصوير ولا لشيء سواه واعتزم اخيرا ان يكرس حياته للفن ويخلص له لوحده . فافضى بسره الى والدته التي اقتنعت بفكرته وتحمست شقيقته « ماري » لها .

وجاء الثلاثة الى الاب ليطرحوا الفكرة على بساط البحث والمناقشة ... فكانت عاصفة هوجاء دامت اياما الا انها انتهت لصالح الفنان اذ رضخ الاب ورضي ان يرسل ولده الى باريس لدراسة فن التصوير فيها مشترطا ان يتابع الدراسة الرسمية في كلية الفنون الجميلة .

وهكذا تحقق الحلم الذهبي وانطلق الفنان للقاء صديقه زولا والانغماس في جو باريس الفني ، وانتسب الى « اكاديمية سويس » ليستعد فيها لاجتياز فحص القبول في كليـــة الفنون . وتعرف في الاكاديمية على الفنان غليومان Guilloumin والفنان بيسارو الذي شجعه على المضي قدما في دراسته فكان بول يصغي الى تعاليم ونصائح بيسارو بسرور واعجاب . ويقول « لقد كان بيسارو بالنسبة لي كأب ، او مايشابه الاله » .

وتقدم الفنان الى فحص القبول ففشل فيه ! وكانت صدمة اليمة ولكنها كانت ايضا بداية سلسلة من الفشل المتواصل لدى الهيئات الرسمية ، كما كانت فرصة للأب ليعود فيقول لولده « ايها الولد !.. يموت المرء بالعبقرية ولكنه يأكل بالدراهم ! » . ورضخ بول وبدأ بالذهاب الى المصرف يوميا ليتمرن على الاعمال الحسابية !... دون ان يهمل فنه اذ كان يواصل الرسم في الخفاء . وفي تلك الفترة صور عدة لوحات كبيرة اهمها : « الفصول الاربعة » . تلك اللوحات التي اسماها فيما بعد بالتفاهات .

ولكنه لايلبث ان يضيق ذرعا بالمصرف وحساباته وبعالم الارقام ومشاكلها العويصة ، ويعاوده الحنين الى الفن ويجذبه الشوق الى باريس . فيصر على العودة ويذهب .

وفي باريس يلتقي من جديد مع صديقه زولا فيقومان بزيارات عديدة للمتاحف والمعارض . ويتعرف على زمرة الانطبـــاعيين : رينوار ، وبازيل ، وسيسلي . وينكب على التصوير ، ولكن لوحاته كلها في تلك الفترة تحمل طابع الرومانسية بقوة تعبيرها وعنفوانها . ثم يعود الى ايكس ثم الى باريس . ويظل على تلك الحـــال من التنقل والترحال . يذهب الى باريس فيلقى الصد ويعاني الصعاب فيعود الى ايكس ليستعيد شجاعته وحماسه ويعيد الكرة وهكذا .

وكان طيلة ذلك الوقت يواصل الانتاج ويرسل لوحاته الى المعارض الرسمية بانتظام ، كما كانت لوحاته ترفض بانتظام ! وفي عام ١٨٦٧ ثار غضبا على هذا الرفض الجائر فوجه احتجاجا رسميا الى مدير الفنون الجميلة دون جدوى !..

وعندما اعلنت الحرب عام ١٨٧٠ هرب سيزان الى ضاحية من ضواحي مدينة مرسيليا وتدعى الاستاك Estaque وهناك واصل اعماله بهدوء بعيدا عن ضجيج الحرب المستعرة ودوي القنابل ، وازيز الرصاص . وفي منفاه من العيش بعيدا عن المجاعة التي اجتاحت مدينة باريس اثر الحصار التي عانت منه كثيرا خلال تلك السنة الرهيبة سنة السبعين الشهيرة .

كان الفنان قد تعرف اثناء ذلك على فتاة تدعى « هورتانس فيكيه » كانت تعمل كنموذج له . فاصطحبها معه الى الاستاك وصادقها . فلم تلبث ان حملت ووضعت طفلا ذكرا اسماه « بول » وكان يخفي ذلك كله على عائلته وخاصة والده خيفة غضبه وقطع المرتب الذي كان يرسله اليه بانتظام !

وعندما انتهت الحرب ذهب بول وخليلته وطفلها الى مدينة « اوفر — على نهر الواز » وهي مدينة صغيرة قرب باريس . سكنها الطبيب بول كاشيه P . F . Cachet (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩) وهو من هواة الفنون واصدقاء الفنانين . وكثيرا ما كان يدعوهم الى داره لقضاء بعض الوقت وتصوير الطبيعة الجميلة فيها . وكان الفنان بيسارو لديه ، فالتقى الفنانان ومرت ببول فترة استطاع فيها ان يتعلم الكثير من المعلم بيسارو ، وان يتخلص من طريقته الرومانسية الاولى وان يأخذ عن الانطباعية الوانها الزاهية ولمستها الرشيقة .

وظل في تلك البلد سنتين وصور لوحات رائعة عديدة اشهرها :

« بيت المشنوق » و « دار الطبيب كاشيه » .

وبتأثير بيسارو تشجع سيزان فعرض عام ١٨٧٤ مع الانطباعيين في معرضهم الاول الذي اقيم في دار المصور « نادار » واقد اصر بيسارو على عرض لوحاته لايمانه بها وبمبدعها رغم معارضة الانطباعيين الاخرين .

ولكنهـــا استقبلت من قبل الجمهور والنقاد اشنع استقبال . فقد كانت مثاراً للضحك والاستهزاء والسخرية !

ولم يكن لتلـك الصدمات من مخفف ومعين سوى وجود بعض المحبين لفنه والمؤمنين برسالته امثال : الهاوي « فيكتور شوكيه » V . Choquet

وكان هذا موظفاً في الجمارك يقتصد من مرتبه الضئيل ليشتري لوحات ورسوم الفنانين .

وعندما رأى لوحات سيزان اعجب بها جدا جدا ورجى الفنان رينوار ان يعرفه عليه . وتعارفا فدعى شوكيه الفنان الى داره ليطلعه على مجموعته الفنية . وراح هذا يقدم للفنان لوحات دولاكروا

الفنان الروماني الذي كانا كلاهما من عشاقه واستغرقا في حديث محموم عن الفن والفنانين ، وانطرحا ارضا يتأملان اللوحات والرسوم ويتناقشان في سرور ، حتى اخذ منهما الحماس كل مأخذ فتعانقا والدموع تنهمر من عيونهما فرحا بالصداقة الوليدة ، واللقـاء السعيد . وتوطدت بينهما اواصر صداقة ظلت امـداً طويلا .

* * *

ويعود الفنان الى الاستاك ثم الى بونتواز الى جانب بيسارو . ثم يشترك في المعرض الثالث للانطباعيين فيلقى السخرية والهزء ، فتزداد رغبته في الانعزال ، والابتعاد عن الناس ، ويطلق صيحته المعتادة « ان الحياة مرعبة ! » .

ويزداد ترحاله وتنقله كما يزداد قلقه واضطرابه ، ويتفاقم جحود الناس ونكران النقاد لمواهبه . فكان كلما زار باريس يلقى الصد والازدراء . ولايجد المحبة والفهم والتشجيع الا من قلة امثال الطبيب كاشيه والهاوي شوكيه .

بينما كان يواصل دراسته للطبيعة وينتج الكثير من اللوحات ببطء وصبر متناه وعناد كبير ، يروي التاجر « امبرواز فولارد « A . Vollord » انه عندما صوره الفنـان ، وفي الجلسة الخامسة عشر بعد المئة ، قال هذا « الان اصبح القميص حسن الهيئة ! » . وذلك لان الفنان كان ينظر الى الطبيعة كمسألة رياضية بعد النظر والبحث فيها ، وكثيرا ما كانت تأخذه ثورة الغضب فينقض على لوحاته تمزيقا وتحطيما .

ودخل في مرحلته الثالثة: **التحليلية التركيبية فابتعد عن تعاليم الانطباعية كثيرا ، التي لم يعد يرى فيها الا البحث السطحي السهل .**

وكان الفنان قد شارف على الاربعين من عمره ، قصير القامة ، ربعها ، شديدة السمرة ذا جبهة ضيقة وانف معقوف ، ونظرة حادة ، وحركات عصبية سريعة .

وكان يتصف بالطيب والعفوية والبساطة . ولكن الصدمات المتتالية جعلت منـــه رجلا انطوائيا ، يحب الانفراد ويكره المجتمعات. فكان كلما اقترب منه امرؤ قال « **انه يريـد ان ينقض علي ليجعلمني موضوعاً للسخرية** »وكثيرا ما كان يعلن «**ان الحياة مرعبة** » وكان ، ببساطته الريفية ـ فقـد نشأ وقضى فترة طويلة من حياته في مدينة ريفية صغيرة ـ يظهر للناس في المجتمع الباريسي جلفا خشنا فظا ، يخشى من الناس حملة الالقاب والاوسمة ويتمنى كثيرا ان يحصل عليها .

وكان كلما زار باريس يذهب الى صديقه زولا « في منزله الفخم في « ميدان » احدى ضواحي باريس الجميلة . فقد اصبح زولا كاتبا شهيرا ذا منزلة فنية وادبية واجتماعية رفيعة ، وارتقى قمة المجد واصبح علما يشار اليه بالبنان .

وحاول « زولا » ان يدافع عن سيزان وان يقنع النقاد والمسؤولين بعبقريته دون جدوى . خاصة وان سيزان كان عنيدا لايتقبل النصح ولا التوجيه من اى كان . وبدا زولا نفسه يفقد ثقته وايمانه بسيزان واصبح يعتقد بانه فنان فاشل لا محالة بل انه لم يتورع انيكتب ذلك علانية فألف رواية اسماها « النتاج » . واتخـذ من شخصية سيزان بطلا لروايته اسماه « كلود لانتيه » واظهره كفنان فاشل ينتهي الى الاقتناع بذلك والانتحار !

وكانت صدمة عنيفة تحملها الفنان بصبر وجلد رغم انها كانت له الطعنة النجلاء في صدره ، خاصة وانها موجهة من اعز صديق ورفيق الطفولة ! فزاد ذلك من كراهيته للناس ورغبته في العزلة والوحدة . وانقطعت الصداقة بينهما حتى موت زولا .

وفي العام نفسه يعلن وضعه العائلي وعلاقته الحقة بالآنسة فيكيه الى والده . فيرضخ هذا مرة اخيرة ويتزوج بول ، ثم لايلبث الاب أن يتوفى في العام نفسه .

ترك لويس ـ اوغست لولده بول ثروة طائلة تقدر بالملايين سمحت للفنان بالعيش بهناء وسعادة وسعة من العيش حتى آخر عمره . فازداد حماسه ونشاطه وانتاجه . وقام بعدة ـ رحلات في سويسرا وجبال الجورا .

ولكن التعب يأخذ من صحته ، وتبدأ عوارض داء السكري بالظهور (عام١٨٩١) .

ويذهب الى غابة فونتينبلو قرب باريس فيصور لوحاته الخمس الشهيرة «**لاعبو الورق**» وبمجموعة « **المستحمات** » وبمجموعة « **جبل قديسة النصر** » .

وهكذا فخلال عشر سنوات (١٨٨٥ ـ ١٨٩٥) يصور الفنان اكثر من مئتين وخمسين لوحة .

ولكن في السنين الاخيرة من حياته ، وبعد جهد ونضال طويلين ،وعناد قوي ،وتضحية كبيرة ، تبدأ شهرته بالظهور ، ويبدأ الناس بالاعتراف بعبقريته .

ففي عام ١٨٩٥ ينظم التاجر « امبرواز فولارد » معرضا له ، فتثور ثائرة الجمهور ، والنقاد وكبار الهواة والفنانين يهرعون اليه ليتأملوا تلك اللوحات وليستخلصوا منها اروع النتائج واعمق الافكار .

ثم تتوفى والدته ، فيبيع قصر ابيه ويلجأ الى بيت متواضع بسيط يعيش فيه لوحده مع خادمة وفية تدعى مدام « ريموند » .

ويستمر في العمل والانتاج وتستمر شهرته في الذيوع والانتشار . فيشتري متحف برلين لوحة . ويصور الفنان « موريس دنيس M. Denis » لوحته « تقدير لسيزان » وفيها يظهر سيزان امام احدى لوحاته وقد التف حوله جمهور غفير من الفنانين الشباب يتأملون لوحته باعجاب ويستمعون لنصائحه باحترام بالغ .

وفي عام ١٩٠٤ تخصص الدولة قاعة بكاملها لعرض لوحاته في معرض الخريف ، ويهرع الفنانون والنقاد لتهنئته والاخذ عنه .

ثم يشترك في معرض الخريف لعام ١٩٠٥ وفي معرض المستقلــين ، وينهي لوحته الكبيرة « المستحمات » التي ظل يعمل فيها طيلة سبع سنوات .

وفي الخامس عشر من تشرين الاول من عـام ١٩٠٦ بينما كان سيزان يصور **« بيت جوردان » اذا بعاصفة تهب فيصاب باحتقان في رئتيه ويقوده احدهم على عجلة صغيرة وهو صريع الحمى والهذيان .** فتسرع مدام « بريموند » الطبيبة لاسعافه . ثم تدعو زوجته وولده بول ، ولكنه يقضي نحبه بعد اسبوع .

. . .

تعتبر لوحات سيزان ورسومه ذخرا فنيا وكنزا كبيرا تفتخر المتاحف بها ، ويتباهى بها الهواة ويتبارون في جمها .

ولقد بلغت اسعار لوحاته اقصى حد وصلت اليه لوحة زيتية حديثة . ففي عام ١٩٥٨ (تشرين اول) عندما بيعت مجموعة جولد شميدت في لندره ، وصل سعر لوحته **« التفاحات الكبيرة » مبلغ تسعين الفا من الجنيهات الاسترلينية ، ولوحة « الصبي ذو الرداء الاحمر » مبلغ مئتين وعشرين الفا من الجنيهات الاسترلينية وهو اكبر مبلغ عرفه تجار اللوحات الحديثة .**

ترك سيزان بعد وفاته حوالي ثمانمئة لوحة زيتية ، وثلاثمئة وخمسون رسما مائيا ، وعددا مساويا من الرسوم بالحبر والقلم .

٢ ـ اعمال الفنان

يعتبر سيزان معلما كبيرا واستاذا لاغلب الفنانين الذين جاؤوا من بعده . ولقد قامت احدى الصحف الباريزية عام ١٩٥٣ بتوجيه اسئلة لمختلف الفنانين الكبار امثال : ماتيس ، وفلامنك ، وبراك ، وفيللون ، فأجابوا « لقد بدأنا جميعاً من دراسات سيزان » .

نستطيع القول بأن لتطور اسلوب سيزان مر بثلاثة مراحل :

المرحلة الاولى : ماقبل الانطباعية « حتى عام ١٨٧١ »

وتمتاز بوحشيتها في التعبير وعنفوانها . كل لوحات هذه المرحلة مستوحاة من الخيال (كما كان يفعل الرومانتي دولاكروا) مثال ذلك : **لوحة « الخطف » وخاصة لوحته « اغواء القديس انطوان »** ورغم ان الفنان صور في تلك المرحلة عدة لوحات مأخوذة عن العالم الخارجي مثل : « الغداء على العشب » (١) و « الريفية » الا انها في الواقع رؤى داخلية محضة .



الشكل رقم (١) الغداء على العشب

(١) انظر الشكل رقم (١)

تلك هي اللوحات التي كان يسميها سيزان نفسه « تفاهات » ! اما من ناحية التقنية فهي في هذه المرحلة تقترب من اسلوب المعلم الواقعي الكبير « هونوريه دوميه » (١) الذي اهتم بالنور الشديد الموجه من طرف واحد وبالتضاد القوي بين القاتم والفاتح . كما انه بالغ كدومية في النسب التشريحية بل انه جاوزه فبلغ درجة « التحريف » او التشويه في سبيل التعبير .. التعبير النفساني وليس الشكلي كما سيفعل فيما بعد . هذا « التحريف » يذكرنا بما قام به من بعده التعبيريون (بعد فان جوج اي بعد عام ١٩٠٠) امثـال « رووو » و « كوكوشكا » و « نولد » حيث نرى توترا نفسانيا داخليا يدفع بالفنان الى هذه الدرجة من التعبير القاسي . ولا يعني هذا ان التعبيرية



تنحدر مباشرة عنه (**بل انها تنحدر عن الشكل رقم (٢) منظو طبيعي فان جوج)** الا انه اشترك مع فان جوج وجوجـان في رفض القاعدتين الأخيرتين **(احترام النسب التشريحية والايهام بالمكان)** من قواعد « انجر » الطبيعية .

وهكذا فهو في هذه المرحلة يعود الى « دولاكروا » الروماني من ناحية المضمون اي الأخذ عن الخيال والتعبير عن التوتر النفساني الداخلي ومن ناحية التقنية عن «هونوريه دوميه» اي التضاد القوي بين الفاتح – القاتم والتحريف حتى التشويه في سبيل التعبير .

---

(١) هو الفنان الفرنسي هونوريه دوميه ولد في مرسيليا عام ١٨٠٨ ونشأ فيها بين ابوين اميين . ثم رحل الى باريس حيث عمل كعامل بسيط في المخازن ولم يلبث ان اصبح رساما ماهرا جلب انتباه كبار الفنانين امثال : دولاكروا وانجر وبودلير . وكان جمهوريا محبا للحرية وناضل طويلا من اجلها . فاشترك في الحرب عام ١٨٣٠ ثم سجن عام ١٨٣٢ وحمل السلاح عام ١٨٤٨ وعام ١٨٧٠ . وكانت رسومه ذات صبغة واقعية ونقد لاذع . واسلوبه يعتمد على التضاد بين الظل والنور بشكل قوي بارز . وفي اواخر ايامـــه ضعف بصره فانزوى في ضاحية باريسية تدعى فالموندوا حيث توفي عام ١٨٧٩ .

المرحلة الثانية : مرحلة الانطباعية : (من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٨٧٧)

ذهب سيزان عام ١٨٧٢ الى « بونتواز » حيث كان بيسارو . واخذ عنه بسرعة مدهشة الركن الاساسي في تعاليم الانطباعية اي الالوان الصافية . وليس السبب ظاهريا ، كما قد يبدو لاول وهلة انما يتفق مع تطور اعمق في مفهوم فن التصوير بالذات لديه .

كان سيزان ، قبلاً يعتقد ان فن التصوير عبارة عن اعتراف بالعواطف والتعبير عنها او بصورة ادق : انه تحقيق الذات خلال اللوحة . ولكنه تأثر بواقعية الانطباعية كما يقول الناقد الفرنسي « فرانك الجار » : « كان واقعياً مثلهم بل اكثر منهم ، لأنه اراد ان يتخطى تلك الواقعية السطحية بان يذهب الى ابعد من ذلك الاحساس الضئيل » . لأنه كان يريد ان « يجعل من الانطباعية شيئاً متيناً ودائماً كما هو حال لوحات المتاحف » على حد قول الفنان نفسه .

فوصل الى مفهوم آخر الا وهو : لايوجد فن التصوير الا على نطاق المنظور ، المرئي من حيث الصبغة (**أي مجموعة الاشكال التي تؤلف اللوحة**) واللون . فالصبغة هي العنصر الايقاعي واللون هو العنصر اللحني .

او بتعبير آخر : على الفنان ان يكون ايجابياً موضوعياً وليس منفعلا خيالياً ... وايضا : يجب عليه ألا يفرض نفسه على الناظر معتبراً ذاته العنصر الأهم بل يجب أن ينسى نفسه امام موضوعية الأثر الفني . فيقول : « **لكي يتحقق التقدم لايوجد الا طريق الطبيعة ، فالعين تتكلم بالتماس معها** » ، ويقول ايضاً : « **اريد أن اصور عذرية العالم** » و « **يجب على الفنان ساعة الابداع أن ينسى كل ماصور من قبل** » وهو بهذا يتفق مع قول الفنان الانكليزي كونستابل « **عندما اجلس ، القلم والريشة في يدي أمام مشهد من الطبيعة فان اول اهتمامي هو ان انسى تماماً انني رأيت لوحة ما** » . . فهو اذاً (اي سيزان) يقترب من تعاليم « الجو » في نفس الوقت الذي تحرر به فن التصوير من التعاليم الاكاديمية واصبح عبارة عن كتابة خاصة بذات الفنان .

وفي هذه المرحلة بدأ مجموعة لوحاته عن « المستحمات » التي اهتم بها مدة طويلة من الزمن حتى نهاية حياته وفيها اهتم بالصبغة والتركيب اكثر من اهتمامه بالموضوع ذاته .

واهتمامه بموضوعية الاشكال قاده الى اختيار الطبيعة الجامدة والمناظر الطبيعية لأنها اكثر الاشكال موضوعية .

والخلاصة : اخــذ عن بيسارو الالوان الصافية ، ولمسة الريشة فقط . بينما اتبع سبيلا

آخر بحيث يمكننا القول : ان لوحاته في تلك المرحلة وخاصة « البيت المشنوق » تعاكس تماماً مفاهيم الانطباعية .

المرحلة الثالثة : ما بعد الانطباعية او المرحلة البنائية التركيبية (من عام ١٨٧٨ حتى ١٩٠٦) عمدت الانطباعية الى المنظور الخطي (طرقات ، انهار .. الخ ..) بدلا عن المنظور الهوائي . ومن المعلوم انه للوصول الى البعد الثالث اي العمق حسب الطرق الطبيعية توجد طريقتان :

الاولى :

المنظور الخطي ؛ اي ان كل الخطوط الافقية تلتقي في نقطة واحدة في الافق على مستوى عين الناظر . فرسم طريق مثلا يبدأ من امامنا وينتهي في الافق نرسم خطين يبدآن من اسفل اللوحة ويلتقيان في نقطة تدعى : نقطة القرار .

الثانية :

استعمال التظليل . مثلا : نرسم دائرة ثم نظلل بالتدريج بالقلم الرصاص ، بادئين من طرف ومنتهين في طرف آخر . فاذا بالدائرة تصبح كرة . (اي المساحة تصبح حجماً) . هذه الطريقة :

التظليل بالتضاد قاتم ــ فاتح ، رفضها الانطباعيون اذ استعملوا الالوان الصافية الحارة . واعتبروا الظل لونا بدل ان يكون درجة لون Ton اي لونا صافياً ممزوجاً مع لون آخر لجعله اكثر قتامة او اكثر وضوحاً .

الا ان سيزان رفض الطريقتين . فوقع طبعاً في مأزق .. لكن عبقريته اسعفته فأوجد طريقة اخرى للوصول الى العمق الذي لابد منه . يقول سيزان : « ان الطبيعة كائنة في العمق اكثر منها في المساحة » وهكذا فقد وصل الى طريقة خاصة اسماها « تنغيم Modulation » .

لنفرض انه يريد تصوير سطح ما ، فبدل ان يضع (كما هي الحال لدى الانطباعيين : بيسارو مثلا) على السطح لمسات خشنة عريضة فهو حول هذه اللمسات الى مربعات صغيرة ، كل مربع بلون السطح نفسه انما على مدرجات منه (**قاتمة او فاتحة حسب توزيع النور**) وهذا المربع مؤلف من ضربات سريعة على شكل خطوط مستقيمة متوازية قصيرة تأخذ اتجاهات مختلفة (١) .

فعند « الجر » كان التظليل يتدرج من الطرف القاتم للشيء حتى الطرف المنور ممــا

(١) انظر الشكل رقم (٣)



الشكل رقم (٣) منظر طبيعي

يضيف على الشيء منظراً اسطوانياً (اي المساحة تصبح حجما والدائرة تصبح كرة كما اسلفت) الا ان الحال لدى سيزان يختلف قليلا فهو يصل الى النتيجة نفسها اذ يعطي الشيء مظهر الاجسام البلورية ويقول سيزان « **يجب ان يظهر الشكل بالفرشاة** » و « **ان يظهر الحجم باللون** » . « **وانني ابحث لكي اصور المنظور بالالوان فقط** » .

وهكذا : ففي مدرسة الهواء الطلق Pleinairisme نجد ان النور والظلال مصورة بدرجات اللون وفي ـ الانطباعية مصورة بالالوان الصافية ذاتها ، ولدى سيزان : ملتحمة مع الاشياء بالذات .

واستفاد سيزان من لمسات الفرشاة في الايقاع اذ بدل ان يضعها حسب اتجاه النور فقط كان يستعملها (اي اللمسات على شكل الخطوط الصغيرة المتوازية المستقيمة) تارة افقية ،

انظر الشكل رقم (٤)

واخرى شاقولية واخيرة مائلة ، فيصل بذلك الى ايقاع حيوي هو من اهم صفات لوحاته .

اما توزيع المربعات نفسها فهو مبني على مفهوم التوازن : اي حسب محورين احدهما شاقولي والآخر افقي . واحيانـــاً يلون تلك المربعات بالوان متكاملة يوزعها حسب المحورين فيضيف على ايقاع الشكل ايقاع اللون ذاته .

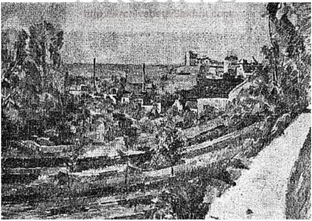
فكما ان الانطباعيين حولوا اللون الطبيعي الى « لون فني » لحني ، فقد حول سيزان الصيغةالبنائية الطبيعية الى « **صيغة ايقاعية فنية** » .

ولهذا فلوحاته **عبارة** عن **صيغة + ايقاع .**

وهذا هو.ما كان يريد ان يعبر عنه : **بالموضوعية في الطبيعة .**

والحقيقة ان ذات الفنان نفسها كامنة جداً في لوحاته رغم تلك الموضوعية الظاهرية فهو يقول : « **انني اشعر بالتطور المنطقي لما نراه ونشعر به في دراسة الطبيعة** » ويقول ايضاً : « **اما التقنية فهي ليست ، بالنسبة لنا ، سوى وسائل بسيطة لكي نجعل الجمهور يشعر به ثم يقبل ذلك** » .

اذن فقد اهتم سيزان : بالصيغة البنائية الموضوع واتجه نحو الطبيعة ليكتشف تلك الصيغة.



الشكل رقم (٤)   الاستاك ١٨٧٨ — ١٨٨٣

وبالطبع فان استعمال المربعات المختلفة الالوان يؤدي الى البعد الثالث اي الحجوم (المكعب) ففي كل لوحة لسيزان نجد : خطاً مسطحاً ، مكعباً ، لوناً . وزاد اهتمام سيزان بهذه الصيغة البنائية الهندسية حتى قال : « **اريد ان اعالج الطبيعة بالاسطوانات والكرات ، والمخاريط** » وهكذا : لم يبق سوى خطوة قصيرة حتى نصل الى التكعيبية . توفي سيزان عام ١٩٠٦ واذا بيكاسو ينادي بالتكعيبية عام ١٩٠٨ وهي التي طبقت المعادلة السابقة نفسها من : خط ، وسطح ، ومكعب ، ولون . انما حذفت اللون وبالغت في الامر حتى عكسته على قول جوان جري J. Gris (١٨٨٧ - ١٩٢٧) الفنان التكعيبي : « **انني ارى الاسطوانة فارسم زجاجة** » بمعنى ان الصيغة البنائية هي الام في اللوحة : فيضعها الفنان في لوحته او في مخيلته قبلاً (الاسطوانة) ومن ثم يبحث عن الشكل الطبيعي المناسب لها (زجاجة) . وفي هذه العملية نوع من التجريد لذا فان التكعيبية تعتبر تجريداً من الدرجة الثانية . وكانت اعمال سيزان للاسباب نفسها مصدراً للتجريد البنائي الصرف الذي يتمثل في اعمال الفنان الهولندي « بيت موندريان » (١٨٧٢ - ١٩٤٤) .

ثابر سيزان على طريقته . الا انه بعد عام ١٩٠٠ بدأ يضع الوانه على اللوحة بطبقة شفافة رقيقة بدل ان تكون كثيفة كما كان الحال قبلاً متأثراً برسومه المائية العديدة . (١)

ومن هنا اخذ الفنان الفرنسي «روبير دولوني» R. DELAUNEY (١٨٨٥-١٩٤١) طريقته المسماة : « اورفيه » وهي عبارة عن نوع من التكعيبية الملونة بالوان شفافة حارة وذلك عام ١٩١٢ .

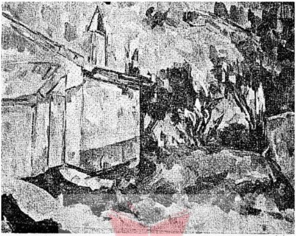
بدأ سيزان عملاً ضخماً وتوصل الى اكتشاف رائع . ولا يزال الفنانون حتى اليوم يواصلون ما بدأه معلم مدينة « ايكس » .

فالفن المجرد البنائي ينحدر عنه وكل اولئك الفنانين الذين يبحثون عن اسرار الجمال خلال البنية الهندسية المادة (في البلورات مثلاً) يتابعون عمل سيزان . الشيء الذي نوه عنه « كونستابل » في رسالة له عام ١٨٣٦ : لقد اهتممت بمعرفة الفرق بين الفن الحقيقي والفن المتكلف . لكن اكبر الفنانين لم يتخلصوا تماماً من هذا العيب . ان فن التصوير عبارة عن : علم يجب ان يطبق كبحث عن القوانين الطبيعية .

وضمن هذه الشروط : لماذا لا يعالج المنظر الطبيعي كفرع لفلسفة الطبيعة بحيث ان اللوحات تصبح دراسات لها ؟ ...

---

(١) انظر شكل رقم (٥)



الشكل رقم (٥) **بيت جوردان ١٩٠٦**

وكأنما تنبأ المعلم الانكليزي باتجاه الفن نحو العلم وتأثير هذا عليه .

وكأنما كان سيزان باحثاً عن قوانين واسرار جمال الطبيعة . **فهو فيلسوف فنان .**

تلك رسالة سيزان ، وتلك كانت فلسفته والجديد الذي جاء به فزاد من ذخر الانسانية الجمالي ودفع عجلة الفن الى الأمام في سبيل البحث عن الحقيقة .





المغني الشاعر

حنين الحيري

كأني به حامل سلال الفاكهة في أسواق الحيرة وميادينها ، وموصل إضمامات الورود وباقات الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة ، وأصحاب القيان والمتطربين في منازل الحيرة ، ويصوغ التحيات ، متنقلا بين الدمى والرياض والغدران ، كما أنشد أبو الحسين علي بن محمد الأصغر الحماني :

بقلم يعقوب فرام منصور

بغداد —

كم منزلٍ لكَ بالخَوَرْ نقِ مايُوازى بالمواقف (١)
بين السَدير الى الغديـــر الى ديارات الأساقف (٢)
فمواقف الرهبان في أطمار خائفة وخائف
دِمنٌ كأنّ رياضها يُكسين أعلامَ المطارف
وكأنّمــا غدرانها فيها عُشورٌ في المصاحف

كأني به مع أباعره بظاهر الكوفة والنجف والحيرة ، حاضرة المناذرة ، مرتدياً الكوفية والعقال ، منتعلاً الخف الأحمر . متنقلا بين جانبيهـا الشرقي والغربي ، ألمحُ قوامه الرشيق ، ومحياه اللطيف ، وخفة روحه ، وأسمع صوته الطليق ، وانشاده الرقيق ، ونبرته الصافية الناعمة بلحنه الذي لااستطيع تمييز درجاته وصيغته الا اليسير منه :

أنا حنينٌ ومنزلي النجفُ وما نديمي إلا الفتى القَصِفُ
أمرَعُ بالكأس ثغرَ باطية مُترعــة تارةً وأغترفُ
والعيشُ غضٌ ومنزلي خَصِبٌ لم تَغْذُني شِقوةٌ ولا عُنُفُ

وها أنا أتخيله واقفاً بظهر الكوفة بقلنسيته الطويلة ، مع عوده وزامره ، يستقبل موكب هشام بن عبد الملك وعديله الأبرش الكلبي الوافدين بقصد الحج فلما عرض لهشام الذي استفهم عنه ، حمل مع عديل هشام والزامر في محمل على بعير يتقدم الركب ، وهو يغني بلحنه :

أمن سلمى بظهر الكو فــةِ الآياتُ والطللُ
يلوح كما تـــلوح على جفونِ الصيقل الخِللُ

(١) الخورنق من أشهر قصور المناذرة بالحيرة . انظر القصيدة في (البصائر والذخائر) لأبي حيان التوحيدي ص ٢٠٢ــ٣٠٣

(٢) هذه الديارات بالنجف ظاهر الكوفة واول الحيرة ــ معجم البلدان ١٢٢/٤

ثم يترنم بشعر الأحوص من لحن ابن سريج :

صاح هــل أبصرتَ بالخبتين مــن أسمــاءَ نارا
موهنــاً شبّت لعينيــك ولم توقــد نهارا
كتلالي البرق في المز ن اذا البرق استطارا
أذكرتني الوصــل من شعري وأيامــاً قصارا

فظل هشام يستعيده ، حتى نزل من النجف ، فأمر له بمائتي دينار .

وها هو يبدو لباصرتي في حمص ، ملتمساً التكسب ، مرتاداً من يفيده ، سائلاً عن مجتمع الفتيان . فلما قيــل له : بالحمامات اذا أصبحوا ، دلف الى إحداها وألفى طائفة منهم ، أنس بهم واخبرهم بغربته وغادر معهم الى مــنزل أحدهم . فلما أكلوا وشربوا ، قال لهم : هل لكم في مغن يغنيكم ؟ أجابوه : ومن لنا بذلك ؟ فقال : أنا ... هاتوا عوداً . فشرع في العزف والصدح ، مبتدئاً بأنغام معبد ثم بألحان الغريض ، ثم خفائف ابن سريج ثم أغانيه . فلم يفكهوا لغنائه ، ولم يطربوا له ، وكأنهم صم كالجدران . ولما سمعهم يقولون : ليت أبا منبه أقبل علينا ! همس في نفسه : سأفتضح اليوم بأبي منبه . فلما دخل عليهم ضالتهم المنشودة وكان شيخاً قدانتعل خفين أحمرين كالجمال، أطعموه وسقوه وبالغوا في الاحتفاء به، فخنس حنين الفحل رهبة منه ، وخشية الفشل والتقصير إزاءه اذ تناول أبو منبه العود ، وطفق يغني كلاما تافها ولحناً ضعيفاً :

طوب البحر فاعبري يا سفينة لاتشقّي على رجــال المدينة

فقال هامساً في نفسه : « لئن اصبحت هنا سالماً ، لا أمسيت في هــذه البلدة » . فلما أصبح ، شد رحله على ناقته ، واحتقب ركوة من شراب ، وبارح نحو الحيرة ، مردداً : (١)

(١) نفس المصدر

ليت شعري متى تخبُّ بيَ النا قةُ بين السدير والصنّين
مُحقباً ركوةً وخبزَ رقاقٍ وبقولاً وقطعةً من نونٍ (١)
لست أبغي زاداً سواها من الشا مِ وحسبي عُلالةٌ تكفيني
فاذا أبتُ سالماً قلت سُحقاً وبعاداً لمعشرٍ فارقوني

فخطر لي إذ ذاك معاصره معبد إمام المغنين، وقصته مع ذلك الشامي الذي لم يطرب لغنائه الراقي ، بل صفق بيديه طرباً ، وبرجليه حبوراً ، عندما غناه شيخ بصوت أجش قريضاً تافهاً ولحناً رديئاً ، حتى كاد السامع ان يخرج من إهابه ابتهاجا : ـ

سلّورٌ في القدرِ ويلي عَلُوه جاء القِطُّ أكلهُ ويلي علوه (٢)

وترميني حبيبة بالدراقن وتحسبني حبيبة لا أراها

وقلت لنفسي : لا معدى عن وجود فاسدي الأذواق في كل وقت وعهد، اذ لولاهم لانعدمت المقاييس،وجهلت مكانة الفن الاصيل ، والتفنن الرفيع والذوق الجميل . وما عرف قدر العندليب لولا الغراب . في هذا الزمان كذلك ، ثمة أناس يفضلون سماع : ـ

يا سمّاق يا سمّاق أكلي دهيني ما تنذاق

على انشاد فريد الاطرش الرائع من شعر حسين شفيق المصري : ـ

حدثيني عن الأماني مليّا ليس هذا وقتُ التجنّي عليّا
مهّدي بالرضى فبه لعليّ أبلغُ المجدَ والمكانَ العليّا

كما يفضلون الاصغاء الى :

---

(١) خبز الرقاق ما يزال معروفاً حتى اليوم بالعراق . النون : السمك

(٢) علوه تعني (عليه) بلغة أهل الشام قديما . انظر (الاغاني) المجلد الاول القسم الاول ص (٤٧) .

يا بنت الناس قتلتيني برمش العين جرحتيني

على انشاد محمد عبد الوهاب الرفيع من شعر الاخطل الصغير :

الصبا والجمال ملك يديك أي تاج أعز من تاجيك
نصب الحب عرشه فسألنا من تراها له فدل عليك

كما يؤثرون سماع الطقطوقة القديمة :

عليمتي عليمتي آه ياي العشق غيّر حالتي آه ياي

ولا ينتشون بغناء اسمهان العذب من شعر يوسف بدروس :

ياليالي البشر ياأحلى الليالي أين أنت الآن من ليل هواني
لم تعودي غير ذكرى في خيالي فأنا اليوم أقاسي من زماني

وهاهو يلوح لي في حضرة خالد بن عبدالله القسري الذي حرم الغناء بالعراق ، يخاطبه والعود مستور تحت ثيابه : « كانت لي صناعة أعود بها على عيالي، فحرمها الأمير ، فأضر ذلك بي وبهم . » فلما غنّاه حنين بلحنه وبشعر عدي بن زيد :

أيها الشامت المعيّر بالدهر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير

بكى خالد وقال لحنين : « قد أذنت لك وحدك خاصة ؛ فلا تجالسن سفيهاً ولا معربداً » . فعمل بموجب الوصية طيلة عمره .

وهاأنا أراه يصغي الى لحن ابن محرز يوم قدم الكوفة :

وحوى الزبرجد في نظمه على واضح الليت زان العقودا
يفصّل ياقوته دُرّه وكالجمر أبصرت فيه الفريدا

فنهض اليه وقال : « لك مني خمسمئة دينار ودع لي العراق وامض أني

شئت ، فانصرف لفتور همته وعزوفه عن معاشرة الملوك وايثاره الخلوة على كل شيء .

كل هذه المحات والأخيلة من عهد شبابه ورجولته . أما حين صار كهلا وهرماً ، فقد أورد ابو الفرج الاصفهاني ، بعد اسناد طويل : « .. حدثني شيخ من المكيين ، يقال له شريس ، قال : انا لبالأبطح أيام الموسم نشتري ونبيع إذ أقبل شيخ أبيض الرأس واللحية على بغلة شهباء ، ماندري أهو أشد بياضاً أم بغلته أم ثيابه ! فقال : أين بيت ابي موسى ؟ فأشرنا له الى الحائط ، فمضى حتى انتهى الى الظل من بيت أبي موسى ، ثم استقبلنا ببغلته ووجهه ، ثم اندفع يغني » شعر كثير بن أبي كثير السهمي بلحن معبد :

أسعديني بدمعة أسراب ... من دموع كثيرة التسكاب
ان أهل الخضاب قد تركوني ... مغرماً مولعاً بأهل الخضاب
فارقوني وقد علمت يقيناً ... ما لمن ذاق ميتة من اياب
سكنوا الجزع جزع بيت أبي مو ... سى الى النخل من صُفي السباب

أما خاتمته ، فقدسردها الأصفهاني عن سلسلة من الاسناد تنتهي الى عبيد ، حفيد حنين ، ذلك بأن اجتمع معاصرو حنين في الحجاز : معبد وابن سريج والغريض ، يتذاكرون امره ، فقرروا استزارته ووجهوا اليه نفقة السفر . فلما شخص اليهم،وخرجوا لملاقاته بجمع غفير وحشد كثير ، عرجوا على منزل سكينة بنت الحسين (ع) ، فأذنت بدخول الخلق إذناً عاما حتى غصّت بهم الدار وعجّ بهم السطح . فتنّاهم — حسب طلبهم — صوته : —

هلا بكيتَ على الشبابِ الذاهبِ ... وكففتَ عن ذمّ المشيبِ الآيبِ
هذا ورب مُسوّفين سقيتهم ... من خمرِ بابلَ لذة للشاربِ

بكّروا عليّ بسُحوةٍ فصبحتهم من ذات كوبٍ كقعْب الحالب
بزجاجةٍ ملءِ اليدين كأنهــا قنديلُ صبحٍ في كنيسة راهب(١)

فسقط الرواق على الجالسين من شدّة الازدحام، وقضى حنين تحت الهدم، فقالت سكينة (ع): «لقد كدّر علينا حنين سرورنا. انتظرناه مدة طويلة، كأنا والله كنا نسوقه الى منيته.»

لقد اختلفت الروايات في نسبه اذ قيل انه من قوم طسم وجديس وقيل من لخم. أما هو فيزعم: عبادي من بني تميم، وأخواله من بني الحرث بن كعب. وكنيته ابو كعب. واورد أبو الفرج: «كان شاعراً مغنّياً فحلاً من فحول المغنّين، وله صنعة فاضلة متقدمة. وكان يسكن الحيرة ويكري الجمال الى الشام وغيرها. وكان نصرانياً.»(٢)

أما مكانته في الغناء، فهو اول فحول مغنّي العراق، وقد وصفه الشعبي، في مجلس بشر بن مروان والي الكوفة، انه (بطة الاعراس). وقال اسحق: لم يذكر بالحيرة افضل من حنين المغنّي. أما غيره من مغنّي الهزج والنصب، فكانوا تافهين من غير الفحول، ولم تدون اغانيهم لانحطاطها.

يروي الاصفهاني عن اسحق ان حنيناً بن بلوع الحيري عمّر مائة وسبع سنين، لكني لا أميل الى تصديق هذه الرواية. ذلك إن سلّمنا بصحة قدوم حنين الى الحجاز وانهيار الرواق في منزل سكينة (ع)، فيُستبعد أن تكون سنه يومئذ قد نيّفت على المائة لاستحالة تحمّل مشاق السفر الطويل من قبل رجل يناهز هذا العمر، ولتهدج الصوت وتعكّره في مثل هذه السن لدى اي مغنّ

(١) يقال ان هذا الشعر لعدي بن زيد، وقيل لحنين ذاته
(٢) (الاغاني) المجلد الثاني القسم الثالث ص (٣٣٥)

مها كان نصيب بنيته من القوة ، وحظ حنجرته من النشاط والسحر والحلاوة . فأنا اميل الى الاعتقاد أنه كان دون المئة بعشر سنوات او عشرين سنة .

وحريّ بي ، في هذا المجال ، أن أقف وقفة المتحسر على كل تلك الالحان التي صدح بها معبد ، وأطلقها الغريض ، وصاغها ابن سريج ، وشدا بها حنين الحيري ، وترنم بها الموصلي وردّدها زرياب ، وعزفها أمهر العازفين واظرف العازفات في عصر بني العباس ، فضاعت ولم تدون أو تضبط بشكل يتيح لنا ترديدها واحياءها ، وتلاشت كالرياح الهابة على الهضاب والوهاد والفدافد . فثروة الشعر المغنى التي خلدها وصانها الأصفهاني - رحمه الله - في سفره النفيس تكاد أن تكون نظير الاجسام الخامدة وقد فارقتها الأرواح .



كتاب المعرفة



الحريـة

ومشكلتها في البلدان المتخلفة

للطبيب الدكتور منيف الرزاز

عرض وتحليل أديب اللجمي

تاريخ البشر كفاح متواصل ، يستهدف غرضين بآن واحد : تحرراً متزايداً من مختلف القوى التي تكبل الانسان ، وجهداً دائبا لمزيد من تفتح الشخصية الانسانية وتفجير طاقاتها المبدعة. انه كفاح على جبهتين معا ، ماانفك محتدما ، يتسارع ويزداد عنفا وشمولاً وعمقا — كما تشهده اليوم عند حوالي ثلاثة ارباع سكان الارض .

ان « قضية الخبز وقضية الحرية ، هما قضيتا الانسان في كل زمان ، وفي كل مكان . وحين يقول بعض المفكرين ان تاريخ الانسان هو نضاله من اجل الخبز ، وحين يقول البعض الآخر ان تاريخ الانسان هو نضاله من اجل الحرية ، فكلاهما يقول نصف الحقيقة ... والواقع ان تاريخ الانسان لم يخل يوماً ، من النضال من اجل هذين الهدفين الانسانيين الكبيرين . قد تمر مرحلة يبدو النضال فيها من اجل الخبز ، أي النضال الاقتصادي ، أشد الحاحا من النضال من اجل الحرية ، اي النضال السياسي . وقد تمر مرحلة تنعكس فيها شدة الالحاح ، ليصبح النضال من اجل الحرية مقدما على النضال من اجل الخبز. وانما يميل النضال الى هذا الجانب او ذاك بنسبة مايفتقد المجتمع من احدهما ، فاذا ما انتشر الطغيان السياسي ، وكمت الافواه ، وكبتت الحريات ، وصودرت الحقوق ، كانت الحرية اول مطلب من مطالب النضال . واذا ماانتشرت المجاعة ، وازداد البؤس ، وعم الظلم الاقتصادي ، وشبعت فئة من الناس على حساب فئة اخرى ، كان الخبز مطلب النضال » .

وحينما دققنا في اسباب واهداف الكفاح الذي نراه اليوم عند الشعوب عامة ، وعند شعوب « العالم الثالث » على وجه اخص (لانه في هذه البقاع من الارض بيّن واضح يتسم بالضراوة والعنف الدموي في معظم وجوهه ووسائله) وجدنا ان التحرر الاقتصادي والتحرر السياسي هما قوامه وموضوعه . فمشكلة الحرية هي في القرن العشرين مشكلة شعوب آسيا وافريقيا . انها قضية التحرر من الاستعباد والاستغلال .

« **لقد غادر الاستعمار هذه الاقطار ، حينما غادرها ، بعد ان اذاقها كل ضروب الاستغلال الاقتصادي، ورسم خط انتاجها وعلاقاتها الاقتصادية والاجتماعية حسب اهوائه ومصالحه ، وبعد ان اذاقها كل ضروب الاستعباد السياسي ، وحاول ان يخنق كل صوت فيها يطالب بالحرية او التحرر** » .

ولكن التحرر من الاستعباد والاستغلال لايقتصر على مجرد ازاحة الاستعمار . حقا ان نضال شعوب آسيا وافريقيا قد اتجه ، اول ما اتجه الى الخلاص من الاستعمار . الا انه امتد بعد تحقق هذه المرحلة ، الى السعي لتوفير الحرية السياسية والاقتصادية للمواطن والمجتمع .

. . .

الحرية التي ينشد الانسان تحقيقها ، تبلورت على مر التاريخ ، في نماذج كبرى ثلاثة :

ا — الحرية السياسية ، ب — الحرية الاقتصادية ، حـ — والحرية الاجتماعية .

وكل تقدم حققه الانسان في احدها ، او في مجموعها هو نصر للانسان ولحريته .

فالحريه التي يعنيها المؤلف في كتابه تتجلى :

« باتساع الامكانيات التي يقدمها التقدم الحضاري للاختيار في الفكر وفي العمل »

كما تتجلى : « باتاحة فرص الاستفادة من هذه الامكانيات للانسان ، بشكل يجعلها في متناول كل قادر على الاستفادة منها .»(١)

ما مكانة هذه النماذج الثلاثة من الحرية في عالم اليوم ، وما نصيب شعوب آسيا وافريقيا منها ، على وجه خاص ، وما درجة نضالها في سبيل الحرية ؟ تلك هي الموضوعات الكبرى لهذه الدراسة الطريفة القيمة معاً ، التي يقدمها الدكتور منيف الرزاز في كتابه : (الحرية ومشكلتها في البلدان المتخلفة منشورات دار العلم للملايين — الطبعة الاولى شباط ١٩٦٥) .

. . .

أما الحرية السياسية ، « فهي اساس الحريات قاطبة ، وهي اول الحريات الحديثة في الترتيب الزمني ، هدفاً ونضالا وتحقيقاً ، **لأنها هي التي تنظم العلاقة بين الفرد والدولة** (٢) »

وما بلغ النضال شدة وضراوة واستمراراً في مجال من مجالات الكفاح البشري ، مثلما بلغه في مجال الحرية السياسية . كما لم يبلغ التزييف والتآمر على وجه من وجوه الحقوق الانسانية مابلغه التزييف والتآمر على الحرية السياسية ، من التنوع ، والشراسة .

فكم من حاكم ، وكم من حكم ، وكم من نظام سياسي ، وأد الحرية السياسية في بلده باسم النضال في سبيل الحرية . ان تمتع الناس بحريتهم السياسية ، يعني تمكنهم من اقامة حكم ديمقراطي ، « حكم الشعب بالشعب وللشعب » تنتفي منه نوايا ونزعات التسلط الفردي ، والتحكم في رقاب المواطنين ، ومصادرة التفكير ، وقمع الرأي المخالف . وأول اسس الحرية السياسية ، حرية الرأي والتعبير ، والتضييق على حرية الرأي انما **يبدأ عادة من بداية واحدة : التضييق على مايسمى بالآراء الخطرة أو الضارة أو الهدامة . ثم ماتلبث السلطة الحاكمة — وقد تعودت الا تنقدها الآراء المعارضة في الخطوط الاساسية لسياستها — أن تضيق ذرعاً بما يوجه اليها من نقد حتى في الامور الجزئية ثم لاتلبث أن تذهب خطوة أبعد لتمنع حتى مؤيديها من حرية التأييد على طرائقهم المختلفة ، ليصبح التأييد مجرد ترديد لاقوال صاحب السلطة .**

وتكتمل حرية التعبير بحرية التكتل ، الذي « يمثل الانتقال من حيز الفكر الى حيز العمل الاجتماعي العام » فالتنظيم النقابي ، والتنظيم

---

(١) الحرية ومشكلتها في البلدان المتخلفة — ص ٢٩

(٢) المرجع ذاته — ص ٤٤

الحزبي ، والانتماء الى مؤسسات اجتماعية ، كلها انماط من حرية التكتل الذي يستهدف تحقيق أماني الجماعات المنتمية اليها ، كما يستهدف ايقاف تسلط الدولة عليها . ذلك ان اخطر اعداء الحرية السياسية هو الدولة ذاتها . فكلما ازداد طغيان الدولة على هذه التكتلات ، ليجعل منها تابعاً من توابع الدولة ، فقدت شخصيتها وفقدت مبرر وجودها الاساسي .

وقد تطغى الدولة على التكتلات الحزبية بأحد شكلين : فاما ان تلغي الاحزاب كلها وتمنع التكتل الحزبي ، واما ان تفرض على الشعب تنظيما واحداً اوحزباً واحداً مدعية ان هذا التنظيم اوالحزب يمثل الامة كلها . وهي في تبرير هذا تجد معيناً ضخماً من التبريرات تحاول ان تظهر به هذا الطغيان بمظهر الحرية . ان طغيان الدولة هذا يستتبع قيام الديكتاتورية . « فالحكم الدكتاتوري **هو الذي يهيء التربة الصالحة لانشاء جيل من المنافقين والانتهازيين ولوأد الكفاءات والمسؤوليات وأخلاق الرجولة ، ولنشر طرق الفساد ، وتخريب الضمائر ، وشراء النفوس ، ولكبت كل قدرة على المحاسبة والرقابة على مايجري في داخل الحكم ، ولتزوير ارادة الشعب دون خوف ولا خشية .»**

« ولكن في الديكتاتورية شيئاً أخطر من هذا كله . ان فيها ابعاداً للشعب وللقوى الشعبية عن تحمل المسؤولية في رسم المصير ، وتحميل كل هذه المسؤولية الدولة ، وبالتالي لحكام الدولة . ان أخطر مافي الحكم الدكتاتوري هو انه ينتهي بالشعب الى نوع من الملل ومن اللامبالاة ، والى الاهتمام بلقمة العيش ، والبقاء على الحياة ، دون اي هدف آخر من الاهداف النبيلة التي يعيش من اجلها الانسان (١) »

ولكن تطور الحرية السياسية لم يجر مستقلا عن تطور الحريات الاخرى . لئن غدا حق التكتل والانتماء الى المنظمات الشعبية والسياسية ، ثمة واقع لاسبيل الى نكرانه ، هو ان هذا الحق ، وهذه المنظمات تتأثر في وجودها ، في نسبة تمثيلها للمواطنين ، في مدى اسهامها في توجيه شؤون الدولة ، تتأثر في ذلك كله بعوامل اقتصادية تتعلق بسيطرة فئة من الناس على قوى الانتاج في الوطن ، وبالتالي على توجيه الحكم في الاتجاه الذي يصون هذه السيطرة وما يتمخض عنها من مكاسب .

ان الحرية السياسية يجب ان ترافقها الحرية الاقتصادية ؛ فنشدان **الديمقراطية** هو التعبير عن الاتجاه في طريق المزيد من الحرية السياسية . ونشدان **الاشتراكية** هو التعبير عن الاتجاه في طريق المزيد من الحرية الاقتصادية . واذا تقصينا الثورات السياسية الأولى وجدنا ان وجهها الاقتصادي لايقل شأناً عن وجهها السياسي ؛ كلا النظامين الاقطاعي والرأسمالي ، يقومان على

(١) المرجع ذاته ص : ٦٠

امتلاك فئة قليلة لأدوات الانتاج الكبرى . الارض، في نظام الاقطاع هي اداة الانتاج ، والآلة في نظام رأس المال هي اداة الانتاج . كلتاهما ، في هذين النظامين ليستا في الواقع من حقوق كل فرد ، بل هما احتكار لقلة . انهما عكس الحرية تماما ، من حيث كونهما يتيحان لقلة من الناس ان تتحكم بالارض او بالثروة وان تتمتع بالتالي بالحرية السياسية ــ حسبما تشاء ــ وتمنعها عن بقية الناس.

الحرية في النظــامين اذن هي للقلة ؛ اما الكادحون فليس لهم منها الا النذر اليسير . « حتى الحريات السيـاسية ، تلك التي تبدو كأنها لاتعيش الا في ظل نظـام رأسمالي ؛ تصبح في واقع الامر ملكا لأصحاب القوة الاقتصادية فحسب ، فلا يتمتع بها غيرهم ... حين نتحدث عن النظام الديمقراطي في بريطانيا مثلا واصوله العريقة ، فان علينا ان نذكر الى جانب ذلك ان المستفيدين الحقيقيين من هذا النظام منذ نشأ ، حتى وقت قريب ، لم يكونوا عامة الشعب من كادحين ومنتجين ، بل سادته من ملاك وتجار ورأسماليين . وان حق التصويت نفسه لم يصبح حقـاً عاماً من حقوق جميع المواطنين الا بعد الحرب العالمية الاولى ، وان حق التكتل النقـابي ، وحق الاضراب للعمال لم يكن في اوائل هذا القرن نفسه من الحقوق المعترف بها لا في بريطانيا ولا في الولايات المتحدة . ان حال العمال في أواخر القرن التاسع عشر كانت مترديه سيئة ، بائســة »

والتحسن الذي اصاب وضعهــم ، من حيث نيلهم بعض الحقوق ، انما تم بطريق النضال العمالي الدموي الطويــل الذي خاضه العمال في المصانع والشوارع بالاضرابات والمظــاهرات والثورات المتلاحقة . « وعلى رغم هذا النضال الطويل ، لم يتمكن العمال من نيل بعض حقوقهم الا حين نجحت الحركة العمالية في ثورتها الشيوعية في روسيا ، لتصبح من بعد تهديداً مستمراً وقائماً ، وعملياً لكل نظام رأسمالي لا يرتضي أن ينزل عن بعض استغلاله . »

ان الرأسمــالية حين تتنازل عن بعض امتيازاتها فهي لاتفعل ذلك بحكم واجب الضمير او الشعور الانساني او الايمــان بالعــدالة وانمــا تتنازل بحكم القوة او تحسباً من الغد ، أو سعياً وراء امتصاص النقمة الشعبية ، للابقاء على جوهر النظام الرأسمالي . ان الخلاص من الطغيــان السياسي يكون بامتـلاك الشعب لحريتــه السياسية . كما ان الخلاص من الطغيان الاقتصادي يكون بامتـلاك الشعب لثرواته ولحصيلة جهوده وانتاجه .

وعلى هذا فان الحرية الاقتصادية تستلزم وضع وسائل الانتاج تحت اشراف المجتمع كلــه ، لا اشراف فئة قليلة من ابنائه ، انها تستلزم اقامة مؤسسات شعبية تشرف على عملية الانتاج كلها . « على ان هذه المؤسسات لايمكن ان تؤدي ما يفترض فيها ان تؤديه من تحرير الانسان من الاستغلال والاستعباد الا حين تتوفر فيها

هي صفة الشعبية ، وصفـة المسؤولية الجماعية . ان امتلاك دولة دكتاتورية لوسائل الانتـــاج ليس تحريراً للفرد وليس اشتراكية ، بل هو اضافـة سلطان اقتصادي وطغيان اقتصادي الى سلطان وطغيان سياسي ؛ وهو نقل للاستعباد من يد راس المال الى يد اخرى لها من قوة التسلط وسائل اكبر بكثير واقوى بكثير من وسائل تسلط راس المال . وانمـا تكون الدولة ، حين تملك وسائل الانتاج ، دولة اشتراكية بحق ، ومؤدية لدورها في التحرير بحق ، حين تكون هي نفسهـا شعبية ديمقراطية ، اي حين تكون هي مؤسسة الشعب لحكم نفسه بنفسه . هنا يصبح امتلاك الدولة لوسائل الانتـــاج امتلاكا شعبيا بالمعنى الحقيقي ، ويصبح هذا الامتـلاك تحريراً للعـــامل ، وبالتالي للمواطن من الاستغلال والاستعباد . (١) »

وقد افرد المؤلف فصلا خاصـــا للحديث عن النموذج الثالث للحرية ، وهو ماعناه بالحرية الاجتماعيـــة . يرى المؤلف ان من المسير علينـــا تحديـــد الطغيان الاجتماعي ، وبالتـالي تحديد علاجه ، فالطغيان الاجتماعي « يستهدف اولا وأخيرا شيئاً واحداً هو الابقـاء على المجتمع كما كان دون السماح بأي تبديل أو تغيير فيه . وطبيعي أن يكون القيمين بتزعم هذه المهمة اولئك المستفيدون من بقاء هذا المجتمع على حاله سواء كانوا اقطاعيين، أومتنفذين ،أوزعماء طائفيين أورجال حكم أورجال ثورة. ومن هنا ذلك الترابط بين جميع فئات الطغيان (٢) » .

قد يتمثل الطغيان الاجتماعي فيما اشار اليـه المؤلف . ولكن في داخل الانسان ايضا قوى ذاتية تشده الى الوراء . ان التخلف الاجتماعي ليس نتيجة لوجود الاقطاعيين او المتنفذين وحسب، انه نتيجة منطق معين للمجتمع ، نتيجة وضع يقبل به المجتمع ، ويتسم بالركود والابقاء على البنيات المألوفة ، ولا يشفع لنـــا في ذلك قول المؤلف « ان من حق المجتمع ان يدافع عن نفسه امام كل ما يعتقد انه خطر عليه . ولكن من حق الفرد كذلك ان يخالف المجتمع وأن يثور عليه اذا آمن ان هذا المجتمع قد طغى عليه أو على الآخرين أو على الحقيقة أو على امكانيات التقدم الانساني (٣) . »

---

(١) المرجع ذاته ، ص ٩٠

(٢) ص ٩٣

(٣) ص ٩٤

هنا يحق لنا ان نتساءل : ما هو المعيار ، ما هو المرجع في تحديد مثل هـذا الحق . إن **التمييز البدئي** بين محاولة اصلاح المجتمع في طريق التقدم ، **ومحاولة تطوير المجتمع في الطريـق الاسوأ** ، صعب التحديد . النتائج ، هي التي تحدد الفعل فيما بعد ، وبعد حدوثه . إن هناك من يحبون العبث بالمجتمع فأين يقع عبثهم هذا من الحرية الاجتماعية ؟ وهل من حق المجتمع ان يسير وراء كل مطبـل أو مدع للتقدم والتحرر ؟

مثل هذه التساؤلات ـ وهي اساسية فعلا ، وبخاصة لدى شعوب العالم الثالث لم يجب عنها المؤلف ، ويرتد ذلك في تقديرنا الى أنه لم يول موضوع الحرية الاجتماعية عناية تماثل عنايته بمشكلتي الحرية السياسية ، والحرية الاقتصادية . فربما كان توفر هاتين الحريتين الاخيرتين ، نتيجـة لتوفر الحرية الاجتماعية ، وربما كان سبباً لهما . ان كثيرين ممن بحثوا الواقع الانساني في الماضي ، وفي القرن العشرين ، مازالوا عاجزين عن الجزم ، فيما اذا كانت الحرية الاجتماعية (حرية الفكر ــ حق التعلم والمعرفة ــ حرية التوجيه) تالية ، أو سابقة للحرية السياسية ، والحرية الاقتصادية . فثمة طغيان فكري حين تحيل الدولة مؤسسات المجتمع الفكرية الى قالب جامد تصب فيه ما يحلو لها . .

وثمة نشاط فكري حين تضع الدولة امكاناتها في سبيـل تكوين الفكر الاجتماعي الذي يستهدف مثلا موحدة للافراد بحيث يتعاونون على اغنائها بصورة جماعية . ومن ناحية أخرى يلاحظ ان التوجيـه الفكري الذي تمارسه الدولة ، يعبر عن نظامها هي ، وعن منطقها واسلوب فهمها للتطور . وبتعبير آخر لم يوضح المؤلف الحدود التي تستطيع الدولة ان تمارس فيها مهمة التوجيه الفكري ، بحيث يؤدي هذا التوجيه الى مزيـد من قوة الدولة والمجتمع ، لا الى تجميـد الفكر لدى الافراد ، بحيث يصبحون وكأنهم قطيع .

. . .

ان الحرية في تجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، قد حققت خطوات ثابتة عنـد الشعوب المتقدمة ، الشعوب الغربية . لقد توصلت هذه الشعوب في رأي المؤلف الى مثل هـذه الانجازات ، بعد قرون من النضال المرير . بدأ في عصر النهضة وما زال مستمرا . ولكن الحرية في بلاد آسيا وافريقيا ، لدى شعوب العالم الثالث على وجه عام ، موجودة الان في ازمة . فلقـد عانت هذه الشعوب من ضروب الاستعمار الواناً مذهلة . وكان من اهداف الاستعمار ، ان يشل عند هذه الشعوب نزوعها الى الحرية ، وتوقها الى التحرر . على ان رد الفعل لدى شعوب العالم الثالث ، كان عكسيا تماما ، فبدل ان يخبو تطلعها الى الحرية ، اخذ ينمو ويتمركز حول ضرورة الخلاص من الاستعمار . فأصبحت الحرية في مفهوم

هذه الشعوب مرادفة للاستقلال ، أي للتحرر من الاستعمار . وحين حققت هذه الشعوب استقلالها تجاه المستعمر الغاصب ، ادركت ان الحرية لم تكن مجرد الحصول على هذا المطلب ، بل وجدت نفسها امام نماذج من الحكم الوطني الذي لم يحقق لابنائها حرياتهم في التقدم والقضاء على التخلف ، والافادة من ثروات البلاد ، ومواكبة الحضارة الانسانية الحديثة التي تسهم في صرحها جميع الشعوب المتقدمة **« ان ثورة الحرية في هذه الاقطار ، ثورة قومية نشأت من خلال النضال ضد الاستعمار. هذا النضال الذي بدأت معالمه مع قدوم الاستعمار مباشرة . ولكن المعالم مالبثت ان تطورت ونمت ونضجت ، وارتفعت من مستوى رد الفعل البدائي الانعكاسي الى مستوى الحركة الواعية الاصيلة التقدمية ، واصبح لها اهداف مختلفة لكل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . »** (1)

لقد ارادت هذه الشعوب ، بعد استقلالها ، ان تحقق حريتها بتبني الاسلوب الغربي المتمثل بالنظـــام الديمقراطي البورجوازي . وظنت ان ماتحتاج اليه لتحقيق هذه الحرية ، دستور تضعه ، وقوانين انتخابات تنفذها ، وحكومات « ديمقراطية » تقيمها على غرار مايفعل الغرب ؛ ولكنها مالبثت ان لاحظت ان هذا النموذج من نظام الحكم ، ليس كفيلا بايصال هذه الشعوب الى الحرية التي تنشدها . وهكذا اخذت الانظمة في تلك البلاد **تتهاوى « وحلت محلها انظمة اخرى ، عسكرية أحياناً ، مدنية احيـــاناً اخرى ، مكشوفة الدكتاتورية احيـــاناً اخرى ، محتفظة بأشكال الديمقراطية ؛ أو ضاربة بها عرض الحائط متجاوبة مع الشعب واطماعه في التقدم ، او خانقة لهذه الاطماع ، كابتة رغبات الشعب . وهكذا ولدت « ازمة الحرية » في هذه الاقطار** (2) **. »**

هذه الازمة هي موضوع القسم الثاني من الكتاب . وقد عالجهـــا المؤلف بدقة وعناية ، وابرز اسبابها المشتركة ، دون ان يدخل في خصائص ازمة كل قطر من الاقطار الآسيوية والافريقية . ذلك بأن المؤلف ينطلق من واقع فعلي ، هو ان هذه الاقطـــار ، بعدما حققت استقلالها ، اتجهت جميعها الى النظام الديمقراطي البرلماني تعبيرا عن ايمانها بالحرية وتقديسا لها . ثم مالبثت ان فقدت نظامها البرلماني الديمقراطي اما شكلا وموضوعا ، واما موضوعا فحسب مع احتفاظها بالشكل ، **« وحل محل هذا النظام انظمة مختلفـــة من الحكم الفردي قد تتفاوت في الشدة والعنف ، وقد تختلف في طريقة الحكم وغاياته ، ولكنهـــا لاتختلف في اسلوبها الديكتاتوري العام** (3) **».**

---

(1) المرجع ذاته ص ١٤٦ .

(2) المرجع ذاته ص ١٤٧

(3) المرجع ذاته ص ١٦٦

فن اندونيسيا في اقصى الشرق ، الى فيتنام الى بورما فباكستان فسيلان الى معظم الاقطار العربية ، ثم الى غانا وغينيا والتوغو وداهومي ، « امتدت الانقلابات واحداً بعد آخر. بشكل او بآخر لتطيح بالنظام البرلماني ، ولتطيح بالحريات السياسية العامة ، ولتقيم محلها انظمة عسكرية مكشوفة ، او انظمة مدنية تخفي جهازاً عسكرياً حاكماً ، وتستمد سلطاتها في الواقع ، من القوى المسلحة التي تعتمد عليها ».

ما اسباب هذه الازمة المشتركة ؟ في تقدير المؤلف ان ثمة عاملين كونا هذه الاسباب : **الاول ، هو حصول هذه الاقطار على استقلالها منذ امد قصير ، والثاني ، هو تخلف هذه الاقطار تخلفاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .**

أما ظاهرة الاستقلال لدى هذه الشعوب ، فقد تجلت في قيام حكومات وطنية سرعان ما اظهرت عجزها عن ان تكون في مستوى الآمال « **وما لبثت ان فقدت ثقة الشعب فيها وتأييده الجامع لها ، وظهرت تناقضاتها مع طبيعة النضال الشعبي ، بشكل كانت حمى الحركة الوطنية تخفيها** » إن مرد هذا الاخفاق في تقدير المؤلف يعود الى ان تلك الحكومات الوطنية كانت بيد زعماء البلاد التقليديين من اقطاعيين وعشائريين واصحاب زعامات موروثة كان هؤلاء في فترة الاستعمار ، مندمجين مع الحركة الشعبية في نضالها التحرري . أما بعد الاستقلال ، فقد اتضح لهم ان مصالحهم ليست بالضرورة هي مصالح سواد الشعب ، فكان لابد لهم ان يوجهوا الحكم في البلاد في الطريق الذي يضمن مصالحهم قبل كل شيء . وهكذا قام تناقض بين اهداف الطبقة الحاكمة ، واهداف الجماهير . وسرعان ماتحولت هذه الحكومات « الوطنية » الى حكومات مناهضة لحرية الشعب ، وحقوقه ، لان مصالح افرادها تتعارض ومصالح الجماهير . هكذا نشأت بين الحاكم والمحكوم هوة ، واصبح الحاكم يمثل القوة التي تصادر حريات الشعب بمختلف وجوهها . وزاد في تثبيت هذا الاعتقاد في شعور الجماهير ، تدخل الاستعمار الجديد في شؤون هذه البلاد وتحالفه المكشوف او المقنع مع القوى الحاكمة . ونتج عن ذلك ايضاً ان التقت مصالح الاستعمار الجديد ، بمصالح الفئات الحاكمة المحلية على ارض مشتركة واحدة ، هي محاربة الحركة الشعبية الهادفة الى الحرية .

أما ظاهرة التخلف لدى هذه البلاد ، فقد تجلت في حرص شعوبها على الانتقال السريع من المجتمع التقليدي الذي كانت عليه قبل الاستقلال الى مجتمع اقتصادي تقدمي مزدهر ، ومثل ذلك يحتاج الى ثورة حقيقية ، زاد في حدتها لدى هذه الشعوب شعورها المتزايد بتخلفها في الوقت الذي يتقدم فيه العالم بسرعة هائلة ، « وفي الوقت الذي وحدت فيه المواصلات الحديثة ، ووسائل الاعلام انحاء العالم لتجعل منها عالماً واحداً ،

ولتجعل من تقدم الغرب قدوة تدفع المتخلفين الى الاسراع في ثروتهم الانتاجية . اضف الى ذلك الوعي القلق ، الذي خلقه النضال الوطني في نفوس القواعد الشعبية ، والذي دفع آمالها الى ابعد من امكانياتها ، فلم تعد تحتمل الصبر والتأني والتريث ، وانما تريد السرعة في التطوير وفي البناء ، لتغير من وجه حياتها التعسة . »(1)

يضاف الى ذلك عامل آخر في اطار هذا التخلف الذي اشرنا اليه ، أسهم في احداث ازمة الحرية . « ان الوعي الشعبي على حقوق الشعب وعلى مطالبه ، وعلى حاجاته أقوى بكثير من قدرة رأس المال على مواجهة هذه الحقوق والمطالب والحاجات مع الاستمرار على نموه . لقد كان الوعي الشعبي على حقوق القوى العاملة في الغرب انعكاساً للتقدم الاقتصادي نفسه ، فكان بذلك وعياً طبقياً من جهة ، وكان وعياً متأخراً عن التقدم الاقتصادي ولاحقاً له . ولكنه في الاقطار المتخلفة ، لم يكن انعكاساً للتقدم الاقتصادي الرأسمالي ، وانما كان جزءاً من النضال الشعبي القومي واستمراراً له ، فكان بذلك سابقاً للتقدم الاقتصادي المأمول . »

كل هذه التناقضات التي تسود أقطار آسيا وافريقيا ، أوقعت هذه الأقطار فيما اسماه المؤلف « بأزمة الحرية » . وهو يرى انها ازمة محتمة مفروضة بطبيعة هذه التناقضات نفسها . ولكنه يضيف بأنها « نكسة مرحلية مؤقتة في الطريق نحو الحرية (2) » . ويستشهد المؤلف بالمفكر الاقتصادي المعروف روستو ، الذي يقول في كتابة « مراحل النمو الاقتصادي » ، انه لم تتحقق اي مرحلة انطلاق في اي بلد من بلدان العالم ، الا في ظل حكم مركزي شديد التسلط ، وان اختلف المتسلطون المستبدون . انهم قد يكونون رجال المال والاعمال في اميركا وبريطانيا ، وقد يكونون الاقطاعيين التقدميين في اليابان ، وقد يكونون قوميسيري الشعب في الاتحاد السوفييتي ولكنهم مهما اختلفت طبقاتهم وانظمتهم واساليبهم ، أناس استلموا في ايديهم زمام السلطة وزمام الانتاج في آن معاً . ويضيف روستو الى ذلك قوله ان التقدم الاقتصادي الذي حققه هؤلاء المستبدون انفسهم ، كان قمينا بتغيير الاوضاع الاجتماعية السائدة ، التي سهلت لهم هذا التسلط ، وبخلق اوضاع جديدة لاتتلاءم

---

(1) المرجع ذاته ص ١٨١

(2) ص ١٩٨

معهم ، بل تفتح المجـــالات امام توسيع قاعدة الحرية وامام تعميق غورها .

فاذا كانت ازمة الحرية في بلاد آسيا وافريقيا موقتة كما يأمل المؤلف، فان اخطار الاستبداد ما زالت قائمة في جميع هذه البلاد . يأتي في طليعة هذه الاخطار قيام الدكتاتوريات تحت ستار التقدم او الاشتراكية او توفير الحريات للشعوب . ويلاحظ المؤلف بحق وبعمق ان «أقسى ما يمكن ان تقوم به نظم انقلبت على الحرية باسم الحرية ، هو ان تقضي فيما تقضي عليه ، على تلك القوة الشعبية الهائلة التي تجمعت وتكونت من خلال النضال ضد الاستعمار ، واصبحت سلاح الشعب الاول في نضاله من أجل تحقيق اهدافه جميعاً ، الانسانية منها والمادية[1] » .

فالحكم الديكتاتوري لايحرم الثورة تقدميتها وقوتها فحسب ، بل ينسف اغراضه ذاتها التي يدعي بأنه يخدمها ولاسيما في الحقول الثقافية والخلقية . ولئن تمكنت اقطار آسيا وافريقيا من ان تحقق حتى الآن ، الكثير في طريق حريتها وتقدمها ، فان الطريق مازالت امامهـــا طويلة تتطلب مزيدا من الوعي ، ومزيداً من الجهـد والنضال . والمؤلف يحاول في خاتمة كتابه ان يقدم بعض ما اسماه «بدائيات الطريق للوصول الى حل لمشكلة الحرية في الاقطار المتخلفة » كسيادة القانون وقيام الصحافة الحرة وحرية التعبير السياسي بتوفير الحرية للقواعد الشعبية ، وسواها الا انه لايقدم لنا مشروعا مخططا لهذا الجنوح الذي اصاب الحرية في هذه البلاد ، بالرغم من شعور ابنائها بأن الواقع الذي يعيشونه ، ليس هو ماينشدون ، بل هو واقع مفروض عليهم من ظروفهم الداخلية ، بقدر ما هو مفروض عليهم من قوى خارجية . ان التحرر لايعطى منحة ، انه ينطلق من الذات ليتحول الى واقع خارجي .

* * *

في تقديرنا ان كتاب الدكتور منيف الرزاز « الحرية ، ومشكلتها في البلدان المتخلفـــة » هام واساسي لأكثر من سبب ؛ فهو يدعو كل مفكر عربي الى التأمل جدياً في موضوعاته . انه دراسة صادرة عن مفكر سياسي عربي مسؤول ، يبشر برسالة قوامها « الوحدة، والحرية ، والاشتراكية » ؛ ومن هذه الزاوية ، فانه يقدم للقارىء صورة عن مفهومه لأحد مقومات هذه الرسالة . ثم انه اول دراسة باللغة العربية ، تصدر منذ سنوات ، بقلم كاتب عربي ، وتعالج مشكلة الحرية باشكالها الانسانية المختلفة . والكتاب بعد هذا ، يصل الى القارىء العربي ، في وقت اصبحت فيه الحرية المطلب الأول للمواطن العربي الذي شهد وما زال يشهد من الوان التآمر على الحرية في وطنـه ، ماجعله يشكك بمستقبله ومستقبل امته ، رغم مايعمر نفسه من ايمان بأن النصر لابد ان يكون للحرية وللشعب الحر .

[1] ص ٢٠٣

مؤتمر المفكرين الآسيويين الافريقيين في لاهور

بقلم حسام الخطيب

عُقد مؤتمر المفكرين الآسيويين الافريقيين في مدينة لاهور بين العاشر والرابع عشر من شباط ١٩٦٥ بدعوة من ندوة المفكرين الباكستانيين، وحضر الندوة اكثر من اربعين مفكراً من البلاد الآسيوية الافريقية واكثر من ستين أديباً باكستانياً، كما اشترك في المؤتمر بعض المندوبين بصفتهم الشخصية وبدعوة خاصة من ندوة المفكرين الباكستانيين نذكر منهم الاستاذ قدري طوقان والدكتور عمر فروخ.

كانت الدول الآسيوية ممثلة بنسبة كبيرة وابرزها اندونيسيا والهند والصين (وفد مراقب) والفيلبين وتركيا وايران، اما تمثيل الدول الافريقية فقد اقتصر على الجمهورية العربية المتحدة والسودان وكينيا، وقد اشترك في المؤتمر مندوب عن الجامعة العربية هو الدكتور محمد خلف الله احمد، ومثلت الدول العربية على النحو التالي:

الجمهورية العربية السورية: عبد المعين الملوحي، صدقي اسماعيل، حسام الخطيب.

الجمهورية العربية المتحدة: سهير القلماوي، زكي نجيب محمود، عبد الرحمن صدقي.

المملكة الاردنية الهاشمية: قدري طوقان.

السودان: عبد الله زكريا.

السعودية: شكيب الأموي.

لبنان: عمر فروخ.

اللجان

وبعد جلسة الافتتاح انقسم المؤتمر الى لجان أربع هي:

اللجنة الاولى: وموضوعها دور المفكر والفنان في المجتمع الآسيوي الافريقي، وقد ترأس هذه اللجنة المفكر الهندي ملك راج أناند وكانت اهم اللجان من حيث دقة موضوعها ومستوى المناقشات التي اثيرت فيها.

اللجنة الثانية: وتبحث في مشكلات المثقفين

والفنانين في الدول الآسيوية الافريقية ، وقد ترأسها الدكتور زكي نجيب محمود .

اللجنة الثالثة : وتبحث في الصلات الثقافية بين الاقطار الآسيوية الافريقية في منظور تاريخي . وقد ترأسها الدكتور عمر فروخ بعد ان اعتذر الاستاذ قدري طوقان .

اللجنة الرابعة : وتبحث في مشكلات الوحدة الثقافية واللغوية بين الاقطار الآسيوية الافريقية وترأستها السيدة بورا كاسترنس وزيرة الثقافة في الفيلبين .

اهم المقررات

تعريف المثقف : ١-يعتقد المؤتمر ان المثقف او الفنان المبدع هو الذي يمتلك شعوراً بالواقع المعاصر يكون حصيلة تجربة في الماضي والحاضر ولا يقتصر شعوره واتصاله على مجتمعه فحسب بل يتسع للانسانية على رحبها ، ويعنى عناية حيوية بمبادىء العدالة الاجتماعية ويلتزم بالدفاع عنها بصرف النظر عما يكلفه النضال في سبيلها من تضحيات ، ويلتزم بمحو الامية والجهل وكل التأثيرات الاجنبية الضارة ، ويؤمن بكل الحريات ويعمل على تحقيقها في كل مكان وفي أي وضع قد يتنكر لها ، ويؤمن بكرامة الانسان وحقوقه الاساسية الراهنة في الحرية والتحرر والمساواة ، ويؤمن بتخليص العالم من شرور الاستعمار والامبريالية ، ويؤمن بالعمل من اجل كل نضال للحرية ودعمه في اي جزء من العالم يتفق ان تدور رحاه ، ويمتلك المعرفة وينشرها بين المفتقرين اليها ، ويكون ضمير شعبه وضمير سائر الشعوب ، ويؤمن انه لاسلام بدون الحرية ، ويعمل للحرية والسلم والمساواة والعدالة في كل جزء من العالم ، لأن دوره لا تحده أية حدود سواء اكانت جغرافية او ارضية او عرقية او دينية ، ويتخذ لنفسه موقفاً لا يقبل التجزئة ولا التنازل ، ويتكلم بحرية من دون خوف ويعلم الآخرين ان يتصرفوا مثله .

نصرة الشعوب : ٢- ويؤمن المؤتمر ان شرور الاستعمار ، ومخلفاته ينبغي ان يقضى عليها حيثما وجدت ولا يجوز التمييز ضد اي انسان على اساس من اللون او العرق او العقيدة او الدين ويستنكر المؤتمر الاضطهاد الجماهيري الذي يمارسه المستعمرون في بلادهم ضد المجموعات العرقية والدينية والسياسية بدافع من الكراهية والتحيز .

ويهم المؤتمر ــــا تلاقيه الشعوب المضطهدة في كل مكان من مثل انغولا وفلسطين وجنوب افريقيا وفيتنام ، واضطهاد هذه الشعوب يخص بعمق الانسانية جميعها ولاسيما الفنانين المبدعين والمثقفين الذين هم ضمائر عصورهم .

ويحث هذه الشعوب على مواصلة الكفاح حتى يتم احراز النصر على قوى الظلام ويؤكد لهم ان الكتاب والفنانين والمثقفين في افريقيا وآسيا الى جانبهم في عزيمتهم النبيلة .

وهو يحث كذلك الاقطار الاسيوية الافريقية على العمل على تنمية العلاقات المنسجمة وذلك بحل

النزاعات الداخلية ، كما في كشمير والحدود الهندية الصينية وماليزيا وغيرها بالوسائل السلمية وطبقا لمبادىء العدل والمساواة .

مكتب دائم : ٣ - ويوصي المؤتمر باقامة مكتب دائم او منظمة لضمان وترقية تبادل الانتاج المبدع والعلوم والفنون بين أقطار افريقية وآسية، وعلى هذا المكتب ان يعمل على الاكتشاف المشترك للآداب والعلوم والفنون والثقافات في اقطار آسية وافريقية، وهذا المكتب يجب ان يكون جزءاً من حركة التضامن الاسيوي الافريقي الكبرى ، ويجب ان يستند الى المبادىء التي وضعها مؤتمر باندونغ وان يعمل بالتعاون والمشاورة مع المنظمات الاسيوية والافريقية المماثلة التي تعمل من اجل التضامن الاسيوي الافريقي ، وتوصي اللجنة بأن يتم الاتصال وان ينشد العون من المنظمات التالية :

١ - مكتب الكتاب الافرو اسيويين - كولومبو

٢ - مجلس التضامن الاسيوي الافريقي - القاهرة

٣ - منظمة الصحفيين الاسيويين الافريقيين - جاكرتا

تبادل الآداب : ٤ - يوصي المؤتمر ان يعمل المكتب على بذل جهود قويه من اجل تبادل الفن والادب والثقافة بين الاقطار الافريقية الاسيوية بواسطة ترجمة الأعمال العلمية والثقافية والأدبية، وتشكيل المعاهد والأكاديميات، وتبادل الفنانين المبدعين والعلماء والمثقفين والآداب ذات الشأن **ومثالها أدب النكبة الفلسطينية الذي يمتاز بالدفء الانساني ولكنه محدود الانتشار** . هذه الآداب يجب أن يتوافر العمل على جعلها في متناول الأقطار الافرو اسيوية الشقيقة .

حقوق الكتاب : ٥ - يجب على كل الكتاب والفنانين أن ينظموا انفسهم في منظمات مهنية مشتركة في كل قطر من اجل ان يحموا انفسهم من الاستغلال التجاري ، وهذه المنظمات يمكن لها - بالاضافة الى حماية حقوق الفنانين - ان تعمل على توفير التسهيلات اللازمة للطباعة وجعل المواد الطباعية كالورق وغيره في متناول الفنانين .

٦ - ان معظم القوانين المتعلقة بحماية حقوق الطبع في الاقطار الاسيوية الافريقية تحتاج الى اصلاح ويجب ان تطور من اجل حفظ حقوق المؤلف كاملة .

ولقد حرصنا على ذكر معظم التوصيات السابقة بنصها الكامل نظراً لاهميتها ودقة الموضوعات التي تعالجها ، اما التوصيات الاخرى فهي كثيرة ، وكلها تتصف بالجرأة والايجابية **وأهمها في رأينا النص على حرية الاديب والتأكيد على المثقف والفنان والاديب بمحاربة الاستعمار ، والعمل من اجل السلام ، ودعوة الدول الى تسهيل تنقل الادباء واعفائهم من الرسوم وتأشيرات**

الدخول ، والعمل على ازالة التأثيرات الغربية على ثقافة آسية وافريقية .

وفيا يتعلق بالتبادل الثقافي ، طالب المؤتمر بادخال اللغات الآسيوية الافريقيــة المختلفة كموضوعات اختيارية في جامعات آسية وافريقية وتشجيع ترجمة الاعمال الادبية والفنية بين هذه اللغات ، وتقوية الصلات عامــة عن طريق المعاهدات الثقافيــة والندوات والدراسات المشتركة وتبادل المعلمين والمثقفين بشكل عملي وفعال .

ملاحظات سريعة حول المؤتمر :

١ ـ اعتبرت قرارات المؤتمر كسبا لقضية العربية لانها نصت صراحة على تأييد الشعــب العربي الفلسطيني وأبدت تقديرها لأدب النكبــة الفلسطينية واوصت بنشره .

٢ ـ كان المؤتمر منظما ، اتسمت المناقشات بروح علمية هادئة وبنيت المداولات والقرارات على الابحاث المقدمة من قبل المشتركين . وقد قدم الوفدالسوري بحثين اولهما عن ادب النكبــةمن الزاوية الانسانية ، والثاني عن المظاهر الثقافية في سورية المعاصرة .

٣ ـ كان لتضامن الوفود العربية اثرعظيم في توجيه قرارات المؤتمر ، وقد تبين ان الدول العربية تستطيع ان تحرز مكاسب كــبرى في المجال الدولي اذا اتخذت مواقف مدروسة موحدة .

٤ ـ ابدى معظم المندوبين عطفهم عــلى القضايا العربية وقضية فلسطين بوجه خاص ولم يخفوا تذمرهم من تقصير الدعاوة العربية واتجاه العرب الى الغرب اكثر من الشرق .

٥ ـ اتفق عدد من الاعضاء على تأسيس مكتب آسيوي افريقي مشترك للنشر ، وابدوا استحسانهم لاقتراح الوفد السوري بأن يكون الكتاب الاول عن ادب النكبة الفلسطينية .

٦ ـ ضم الوفد الباكستاني نخبة من الشباب المثقفين التقدميين الذين ابدوا تفهما عميقــا للقضايا العربية الثقافية والقومية ، لاعلى اساس من الدين المشترك فقط ، بل بدافع ادراكهم ان النضال العربي يشكل اول خط ، دفاعي آسيوي افريقي في وجه الغزو الاستعمــاري الاوروبي .

صورة من مداولات المؤتمر

كان المؤتمر مرتعا خصبا لحوار فكري تفاعلت فيه اتجاهات شتى تكاد تمثل كل مايوجد في العالم من افكار ونظريات واتجاهات ، وبدا في اليوم الاول ان الصراع بين هذه الاتجاهات على جانب من الحدة ، قد لايفسح مجالا لاي لقاء ، ولكن ما ان اطلت مناقشات اليوم التالي حتى بدأت تلوح مخايل ملتقى موحد ، كأنما كانت المجادلات التي تدور بين المفكرين وسيلة لكشف الزائف والبراق من المفهومات الــتي اختلبت لب الفكر الاسيوي الافريقي بتأثير ماوقر في النفوس من مهابة للثقافة الغربية تجعل المفكر في بلادنا مصروعــا امام اي جديد

يفد من اوروبا . وطبعا لست انتقص هنا من وعي المفكرين الآسيويين الافريقيين ، فمعظم الذين اسهموا في المؤتمر كانوا مفكرين وادباء وفنانين بارزين في بلادهم وفي موضع الريادة الفكرية في آسية وافريقية ، وانما اردت ان اقول ان المؤتمر كان وسيلة لاعادة اكتشاف كل مفكر لنفسه ولفكره ، وقد رأينا الفروق والخلافات تذوب بسرعة ، اوتتضاءل على الاقل ، امام وهج القضايا الكبرى التي تعاني منها الشعوب المناضلة في القارتين .

وهناك امور فكرية كثيرة اقرها المؤتمر بالبداهة ودون اي اعتراض ، بل لقد كان الاعضاء يتبارون في السبق الى سد الثغرات التي قد تضعف من قوة هذه البدهيات التي نالت الاجماع وفي رأسها السعي المتواصل لتمكين القارتين من اعادة اكتشاف هويتها الثقافية والحضارية والنفسية بعد هذه القرون من الاستعمار السياسي والفكري والاقتصادي والفني ، ان مفكري آسية وافريقية جميعا يعانون من الضياع ، لا من ضياع نورمان ميللر بين ناطحات السحاب ولوحات الاعلان ودخان الكهوف الليلية ، وانما من ضياع الهوية الفكرية والنفسية ، انهم يجدون انفسهم - على صفحات مجلاتهم وفي ندواتهم - مدفوعين الى معارك فكرية وادبية مصطنعة ، بعيدة عن انتماءاتهم الوجدانية الحقيقية ، انهم مضطرون لان يتحدثوا عن ت . س . اليوت وان يتظاهروا بأنهم متفاعلون تفاعلا حميما مع (ابناء الرماد) و (الرجال الجوف) و (سويني اركت) ، وان ينووا السنتهم حين يلفظون ، بين كل جملة وأخرى ، كلمة (اللامنتمي) .

وحدة القضية الثقافية

حين جرى الحديث عن دور الفنان والمثقف في المجتمع الاسيوي الافريقي اكتشف المثقفون من مختلف اقطار القارتين ان العناصر المشتركة فيما بينهم اكثر بكثير مما كانوا يتوقعون ، بل انهم توصلوا الى الاقتناع بأن قضاياهم واحدة باستثناء بعض المشاكل المحلية الناجمة عن قضية تعدد اللغات في القطر الواحد مع وجود لغة استعمارية تخدم كوسيط ثقافي كما في الهند والباكستان حيث يؤدي الاستغناء عن الانكليزية الى خلق مشكلات متعددة منها تهيئة اللغة المحلية للتكيف مع المتطلبات الثقافية والحضارية والعلمية المعاصرة ومنها احتجاج الاقليات اللغوية التي تجد نفسها مضطرة لتعلم لغة غير لغتها وقد رأينا الهند مثلا مشغولة بمشكلة اللغة القومية تصطرع فيها آراء ومجادلات تتخذ طابع الحدة والعنف احيانا.

وبعيدا عن اللغة كانت معظم القضايا مشتركة بل متطابقة وقد لخص المفكر الهندي **ملك راج اناند** هذه القضية بثلاث نقاط رئيسية هي :

١ - التراث المشترك من الشعور بالمذلة التي لاقتها الاقطار الآسيوية الافريقية على يد الاستعمار .

٢ - حاجتنا اليوم الى رأب الصدع الذي خلفه الاستعمار في بنائنا الحضاري وذلك بواسطة اعادة اكتشاف ثقافاتنا ، واعادة تقويم ثقافات

الامم الاخرى والاخذ بما هو تقدمي وصالح منها وطرح الرجعي والفاسد .

٣ - الالتزام بالوقوف ضد الحرب ومناصرة السلام لأنه الجو الطبيعي الذي يتيح للاقطار الآسيوية الافريقية وللعالم حرية التطور السليم من جهة ، ولأن هذه الأقطار ليس لها اية مصلحة بالحروب الاستعمارية .

أما شاعر الباكستان **فايز احمـــد فايز** فقد لخص مهمة الفنان والمثقف بكلمة واحدة هي « الوعي » . وفسر هذا الوعي بنقاط اربع :

١ - وعي الفنان والمثقف للواقع المعاصر له .

٢ - تقويم طبيعة هذا الواقع المعاصر .

٣ - نقل صورة هذا الواقع الى الشعب .

٤ - العمل على تعديل هذا الواقع وتطويره باتجاه الأفضل عن طريق توجيه موقف الجمهور وسلوكه .

الطبقة الوسطى والثقافة

وقد اثارت آراء الروائي الباكستاني ناصر احمد فاروقي نقاشاً عنيفا ، اذ حاول ان يربط في محـــاضرته بين المثقف وبين انتمائه الطبقي ، ولاحظ ان معظم المثقفين الآسيويين الافريقيين ينتمون الى الطبقة الوسطى بالمعنى الواسع لهذه الكلمة وانهم لايستطيعون الا ان يعرضوا قيم هذه الطبقة التي اعتبرها الكاتب موئل الثقافـــة والفن ، واوضح ان المثقف معزول عن الجماهير في اقطار القارتين بسبب انتشار الامية ،وأوصى ان يدرس دور الفنان في ضوء هذا الواقـــع الاجتماعي .

وقد اتفقت آراء الذين تصدوا للرد على السيد فاروقي ان مفهومه للثقافة مفهوم زائف ، اما الثقافة بمعناها الصحيح فقد وجدت دائما لدى الفلاحين والطبقات العاملة ..

ولقد كان الاستاذ فاروقي مثـــالا للكاتب الصادق مع نفسه وصرح امام الجميع انه ينتمي الى الطبقة الوسطى ولايستطيع ان يتجاوز هذا الانتماء الى الطبقات الشعبية وان كان يرغب في ذلك ، وطلب من المؤتمرين ان يجدوا حلا لهذا الوضع الخاص الذي يؤرقه ، وقد تصدى له الكاتب الهندي ملك راج اناند بمرافعة طويلة ختمها بالقول المأثور ; « واخيرا لابد من ان تمشي البورجوازية الى الطبقة العاملة » .

الحرية والتطور

ومن المشكلات الكبرى التي احتدمت الاراء حولها مشكلة المفاضلة بين الحرية والتقدم ، فقد رأى بعض الكتاب ان الاقطار الافريقيـــة الآسيوية مضطرة للتخلي عن جانب من حريتها الداخلية من اجل التطوير الصناعي والاقتصادي والاجتماعي ، في حين رأى كتاب آخرون ان الحرية والتطور امران متلازمان لايجوز التخلي عن احدهما لصالح الآخر .

المثقف الاوروبي والمثقف الآسيوي الافريقي

وقد اثير الجدال ايضا حول الفرق بين مهمة المثقف والفنان في أوروبا وفي آسيـــة وافريقية ، وقد ارتأى معظم المفكرين (ومنهم أناند وفايز والدكتورة سهير القلماوي) ان

المثقف الآسيوي الافريقي اوثق ارتباطاً بقضايا الشعب وأشد التزاما بسبب طبيعة الاوضاع الاجتماعية والسياسية التي تعيشها القارتان ، في حين ان المثقف الاوروبي يمكن ان يعيش لنفسه مادام مجتمعه اكثر استقراراً ، وقد جرى اعتراض شديد حول هذه الناحيـــة ، واوضح بعض المفكرين ان اوروبا لها مشكلاتها ايضاً ...

وقد تولت الدكتورة سهير القلماوي مناقشة هذه النقطة وأوضحت ان الفنان في الغرب يستطيع أن يعيش لنفسه ، بينما الفنان في الشرق لا يستطيع الا ان يكون اشد التزاماً ، ولكن الفنانين والمثقفين الغربيين لهم مواقف قومية او انسانية ملتزمة واستشهدت بموقف المثقفين الفرنسيين من القضية الجزائرية ، وطالبت بأن تأخذ من الغرب ماهو انساني ونافع ، كما طالب الاستاذ اناند ان يستفيد المثقف الشرقي من تجربة المثقف الاوروبي استفادة اصطفائية واعية تطرح السطحي والزائف وتستوعب العميق الاصيل .

الخلاصـة

وحين أتى دوري للكلام كان النقاش قد تشعب الى حد كبير يضيع معه اي رأي جديد ، ذلك ان القضايا التي طرحتها معالجة دور المثقف في المجتمع الآسيوي الافريقي كانت تجر الى قضايا فرعية اخرى وهكذا دواليك ....

وقد رأيت ان ابدأ بتلخيص محتوى النقاش قبل اعطاء الرأي ، واوضحت ان الخلاف كان ينحصر في محورين اثنين هي :

علاقة المثقف بالطبيعة ، واللون الخاص الذي يميز المثقف الآسيوي الافريقي عن غيره من مثقفي العالم .

وبالنسبة للقضية الاولى نرى ان الفنان حين يتعمق في تحليل مادة فنه يكتشف أنها حصيلة تفاعل ذاتية مع ظروف البيئة الزمانية المكانية التي يعيشها ، والطبقة عنصر اساسي في هذه الظروف ولكنها ليست العنصر الوحيد ، وعلى المثقف مهما كانت طبقته ان يحاول **تجاوز الطبقة** باتجاه الجماهير والكتل الشعبية ، باتجاه الاهداف القومية ، باتجاه الانسانية .

اما فيما يتعلق بالفرق بين دور كل من المثقف الاسيوي الافريقي والمثقف الاوروبي فالباحث لا يحتاج الى كثير من الجهد ليلاحظ ان الفرق كامن في **النوع لا في الدرجة** . والفنـــان الاوروبي له مشكلاته الشخصية والاجتماعيـــة والقومية ، ولكنه يعيش في مجتمع مستقر واضح حقق المستوى الادنى – على الاقـــل – من الشروط الاساسية للحياة ، اما في آسية وافريقية فالحياة مضطربة والشعوب لا تنـــال المقومات الاساسية للحياة الانسانية ، ولذلك يرى المثقف انه في كل ما يكتب لا بد من ان يضع نصب عينيه الهدفين الحيويين للشعوب في آسية وافريقيا وهي : **الخبز والحرية** .

وقد تقبل معظم المفكرين هذه الخلاصة مع احتياط اضافته الدكتورة سهير القلماوي اذ اصرت على ان الخبز والحرية ليسا غايتين بل هما وسيلتان لتحقيق التكامل القومي والثقافي .

وبالطبع لم اهدف هنا الى الاحاطة بكل الآراء التي دارت في المؤتمر ، وانما احببت ان اعرض جانبا من المناقشات التي كانت لها حساسية خاصة ، والـتي يمكن ان يلقي بعض الضوء على طريقة المفكرين الآسيويين الافريقيين في معالجة القضايا الفكرية الكبرى في العالم ، وقد آثرت ان اضع القارىء في جو النقاش نفسه بدلا من سرد آراء المفكرين وتحليلها لأن اسلوب المفكر في تناول القضية وتوجيهها له أهمية لاتقل عن اهمية الرأي الذي يعطيه .

ان آسية وافريقية تعيشان في حـالة من التوثب والتحفز ، وان المثقفين في القارتين يقتربون من روح الشعب ويندمجون في قضاياه اقترابا مضطرداً مع تقدم وعيهم وعمق شعورهم بالالتزام القومي والانساني ، وهم جميعا يعيشون في صبوة الى الانصهار في اتجاه ثقافي آسيوي افريقي معاصر ، يستقي من الروح الآسيوية الافريقية الصبور المعطاء ، ويستفيد من التراث الحضاري الانساني في كل مكان ، ويستهدف خلق ثقافة جديدة انسانية وبناءة ومنفتحة الى الحد الذي لا يمحو شخصيتها ولونها المحلي .



حول ديوان «لا تقولي وداعاً»

شعر رفعت الشيخ

عرض وتحليل عمر ابو قوس

من يطالع هذا الديوان يكاد يجزم بأن صاحبه شاب في مقتبل الشباب يحيا تجربته العاطفية المرة الأولى وينغلم فيها باكورة شعره. ففي شعره وفي شعوره معاً سذاجة المراهق وصدقه وتوقد عاطفته.

اما احاسيس الشاعر وعواطفه فليست مجال بحث لأن للشعراء ملء الحرية في ان يتحدثوا عما يشاؤون كيفما شاءوا على شرط واحد لاغنى عنه وهو ان يتكلموا بصدق واخلاص وهذا ماتوفر عند الشاعر رفعت الشيخ.

واما من حيث الشكل كاللغة والموسيقى وفن العرض فان مجال القول فيها ذو سعة، يغلب على شعر الشاعر طريقة الكلام العادي في العرض فليس فيه تعمل ولا يتبع فيه اسلوباً معيناً من اساليب القول كما انــه لا يلتزم مدرسة ادبية بعينها فهو على قدر كاف من استقلال الشعور وهي احدى مزايا الشاعر البارزة. غير ان اطالة الكلام حيث ينبغي الايجاز اضعف كثيراً من قصائده وجعلها فاترة دون مستوى التوتر العاطفي الذي يعانيها.

ولعل شهوة الكلام واطالتـــه هي الصفة المشتركة عند كثير من الشعراء المعاصرين حتى الكبار منهم مزاحين بها النساء اللواتي اشتهرن بها عن جدارة واستحقاق ولكن اخواننا الشعراء نسوا ان اللمح والايجاز احد خصائص الشعر العالي في جميع اللغات. وقد اصاب بذلك المحز احد الشعراء القدامى حين قال:

والشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهذر طولت خطبه

فالشعر ايحاء ولفت نظر الى معنى او عاطفة بعينها لا شرحها بالتفصيل فتلك مهمة النثر وحده. المعاني عادية عنـــد رفعت الشيخ فليس

فيها جديد ولا مبتكر كما ان اسلوبه مهلهل ليس له متانة اساليب الشعراء القدامى ولا جزالتهم. والوزن يستقيم له غالباً ويلتوي احياناً مثل قوله في قصيدته «الضائع» وهي اولى قصائد الديوان :

عاد الشتاء ولا نار ولا وتر

ولا جليس يطيب بقربه السمر

فالشطر الثاني من البيت لا يستقيم مع الشطر الاول كما يبدو للقاريء اللبيب . كما ان فيه اخطاء لغوية عديدة مثل ادخال ال التعريف على كلمة «غير» في قوله :

ارى الغير بين الورد يختال ضاحكاً

وفي الشوك لي مأوى وفيه دروبُ

وككلمة المهووس في قوله :

ولفني الشارع المهووس تقذفني

حاراته ويمور البرد والبردُ

وصوابها لفة المهوس

ولا ادري انا كيف يمور البرد والبرد في قوله هذا ، وكقوله في صفة القلب الخافق المفؤود

ألخافقي اتزيد من آهاته

ماذا جناه الخافق المفؤود

والمفؤود كما هو معلوم صفة لمن اصيب في فؤاده او للعاشق على وجه الاستعارة اما ان يكون القلب نفسه مفؤوداً فهذا غير وارد .

برغم جميع ما ذكرناه آنفاً فان في الديوان نبضات شعرية جميلة تخنقها الاطالة وعدم التركيز وهي تبشر بمستقبل زاهر . نخص بالذكر منها القصائد التالية :

عيناك ، تمرد ، قصة شاعر ، التجربة ، والوهم والنسيان .

ولبيان قيمة الايجاز وضرورة عدم لجوء الشاعر الى النظم الا بعد ان تضيق نفسه بما فيها ويعجز عن كتمانه بالاضافة الى قدرته اللغوية وتمكنه من فنون القول نلفت النظر الى ما جاء في آخر قصيدة الشاعر رفعت الشيخ « الوهم والنسيان » وهو قوله :

وبنظرة عجلى ...	بطرف ساحر
كالسهم او كالبرق	اما ينجلي
تنهار اقنعتي	تزاح ستائري
وكانني لم اس	لم أتبدلِ

والمعنى هنا جميل وان اتهم رفعت باقتباسه من شاعر آخر فليس هذا بموضوع بحث مطلقاً والمعاني ليست وقفاً على شاعر دون آخر والتجربة الواحدة قد يمر بها كثيرون ولكن الذي اريد ان اذكره في هذا الصدد هو ثلاثة ابيات رائعة للمرحوم الشاعر الدكتور احمد زكي ابو شادي

ولما التقى الطيفان طيف معاذر

يصد كما يبدو وطيف مخاطر

تكلفت سلوانا وابدت تجافياً

فلم تحتمل كذب العيون الضمائر

فجن عناقي والتوت بين اذرعي

كأنْ قفص فيه تخبط طائر

والذي ارجحه انه ليس للدكتور ابي شادي شعر غير هذه الابيات على وفرة ما نظم من القصائد .

والذي يعنينا بهذه المناسبة قوله هو ان التجربة العاطفية الواحدة تعرض لشاعرين معا

←

شاعر آل البيت

دعبل بن علي الخزاعي

للدكتور عبد الكريم الاشتر

عرض وتحليل سلامة عبيد

الكتاب دراسة تحليلية لحياة دعبل وشعره في ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير ، اخراج دار الفكر بدمشق . ويتألف من ثلاثـــة فصول وخاتمة ومختارات شعرية وثلاثة ذيول وفهارس المصادر والاعلام والموضوعات .

احدهما متمكن من لغته والآخر لم يأخذ منها الا بالنصيب المتواضع وكلاهما قد عاش تجربته بصدق واخلاص فتسعف الاول قدرته اللغوية في تصوير عاطفته تصويراً يقصر عنه الثاني عادة .

وهذا ما يدعونا باخلاص الى تكرار لفت انظار الشعراء الشبان اليه من ضرورة دراسة ادبنا القديم دراسة وافية قبل الاكثار من نظم الشعر والتعجيل في نشره على غير تمكن من اللغة وتمرس بها .

اختم كلمتي هذه بتحية الشاعر رفت الشيخ ورجاء المستقبل الزاهر له وان ينال ديوانه الاول « لا تقولي وداعاً » ما يستحقه من الرواج والتقدير .

يبرز الدكتور الاشتر في هذا العمل المضني عالما واديبا ، كما عودنا ان يكون دائما عـــلى مستوى المسؤولية الادبية والتاريخية . وان نظرة واحدة يلقيها القارىء على هذا المؤلف الثمين كافية لأن تنطق بشكر المؤلف وتهنئته على جهده ودقته .

ومع ذلك فالمؤلف نفسه يعترف بانه يدرس « مرحلة من اكثر مراحل حضارتنا تعقدا واشتباكا ، وميلا الى التحول السريع » وشاعرا متفرق الترجمات متضارب الروايات . ومن ثم يلتزم المؤلف دراسة الشاعر دراسة مزودجة من خلال حياته وتصرفاته ومن خلال روحه وشاعريته فيضطر من اجل المحافظة على هذه الدراسة المنهجية وفي مثل ذلك العصر المضطرب ومع مثل هذا الشاعر البدوي الهائج — على حد تعبير المؤلف — ان يرهق نفسه وان يتعب القاريء

كان تبسيط احداث العصر ممكنا ليتمكن القارىء من ان يستوعبها دون العودة الى الكتب التاريخية التي ينصح المؤلف بالعودة اليها .

وكان الشك الذي بدا في الذيل الثالث واضحا

يحسن ان يرافق كثيرا من الاحكام والحكايات والروايات التي يزخر بها الكتاب ، هذا مع العلم بأن المؤلف قد اشار في بعض المناسبات الى التصحيف والشك في صحة بعض الوقائع .

فالدكتور يؤكد ، مثلا ، ان دعبلا قد مدح الرشيد وانه « ينبغي ان يكون قال في مديحه شعرا كثيرا ... »

فلماذا ينبغي ? ولماذا كثيرا ?! والمؤلف نفسه يؤكد بانه لم يصل الينا منه شيء (ص ٧٥)

وفي موضع آخر يسلم بان « التقية » هي التي فرضت على دعبل ان يجحد احدى قصائده ، ويضيف المؤلف – كما عودنا –

لماذا لايكون صحيحا ان دعبلا براء من تلك القصيدة بالذات ? ولماذا لم يشر المؤلف الى مواقف اخرى يجحد فيها دعبل قصائده حتى يؤكد الدكتور تلك العادة تأكيدا لايتسرب اليه الشك ?

والمؤلف يهتم اهتماما واضحا بنسب الشاعر ونسب قبيلته ، الا انه بعد التنقيب والمقارنة وسهر الليالي يصل الى نتيجة تبدو مبهمة ، وفي رأيي ان مثل تلك الجهود في التأريخ للشعراء والادباء لاتفيد الا في ماندر . . واصل الفتى ماقد حصل .

وفي الكتاب على نفاسته ودقته ، حاجة الى توضيح كثير من المفردات والاسماء مثل : فدك ، والطومار ، والساجور وكناسة الكوفة والى توضيح بعض الامكنة ، فالاعتماد على معجم البلدان لياقوت لم يعد كافيا ، والقارىء بحاجة الى ان يعرف الاسماء الحديثة والمواقع بدقة جغرافية عصرية ، قدر الامكان .

واعتقد ان الكتاب لايضيره ان يتخلى عن بعض التفاصيل « والحكايات المصطنعة التي لاتعين على شيء (ص ٩٨) » كحكاية هجاء الاشعث والضناع في حمص (ص ١٨٧) وحكاية مهران (١٣٣) والجارية والسرداب (٥٤) ودعبل ومسلم (٨١ – ٨٢) ..

ويخيل الي ان بعض الوقائع ظلت مشوشة وكنت ارجو لو استطاع الدكتور ان يزيدها وضوحا :

يظهر دعبل في مصر سنة ١٩٨ هـ .

ويظهر في طوس بخراسان في السنة نفسها والتاهرتي ، الشاعر المغربي يحرض الخليفة على دعبل (١٦٧) وينشد ان « الموت غادر دعبلا بزويلة » ص (١٥٦) وقبر دعبل في المشرق وقبره في المغرب وفي السودان . .

ودعبل خزاعي والمؤلف يثبت لدعبل هجاء في آباء خزاعة واجدادها ص (٨٠ و ٨٥) .

والذي اؤكده ان شاعرا مثل دعبل لايمكن ان يهجو قبيلته ثم يقارع بها كل الناس حتى امير المؤمنين :

« اني من القوم الذين سيوفهم

قتلت اخاك وشرفتك بمقعد »

كما ان بعض الحقائق التي اثبتها المؤلف نقلا عن مصادر الادب ، واحيانا عن مصدر واحد ، قد تكون في اصلها تضج بالمبالغة ، مثل مشهد ضرب دعبل وهو يناهز المائة من العمر وماتبع ذلك ، ان مثل هذا المشهد القذر لايصدق بمثل هذه السهولة .

ومثلها حكاية العكاز المسمومة ، فالرجل في

الثامنة والتسعين من عمره ، وهو يقف على حافة قبره بلا عكاز .

ويبدو لي ان بعض الاستنتاجات والشروح تستحق ان ينظر اليها من زوايا اخرى غير تلك التي نظر المؤلف من خلالها :

فلا يكفي _ مثلا _ ان يكون دعبل قد روى شعر ابي راسب البجلي حتى يكون قد اخذ شعراً كثيراً ، فقد يكون من مزاجه ان يحفظ لشاعر دون سواه او اكثر من سواه .

وفي شرح «فائية مملقة» ص ٢٤٨ : ارجح ان الشاعر يقصد بذلك الناقة التي شربت الماء فعلق بها العلق (الحشرات) لا اوراق الشجر .

وفي البيت ص ٤١ و ٢٤٨

وثديان : ثدي كبلوطة

وآخر كالقربة المدهقة

لا يصور الشاعر الضخامة ولا يعني شجرة البلوط والقربة الممتلئة بل هو يعني صغر الحجم والصخور ، اي كثمرة البلوط وكالقربة المفرغة افراغاً شديداً بدليل صـــدر الجارية النحيف الكثير العظام والذراع كذب الملفة وربط المرفقة في عجزها .

وأهم من هذا كله اننا نخرج من الكتاب بصورة مشوشة عن الشاعر اشبه ما تكون بالسيريالية ، لا نستطيع ان نجزم معها بأي صفة صلدة من صفاته سواء في الكرم أو الاقتصاد في الشجاعة او الجبن في الترفع أو التكسب ، يسقى السم ويسقي السل يجهد شعره ويعلك بعنان دابة الأمير ويسلقه بلسان سليط ، يهز عرش العباسيين بيديه ويكرع سلحــه تحت القارع ! ...

ان نفسية دعبل مشوشة ، ولا شك ،ولكن ليس الى هـذا الحد ، ويحسن ان ترسم هذه النفسية تحت اضواء جديدة أبرزها :

- التفريق بين الهجاء الحاقد والدعابة الماجنة الكاريكاتورية .

- تجريح كل مــا يستوجب التجريح في الأحداث والحكايات والقصائد والأبيات ، بلا هوادة ولا تردد .

- القليل الثابت من شعر الشاعر واخباره خير من الكثير المضطرب .

واخيراً نرى لزاماً علينا ان نقدم الشكر والتقدير للمؤلف الاديب العالم ، ولتقدير المكتبة العربية لهذا الكتاب الفني الثمين ، الذي ينتزع الاعجاب للجهد والدقة المبذولين .

تأليف اسكندر لوقا
عرض وتقديم اسماعيل عامود

لم يستطع أحد من الفلاسفة والكتاب الاجتماعيين، ولا حتى السلطات «المسلحة» القضاء على الجريمة قضاءً مبرماً .. كما أن الحضارات المتعاقبة منذ الجيل الأول للانسان لم تتمكن من الحد – كلياً – من الشر الكامن في بني الانسان على مر الدهور والعصور .. ذلك لأن الانسان – على مايظهر لنا وللدارسين – ربما فطر على الجريمة التي تعني الشر، أو ربما كان الشر فيه يمثل الى حد بعيد جانب الاجرام، وكثير من الفلاسفة أشاروا الى أن وجود الانسان بحد ذاته يشكل جريمة، ولو كانت هذه الاشارة متطرفة بعض الشيء عن مفهوم الصلاح والتعاطف في النفس البشرية الا انها تعني جانباً خاصاً، سيئاً، قام به الناس في وجودهم الحياتي المستمر منذ بدء الخليقة، ولعل ذلك مايعطف القول بنا الى ماقاله الشاعر العربي والفيلسوف الانساني «ابو العلاء المعري» في حكمه على وجوده كانسان ثم تمرده على هذا الوجود في صيرورته انساناً تكمن في اعماقه الشرور:

هذا جناه أبي عليّ
وما جنيتُ على أحد

فدلول كلمة «جناه» هنا، جاءت وكأنها تفسر لنا «الجريمة» التي ارتكبها والد ابي العلاء في حق الشاعر الفيلسوف .. والشر – ولنسمه هنا – الجريمة – جوازاً، قد ورد في الكتب السماوية الى جانب الخير .. فالشر، هو «الشيطان» وهو «الجريمة» وهو السرقة، وهو الاعتداء على الغير، واكل حقوق الآخرين ... والخير هو «الرحمن» وهو «العمل الصالح» و«الأخلاق» و«الحنان» و«المحبة» .. الى آخر هذه الصفات الحميدة .. ومادام الشر هو الجانب الأسود السيء في حياة الانسان، والخير جانبها الأبيض الجميل، فلماذا اذن يقترف الناس الشر ولا يتجنبونه ؟؟ سؤال حائر، يقف بنا، انه يسمرنا على شفرة جراب الجواب الخير الصالح، كاننا على «الصراط المستقيم» .. لكن علماء الاجتماع، وفلاسفة القانون، واطباء علم النفس، اجابوا على اكثر من سؤال حائر كهذا عن الجريمة، الشر معاً، ولكنهم جميعاً يعزون «الجريمة – الشر» الى دوافع شخصية وحياتية معنوية سبقت «الحدث»، والى استفزازات نفسية، وعقد ذاتية، وحالات معيشية، قامت قبل «الجريمة»

انهم يبررون المشكلة ، بشكلة اخرى اقسى واصعب .. ولكن ، مهما يكن الدافع ، ومدى ارغامه المجرم على ارتكاب جريمته ، فان القانون – السلطة – يقف كجدار غليظ وصارم امام كل المبررات .. وهو ، وان يكن من وضع هؤلاء القانونيين والفلاسفة ، الا انه – اي القانون – لا يسمح للجريمة ان تتحرك يميناً او شمالاً .. ولا يجيزلها التغلغل ولا التكرار .. ان القانون هنا ، شيء صارم جبار .. انه مادي النزعة ، قاس الى ابعد حدود القساوة ، ولذا فهو يحكم على الأفراد المجرمين بشكل قطعي لا يقبل المبررات .. ذلك لأن نصه الاجتماعي – والقانوني – يحمل تنفيذ العقوبة المحددة لكل جريمة على حده ، وبالتالي يحمل انانية السلطة وكبرياءها كمعنى حاد للنفوذ والردع ، وتقويم الاعوجاج ، ثم الاصلاح .. ولكن للنص القانوني الذي قلنا عنه بانه صارم جبار ، حركة ومرونة ... وطالما ان نمو المجتمع وعمرانه دليلان على صلاح الوجدان لتمييز الخير من الشر ، ووجود نزعة في الانسان الى الفضائل التي بها تستكمل النفس شروطها الكيانية ، فقد حرص المشرعون وفلاسفة الاجتماع على ان يكون للخير منفذ في غابات الشر ، فكانت « المحاكم – القضاء » لاصلاح النفوس الشريرة ، او تلك التي دفعها الحال الراهنة التي رافقت تكوينها الى ارتكاب الشر اي الجريمة ، عن غير تصميم في النفس الانسانية .. وذلك يعني ان الانسان هو الحاكم الفصل بين خيره وشره ، وهو المرجع في حياته الدينوية في تقرير كل ما تستكمل به حياته شروط طبيعتها .. ومن هذه النقطة بالذات نشأ القانون ونشأ معه « الحكم القضاء » .

وفي كتاب الأستاذ « اسكندر لوقا » هذا « من ملفات القضاء » خمس وخمسون مشكلة .. وهي في عرف القانون تشكل مجموعة من الجرائم ، منها الخفيفة التي قضت على مرتكبها بالحبس عدة اشهر او سنوات .. ومنها الثقيلة التى ادت بالمجرم الى حبل المشنقة ، ومنها بين بين والتي ابرأت المجرم لعدم توفر الأدلة ، على حد نص القانون ..

والكتاب ذاته « من ملفات القضاء » لا يهدف الى حل مشكلة الخير والشر في النفس البشرية بشكل علمي او قطعي ، او مايشبه ذلك ، بل يهدف الى السرد المحض للمشاكل ، ويرسم لها الظلال الحقوقية بمقتضى مواد القانون ، كما ويحدد بعض أبعاد القضايا الاجتماعية الجرمية ، ليقذف في طريق التربية والصلاح .. ومؤلف الكتاب يعترف بذلك ويقول بأن العلماء عبر سنوات طويلة قد اختلفوا واحتدم النقاش بينهم حول تحديد الجريمة ودوافعها والتخلص منها ، ولكن دون ان يصلوا الى النتيجة الحاسمة ، فقد قال جانب منهم ، بأن الشر قديم قدم الانسان ، انه وجد منذ ان ارتكب قابيل جريمته الأولى ؛ وقال جانب آخر منهم ، بأن الشر من معطيات البيئة التي ينشأ فيها الانسان بدءاً من الاسرة الصغيرة ، المنزل ، وحتى الأسرة الكبيرة ، المجتمع ، وأما

الحصيلة . فقد كانت ترتكز على الدوام حول نظريتين :

– المجرم يولد مجرماً ...

– الجريمة نبت المجتمع ...

ولكن ثمة من يقول ، بأن الانسان يولد طاهراً بريئاً ، ولكن المجتمع – البيئة – يدفع به الى ارتكاب الجريمة .. إن هذا القول – في نظر الدارسين – فيه من الدقة والصحة الشيء الكثير .. وعلى كل حال فان الكتاب « من ملفات القضاء » فيه من التجارب الجرائمية الحالات التي تشعرنا بالجهد الملهوس الذي قام به الاستاذ اسكندر حيال رصد بعض النقاط النفسية والمعيشية التي كانت سبباً ومنطلقاً لحدوث « الجريمة » في عرف القانون ..

فهذا « أدم » أخو البنات ، ولد في بيت يعج بست اناث ، ولهذا كانت عقدته النفسية تشعره بأنه غريب في دنيا ليس فيها الا البنات ، ولذا كان ادم ينتقي الاصدقاء الذكور من شبان الحي الذي يقطنه ومن وسطه المدرسي ،وطبيعي أن يتقرب اليه الشبان ، وباعتباره الاكبر لأخواته البنات الست ، فقد كان يعتبر المؤول الاول عن تصرفات شقيقاته بحكم توجيهات والديه اللذين وضعا ثقتهما به وبقدرته على حماية « سمعة الاسرة » وكان ذلك مصدر التناقض في سلوكه ، هو يريد ابعاد البنات عن مجتمعه ، وهو يريد – في الوقت نفسه – بقاءهن الى قربه ليكون المشرف عليهن ، ويشتبك أدم مع رفاقه في الحي ليدفع الاذى عن شقيقاته البنات.. ويتزوج ادم .. وكان زواجه نتيجة لحب تبادله مع احدى زميلاته في الجامعة ، مما أشعره – في البدء – بأن المرأة هي الوجه المشرق للحياة .. ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان مابدل رأيه ، وأصبح ينظر الى المرأة على أنها مصدر الشقاء في الحياة .. كان هذا التحول منبعثاً من حادثة ألمت بالاسرة بعد زواجه ، فقد هربت احدى شقيقاته مع احد الشبان ،واضطر الأب الى الانتحار ، وقبل الانتحار بلحظات لفظ الاب جملة رهيبة : (انها ليست الوحيدة في الاسرة ...) .

ويرزق « أدم » بنتاً ، لقد أعادت هذه المولودة الجديدة الى ذهنه كل التفاصيل التي رافقت ظروف « مسؤوليته » عن شقيقاته ، وخيل اليه أن هذه الابنة ماهي الا الحلقة الاولى من سلسلة الاناث اللواتي سيرزق بهن حتماً ... فيدبر حادثة لاغراق ابنته مع أمها – زوجته – في حادث زورق في عرض البحر .. ولكن الأم تنجو ، والأبنة الصغيرة « عالية » تغرق ويرى أدم جثة الصغيرة بين ذراعي أحد الشبان على الشاطىء ، ويتهم ادم بالقتل من قبل زوجته ومن قبل القضاء .. ويعتبر ادم من المجرمين القتلة ، ولكن محامي الدفاع يبرئه من الجريمة المعزوة اليه ، ويعتبرها قضاء وقدراً ، وما نجاة الزوجة على يد أدم في « الحادث » الا من قبيل احتفاظ الرجل بالمرأة كعنصر انجاب الأطفال .. وبعد المداولة ، تحكم المحكمة على أدم بالبراءة .

وثمة مشكلة أخرى في الكتاب جديرة ، أسماها المؤلف « يقظة الضمير » والمشكلة تتلخص

في أن « احمد » كان يعرف « امتثال » التي انتحرت ، واتهم « احمد » بقتلها ، ويطلب النائب العام اعدام الجاني ، وامتثال هذه كانت قد احبت « أحمد » حباً جارفاً ، ربط مصيره بها لشدة حبها له ، ولكن محامي الدفاع ينبري اثناء المحاكمة ليقول : بأن المجني عليها لم تك فتاة عذراء عندما عرفها احمد ، وقد اثبت التقرير الطبي الشرعي ذلك ، وأما عدم اجابة المتهم احمد عن هذا السؤال اثناء الادلاء بالافادة ، فهو يظهر الجانب الانساني لديه ، ولكن ليس ذلك معناه ان يذهب احمد الضحية ، لقد كان احمد مستعداً لصفاء قلبه عندما تعرف بامتثال واتصل بها متجاوزاً عن رضى كامل هفوتها التي ذهبت ببكارتها قبل الالتقاء بها .. وفي النهاية ، يعلن رئيس المحكمة براءة المجرم احمد من الجرم المعزو اليه ...

انها الحياة .. بكل مفارقاتها وتناقضها وشرورها ، تقف متجسدة بالانسان امام قوس العدالة – المحكمة ، ليعاقب الانسان شقيقه الانسان .. لم .. ? _ لأنه ارتكب جريمة . !!

ولكن الخير في الحياة يدفعنا الى التماس الأعذار لهفواتنا وخطايانا . . وفي القرآن الكريم « إن الله غفور رحيم . . » والانسان إستلهم المغفرة من السماء قبل أن يستلهمها من الأرض وقوانينها ، ولذا فقد كانت اكثر جرائم الاستاذ اسكندر – عفواً الجرائم التي في كتابه هذا – تبدأ بتوتر حاد للجريمة ، ثم تنتهي ببراءة الأطفال كل ذلك في أسلوب أدبي ممتع ؛ لقد استطاع اسكندر أن يمزج بين لغة القضاء الصارمة الجافة ، وبين لغة الأدب الممتعة الرقيقة الشيقة ؛ لقد وفق في سبكه للحوادث التي صنعت الجريمة ، واستطاع أن يخرج بها من اللغات الجامدة التقريرية الى حيث الحكاية الأدبية التي توحي بالحياة الاجتماعية التربوية المخلصة ..

شيء بسيط آخذه على المؤلف « اسكندر » ، هو أنه لم يقدم للقارىء شيئاً عن معنى الجريمة ومسبباتها وتطورها عبر التاريخ ، ولو بمقدمة مكثفة تلقي الضوء على المشكلة في جانبها العلمي التوجيهي المدروس . خدمة للقارىء العربي الصاعد ..

مآرب أخرى

قصص لناشد سعيد

عرض وتحليل عبد الوهاب السمان

« والشرط الأول لكل قصة بديعة ، هو أن يكون لها موضوع يهم الانسان في ناحية من نواحي الحياة . قد تكون القصة ملهاة ، وقد تكون مأساة ، وقد تكون من نوع آخر لايحمل اسما من الاسماء المعروفة . ولكن شرط الابداع فيها ، هو أن يكون لها موضوع يجعل القارىء يشعر أنه يتأمل قطعة من الحياة ، في مظهر من مظاهر الحياة » .

بهذه الكلمة لمحمد فريد ابوحديد ، قدم ناشد سعيد مجموعته القصصية « مآرب اخرى » والذي يقرأ المجموعة منطلقاً من هذا التعريف للقصة ، يحسب أن الابداع سيتجلى في مواضيع القصص ، وفي مظاهر الحياة ، التي اكد ناشد على تبنيها في مقدمته ، ولكن يتضح من خلال القصص ان ناشداً انساق وراء شرط «الموضوع» في القصة ، متكلفا بذلك الصنعة في الموضوع ، مهملاً مظاهر الواقع التي تشعر القارىء بواقعية القصة واهميتها وصدقها .

وكنت اتمنى وانا اشد نفسي الى قراءة المجموعة ، ان يتوافر الاعجاب بيني وبينها ، فالقصة الجيدة هي التي تجذب القارىء اليها ، وتوثقه بعمقها واسلوبها واصالتها ، ومتى شد

القارىء نفسه الى عمل فني ، وارغمها على مطاوعته وتقبله ، متجاوزاً شروط الانسجام والمشاركة ، فهذا العمل - برأيي - لم يحقق بعد خصائص النضوج ، ولم يكتسب صفات الجودة والابداع، وهكذا كان شأني مع « مآرب اخرى » شأن القارىء الذي يبحث عن المتعــة والفائدة ، فلم يجدها ، وشأن الدارس والمتفحص للقيمــة والمضمون ، فخرج منها بما لم يكن يتوقعه لها .!

حاولت أن أتعرف على شخصية الكاتب من خلال قصصه ، فرحت انتبع الاسلوب ، واذ به يختلف في قصة عن الاخرى ، يرتفع في صفحات ثم لايلبث ان ينحدر في غيرها ، يسلس ويجزل في سطور ، ثم يضطرب ويتخلخل في بعض المقاطع ، وتناسيت امر الاسلوب واللغة ، محاولا الوقوف على الاحساس والدقة في تصوير وقائع القصص ، فلربما قادتني الموهبة القصصية عند الكاتب الى اكتشاف الشخصية المميزة له ، عندها استطيع ان احدد ما له وما عليه، فلا اكون قداجترأت، ولا اهملت او تساهلت،لأن النقدامانةومسؤولية.

لقد حاول ناشد أن يتقمص شخوص قصصه على الرغم من اختلاف مسالكهم ومشاربهم ونوعياتهم، وعلى الرغم من الفارق الكبير بين نمط حياته وتجاربه ، ونمط حيواتهم وتجــاربهم ، محاولا بذلك تحريكهم بوحي من فلسفته ، والبــاسهم لبوساً لاينسجم مع طبيعة نوعياتهم وادوارهم ، مما جعل العقد « المأساوية » التي اشاعهــا في معظم قصصه مغايرة للواقع الذي تعودناه في مجتمع ينبذ التكلف والمغالاة .!

فمثلا في قصة « الخدعة » حاول المؤلف ان يجعل من بطلها مجرما لأسباب تافهة ، لايتقبلها العقل ، وهي انه ترك ساعته عند احدالاخصائيين ليصلحها له فوعده في تمام الساعة السادسة،وعندما جاء في السادسة ليأخذها وهو مضطر للسفر لأمر ضروري وجد المحل مغلقاً فجن جنونه وثارت ثائرته ، واعتبر ان الساعاتي خدعه ، ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يخدع فيها ، فقد تذكر طفولتــه يوم خدع اول مرة وكان لايستطيع الانتقام ، يوم طلب اليه ان ينظر الى العصفور في سقف الغرفة ، فصدق ، ورفع رأسه الى الاعلى ، فلم يجد العصفور ، بل وجد الخديعة التي تمثلت في مداعبات « المطهر » الذي اقتطع جزءاً من جسمه . ومن يومهــا والخدعة التي احس بوخزها والمها تلتصق بمخيلته واحاسيسه ، الى ان خدعه رجل (الساعة) فلم يتمالك نفسه ، ولم يستطع مقاومة شعوره بالانتقام ، فذهب اليه في بيته وارداه قتيلا .

وفي قصة ثانية « كنت انسانا » اراد ناشد ان يجعلنا نصدق ان زوجة « الافندي » صاحب الارض المتغطرس فرحت بموت زوجهــا الذي حجب الماء عن ارض جاره الفــلاح ، بعد مجادلة انتهت بفقدانه حياته مرمياً في البئر ، وعينت لقاتله محاميا يدافع عنه وعن جريمته ؟ وهذا بالطبــع لا ينطبق مع اي واقع حياتي لاسيما في مجتمــع كمجتمعنا ، يتمسك افراده بالعــادات والتقاليد والاخلاق الحميدة .

ثمة امور كثيرة بحاجة لمعالجة وايضاح ، ونقد وتعرية ، ولكن المجــال هنا لايتسع لسردها وتعدادها ، الا انني ارجو مخلصا ان لا تعتبر هذه

النظرة العابرة لمجموعة « مآرب اخرى » هي كل ما اود ان اسجلها حولها ، وان كنت قد اخذت على المجموعة بعض المآخذ الا ان هذا لا يمنعني من الاعتراف بان لدى ناشد موهبة قصصية بحاجة الى الاغناء باللغة العربية ومفرداتها الكثيرة فقط ، مما يسهل على القاص التحكم في موهبته وتطويعها لما يريد ان يعبر عنه. ولم يكن هدفي من جعل ملاحظاتي محصورة في مجال رصد الاخطاء في هذه العجالة ، الا لانني لا أريد ان استعرض القصص الجيدة في هذه المجموعة وهي كثيرة، ويكفي ان يكشفها القارىء بنفسه ، ولكي لا انسلك مسالك المدح ، فالعمل الجيد لا يحتاج الى دعاية .

وليست مجموعة ناشد هذه سوى بداية لاعمال فنية سوف تستقيم اكثر في المستقبل ، طالما ان صاحبها اصر على اصدارها بشكلها الحالي ، ليلزم نفسه على المضي في هذا الطريق ، وليس مع العزم والتصميم من فشل .

حول مقال « المنتدى الادبي »

الى تحرير المعرفة

وقفت عند بعض مآخذ في مقال « المنتدى الادبي » منها ان الشيخ رشيد رضا من «قرية يبرود اللبنانية»... ! فهو اولاً ليس من يبرود ، بل من القلمون في طرابلس لبنان ، وليست يبرود ، ثانياً ، من لبنان — كما تعلمون ونعلم — ولكنها من سورية . وهي بلد الشاعرين الشقيقين المهجريين الياس وزكي قنصل ..

محمد عبد الغني حسن — القاهرة

المعلم داوود قسطنطين الخوري ـ نشر باشراف وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق

هذا الكتاب عن علم من اعلام المهجر. من المهاجرين السوريين من مدينة حمص، وهو المرحوم داود بن المرحوم قسطنطين داود الخوري بزغ الفقيد في سماء حمص في اليوم الثاني من شهر شباط سنة ١٨٦٠ م أخذ عن والده اللغة العربية وآدابها واللغة التركية وشيئاً من اليونانية ثم طالع كثيراً من مختلف فنون الادب فنبغ في سماء الادب والفن والتأليف والتمثيل. وذاع صيته واشتهر أمره في الاقطار العربية. وانتفع بفضله خلق كثير وتخرج على يديه ما لايحصى من التلاميذ المقيم بعضهم في حمص والمهاجر، وتقديراً لنبوغه وخدماته الكبيرة لوطنه وقد عينته الجمعية الامبراطورية الفلسطينية التي كانت تنفق وتدير المدارس الارثوذكسية عضواً عاملا في ادارتها واهدته الحكومة الروسية عام ١٩٠٧ وسام القديس فلاديمير.

سافر الى البرازيل عام ١٩٢٦ م، وترأس النادي الحمصي في سان باولو ومثل رواية «اليتيمة المسكوبية» وقرظه كبار الشعراء منهم الشاعر القروي.

توفي عام ١٩٣٩، فأقامت له الجاليات العربية حفلات تأبينية كبرى والكتاب يحوي تراثه الكامل في الرواية والشعر والادب.

ميكل أنجلو ـ للدكتور عفيف بهنسي

هذا الكتاب هو دراسة تاريخية وتصنيفية لحياة اعظم فنان في التاريخ وهو ميكل أنجلو بوناروتي.. وفي الواقع لم يكتب عن فنان في تاريخ الفن، بقدر ما كتب عن ميكل انجلو الفنان النحات والمصور والشاعر والمعمار. الذي

تترك من الآثار الخالدة ، مايصلح كل واحد منها لكي يكون رائعة عصر بأكمله .. ولقد شارك الدكتور البهنسي في اثارة ذكرى هذا العبقري فلم ير خيراً من الكتابة عن حياته وعن آثاره ، خاصة وان المكتبة لم تكتف بعد بما كتب عنه من ابحاث مقتضبة ومن مقالات .

وكان لابد لكل من يريد الكتابة عن ميكل انجلو من ان يعود الى ما كتبه النقاد المعاصرون له عن حياته . وهكذا كان جيورجو فاساري واسانيو كونديفي ، بما كتباه عن حياة هذا الفنان واعماله ، من اصدق المصادر التي يجب الرجوع اليها .

ولقد تعاقب الكتاب والنقاد والمصنفون على الكتابة عن ميكل انجلو ، وكان كل واحد منهم يضيف علماً جديداً أو رأياً خاصاً عن سابقه ، حتى أصبح من الممكن الاختصاص بدراسة ميكل انجلو وحده دون سواه .

ولقد لجأ الدكتور البهنسي الى عدد من المراجع كان اهمها كتاب ريكو بيرو الذي استعرض بامانة ما كتبه معاصرو ميكل انجلو .

البترول عامل وحدة وانماء في العالم العربي ـ بقلم الدكتور نقولا سركيس نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي

في هذا الكتاب يستعرض المؤلف الثروة البترولية الموجودة في اراضي الوطن العربي فيقدم فيه احصاءات دقيقة وبيانات حسابية عن هذا الكنز الاسود، ويوضح ماله من اهمية في الاقتصاد العربي لو استغل استغلالا حقيقيا ويتضح فيه ان استغلال الثروات البترولية لانماء الاقتصاد العربي ، تقتضي اول ماتقتضي تضامن بلدان المنطقة وازالة الحواجز المصطنعة فيما بينها ، وفتح اسواقها بعضها في وجه بعض كي يتوفر المجال الاقتصادي الملائم لتنفيذ مشاريع انمائيـة مشتركة في حقلي التمويل والتصنيع فالبلدان العربية المنتجة للبترول، والبلدان التي يمر البترول عبر اراضيها تشكل فيما بينها مركزا جيوغرافيا واحدا للانتاج والنقل ومجموعة متكاملة بثرواتها الطبيعية وطاقاتها البشرية . وليس ادل على هذا التكامل مما نشاهده من تشابك متزايد في تيارات الهجرة والتبادلات التجارية والمالية بين بلدان المنطقة كانتقال اليد العاملة من البلدان العربية غير المنتجة للبترول الى البلدان المنتجة ، وانتقال الرساميل البترولية باتجاه معاكس من منطقـة الخليج الى لبنان وسورية والاردن . الا ان هذه التبادلات مازالت تحتـاج الى التنسيق والتخطيط على صعيد اقليمي ، وفي اطـار سياسة مشتركة تستهدف انشاء اسرة عربيـة للبترول على غرار الاسرة الاوروبية للفحم والفولاذ التي قامت على اساسها حركة توحيد اوروبا الغربية .

وعلى هذا الاساس اراد المؤلف ان يوضح مالهذه الثروة الضخمة من قيمة معنوية ومادية في الوطن العربي ، وقد سبق ان صدر عن وزارة الثقافة كتاب آخر عن النفط في الجزائر وبهذا الكتاب تتم الحلقة لنعرف فيها قيمة الثروة الكبيرة التي تمتلكها الامة العربية . يقع كتاب الدكتور سركيس بـ ٢٨٠ صفحة من القطع الكبير ويباع بـ ٢٧٠ قرشا سوريا.

سليم النقاش - اختيار وتقديم الدكتور يوسف نجم - نشر دار الثقافة - بيروت

في سلسلة دراسات ونصوص المسرح العربي قدم الدكتور محمد يوسف نجم الجزء الخامس الذي يختص به الفنان سليم النقاش ، سبق ان صدر في هذه السلسلة : مارون النقاش ، الشيخ احمد ابو خليل القباني ، يعقوب صنوع ، محمد عثمان جلال.

ولا يقل اثر سليم النقاش عن اثر عمه مارون رائد المسرح العربي ، اذ انه صاحب الفضل في نقل تراث عمه الى البيئة المسرحية الكبرى في العالم العربي وهي مصر .

ويضم هذا الكتاب خمس مسرحيات وهي « عايدة ، ومي ، والكدوب ، وغرائب الصدف والظلوم . »

هذا ماعثر عليه المؤلف من المسرحيات التي اقتبسها سليم النقاش لفرقته في مصر ، اما الحصيلة التي اعدها لهذه الفرقة فتضم مسرحيات عمه مارون «البخيل» و « ابو الحسن المغفل » و «السليط والحسود » و « ميتريدات » لراسين ، ولعلها هي التي نسبت للقباني فيما بعد ونشرها في مجموعة مسرحياتــــه ـ و « اندروماك » لراسين ، و « شارلمان » وهما ممــــا ترجم للفرقة اديب اسحق زميل النقاش وشريكه في الصحافة فيما بعد وستنشر هـــذه المسرحيات في هذه السلسلة ولم تنشر من قبل .

لقد قدم الدكتور نجم بهـذه النصوص مادة جديدة يفيد منها الدارسون والنقاد الذين يعنون بتاريخ المسرح العربي وبالنصوص التي قدمت عليه.

الخبز في دير الزور - تأليف عبد القادر عياش

يعتبر الخبز من ابرز عوامل تغذية الانسان ، وقد قدم الاستاذ عبد القــادر عياش في سلسلة كتبه عن دير الزور كتاب الخبز في دير الزور وضمنه دراسة شاملة للخبز ولتاريخه القديم والحديث فتناوله في مراحله كلها وآثاره في مجتمعنا وفي التاريخ واللغة والعادات والمعتقدات ، مما يتفق مع أهمية هذه المادة العظيمة الشأن والبالغة الخطر ، ومــــا يتلاءم مع صبوة القارىء الشديدة الى المعرفة فاهتم اهتماماً بالغاً ليعطي فكرة واضحة عن هذا الغذاء الهام .

ولما كان للخبز شأن هام من شئون حياة سكان منطقة الفرات فقد جاء الكاتب فيه بالفاظ ومصطلحات وامثلة شعبية خاصة تحمل طابع المنطقة وورد في الغناء الشعبي على اختلاف انواعه ، فهو موضوع فولكلوري وهو مما اهتم به الاستاذ عياش ونشر فيه مقالات وبحوث . .

وبعد فالكتاب طريف وجامع يضيف الى التراث الشعبي شيئاً جديداً .

٣٣ رسالة الى السيد المسيح - للشاعر عبد الحق حداد

هو مجموعة رسائل شعرية نظمها الشاعر عبد الحق حداد ، ضمنها رأيه في موضوع قرار تبرئة اليهود من دم السيد المسيح، ثم قدم قصائده الـ ٣٣ ـ وفيهـا مناجاة شاعر لمأساة فلسطين ومن اناشيد هذا الكتاب :

سيدي. جلجل صوت صارخ فوق الجليل
يحمل الله على كوخ جناحيه، الظليل.
انه الحلم على هدب الخليقه
انه الدرب المؤدي للحقيقة
يهودي. كافر بالصوت. يا كفر الذليل
انكر الله. طريقه
لم يعد موسى رفيقه
لم تعد أنت لأعماهم دليل

وكان مساء ـ تأليف مهاة فرح الخوري

قدم الدكتور عبد السلام العجيلي هذا الكتاب قائلا: بين يدي الآن هذه الصفحات التي كتبتها السيدة مهاة الخوري أناشيد أسى لنفسها في البدء ثم لابنائها واهلها الاقربين، ثم لم تلبث حتى تسربت الينا نحن قراءها حاملة الى نفوسنا ذلك الحزن الذي قلت انه يسمو بنا عن الصغائر ويعيد الينا قيمنا الروحية حين تستغرقنا حياة المادة والنضال في سبيل العيش والبقاء.

واشار الدكتور المقدم الى ان ثمة جديد في هذا الادب، فيه جوانب جميلة من الناحية الفنية ومؤثرة: ذكريات الحياة الزوجية الناعمة التي يقوض نعيمها موت القرين، كلمات الاطراء البسيطة التي قالها زوج محب لزوجة سعيدة، والتي ظلت اصداؤها تترددو تتضخم في النفس بعد فقد ذلك الزوج، ذلك البيت المهجور الذي كان في ذات يوم عشا للسعادة ترفرف بين جنباته بأجنحة اطفال ملائكة، كل هذه امور على بساطتها، تضرب على وتر غير مألوف ولا مبتذل من اوتار التأثير العاطفي..

هدية قيمة من وزارة الارشاد والانباء الكويتية

من الكتب القيمة التي وردتنا هدية من وزارة الارشاد والانباء الكويتية هذه المجموعة وهي:

العبر باجزائه الاربعة
مآثر الانافة باجزائه الثلاثة
الاضداد، مجالس العلماء، المصون في الادب العربي، شرح ديوان لبيد ابن ربيعة، رسائل الصابي، الذخائر والتحف..

وسوف نستعرض بعض هذه الكتب في دراساتنا القادمة..

مؤتمر الأيام الطبية
للشرقين الادنى والاوسط

بدعوة من حكومة الجمهورية العربية السورية عقدت الدورة الرابعة لمؤتمر الايام الطبية للشرقين الادنى والاوسط ، وذلك في مدينتي دمشق وحلب من ١٩ الى ٢٥ نيسان عام ١٩٦٥ ، تحت رعاية السيد رئيس مجلس الرئاسة . وقد أناب عنه السيد نائب رئيس مجلس الوزراء الذي القى كلمة الافتتاح فأشار الى ان العرب يرغبون بالسلم ، وان الحركة الصهيونية وعميلتها اسرائيل تعتبر عدوانا صارخا ضد الامة العربية ولا بد لهذه الامة الابية من استئصال هذا العدوان ان عاجلاً أو آجلا .

وقال : انه لمن دواعي الفخر ان يكون هذا الافتتاح في وقت يحتفل فيه قطرنا العربي السوري بأعياد جلاء الجيوش الاجنبية عن ارضه ، وهذا يذكرنا بما عاناه قطرنا اثناء الانتداب من تأخر وتخلف حجبا حقيقتنا الانسانية وأخرا تقدمنا العلمي وطمسا معالم شعبنا وامكانياته في الازدهار والمساهمة في انتاج العالم الحضاري .

وبعد ان أشار الى محاولات الاستعمار والصهيونيـــة للوقوف بوجه التقدم الحضاري العربي اكد ان اسرائيل وما تمثله من مطامع استعمارية توسعية وما تباشره من تهديد لامن المنطقة وسلامتها وما ترتكبه من اعمال عدوانية تتنافى وابسط القيم الانسانية ، ولذا فان غيابها عن هذا المؤتمر يعزز اهدافه ويرفع قيمته لدى مختلف شعوب المنطقة ويعطيه المعنى الانساني المأمول منه . وان بلادنا الناشئـــة لترحب فيما تحملونه الينا من آخر التطورات العلمية وآخر الاكتشافات الطبية .

واردف مشيراً الى تطور الطب الحديث ثم قال : واننا اذ نرعى هذا المؤتمر الدولي الكبير الذي يعقد لاول مرة في بلدنا وقد اشتركت فيه

ثلاث وثلاثون دولة من دول العالم الصديقة لتؤكد ضرورة التعاون الدولي في سبيل خدمة الانسانية والسلام .

ومن المعروف ان الجمعية العامة للايام الطبية للشرقين الادنى والاوسط في اجتماعها في استانبول بتاريخ ٢٧/ أيار / ١٩٦٤ ، قد قبلت بكثير من الاهتمام دعوة الجمهورية العربية السورية لعقد دورة عام ١٩٦٥ في دمشق .

وانه لشرف كبير ان تلبى دعوة بلد من الشرق الادنى انطلقت منه الحضارة وتأصلت جذورها فيه ، وأغنى التراث الطبي المستقى من بلد ابقراط واغناه علماء الشرق ، لاسيا العرب منهم ، قبل ان يستعيده الغرب .

ولذا فقد وضع مجلس ادارة الايام الطبية للشرقين الادنى والاوسط هذه الدورة ، لا تحت راية العلم والتعاون فحسب ، بل تحت راية الصداقة والتفاهم .

وقد تألفت لجنة رعاية المؤتمر من السادة امين العاصمة ومحافظ حلب ومحافظ حمص ، ونقباء الاطباء في دمشق: الدكتور شمس الدين الجندي ، في حلب : الدكتور فاتح عقيلي ، في حمص الدكتور دانيال كاتبة ، في حماه : الدكتور نجيب عبد الرزاق ، في اللاذقية ، الدكتور صلاح الدين اديب .

اما لجنة الاشراف العلمي فكانت مؤلفة من السادة العمداء السابقون لكلية الطب في جامعة دمشق الدكاترة: احمد حمدي الخياط ، حسني سبح انسطاس شاهين ، شوكة القنواتي ، عزة مريدن ، اما رؤساء الشرف فهم الدكاترة صلاح الدين عمر باشا وكيل جامعة دمشق ، عبد الغني عرفه امين عام وزارة الصحة والاسعاف العام ، فاتح عقيلي رئيس اتحاد الرابطة النقابية لاطباء سورية. وتشكلت الهيئة التنظيمية من مدراء الصحة في دمشق : الدكتور غالب شربجي ، حلب : الدكتور عبد الرزاق همامي ، حمص : الدكتور بدر ديب ، حماه : الدكتور عبد الرزاق شقفي ، اللاذقية : الدكتور ماجد صوفي : اما اللجنة التنفيذية فقد كانت مؤلفة من رئيس المؤتمر : العميد الدكتور منير شوري ، الامين العام : الدكتور بول بونتوس من بيروت ، امين السر : الدكتور منذر الدقاق الاعضاء : اللجنة العلمية : الدكتور مدني الخيمي ، الدكتور مروان محاسن ، الدكتور نادر توكل ، اللجنة المالية : الدكتور محمود سعده ، الدكتور جوزيف كلاس ، الدكتور بهجت رباط ، لجنة الدعاية : الدكتور حنين سياج ، الدكتور العميد مختار هاشم ، الدكتور منذر دقاق ، لجنة الاستقبال الدكاترة رشاد عنبري ، زهير البيك ، شريف النابلسي ، لجنة مدينة حلب الدكاترة : فاتح عقيلي طه كيالي ، رولان انطاكي .

وقد شكرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر :المديرية العامة للشؤون الثقافية والفنية في وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في الجمهورية العربية السورية وتقدر مساعدتها القيمة تحت راية التعاون العلمي والتضامن الانساني — اللجنة الدائمة

لمارض الكتب والفنون الافرنسية لتبرعها بـ ٢٣٦ كتـــاب طبي الى مؤتمر الايام الطبية وتقدمتها لسورية — مؤسسة ابحاث « بيشا » لتكرمها باعارة دراسات ذات نتائج قيمة ومفيدة في حقل البحث الطبي .

وقد اشترك في هذا المؤتمر الدول الآتية : افغانستان ، الجزائر ، قبرص ، اليونان، العراق ، ايران ، الاردن ، الكويت ، لبنان ، المغرب ، الجمهورية العربية المتحدة ، تركيا ، بالاضافة الى العلاقات الثقافية الافرنسية ، هيئة الصحة العالمية ، الاتحاد الطبي البلقاني ، الاتحاد العالمي لمكافحة السرطان ، جمية السرطان الاميركية ، الجمية الافرنسية للاشعة الطبية ، عدا اطباء من مختلف بلدان العالم اشتركوا في المؤتمر بصفة شخصية .

وقد تناولت المحاضرات والمناقشات والابحاث مواضيع مختلفة منها : ابحاث في امراض القلب ، ابحاث في جهاز الهضم ، معالجة السرطان المترقي ، معالجة مرض هودجكن ، ابحاث في السرطان ، تشمعات الكبد في الشرق الاوسط . بالاضافة الى مواضيع اخرى وعرض افلام طبية قيمة . كما ساهمت في تقديم المساعدات المختلفة شركات صناعة وتجارة الادوية والتجهيزات الطبية . كما قدمت شركة الخطوط الجوية العربية السورية الشارات والحقائب والقرطاسية .

هذا وقد اقيم للمؤتمرين عدة حفلات ترفيهية وتكريمية وزيارات المناطق الاثرية قدمتها وزارة الثقافة والارشاد القومي .

•



الحياة حلم ..

تأليف كالدرون
اخراج علي عقلة عرسان
عرض وتحليل عدنان بن ذريل



يوسف حنا ـ الملك باسيل ، وداعي موره لي ـ الأمير سيجسموند
في مشهد من مسرحية : الحياة حلم ..

ـ الحياة حلم ـ مسرحية ذهنية ، نفسية، للمؤلف المسرحي ، الأسباني (بيترو كالدرون) ؛ وهو من المعاصرين لـ (شكسبير) ، وترك مايقرب من مئة وثمانين مسرحية ، في موضوعات مختلفة تاريخية ، واجتماعية ، وانتقادية منوعة ؛ ومسرحية ـ الحياة حلم ـ مأساة ذهنية ، نفسية ، شاقة وعنيفة ، تقوم على صراع الأرادة الانسانية مع القدر الغاشم ؛ وتظل تتساءل عن حرية الانسان وحقه الطبيعي ، وامكانه تحديد مصيره ، او التغلب على قدره ..

والمسرحية تدور بالفعل ، حول (اسطورة) شعبية ، تسرد خبر سجن ملك بولونيا ، ابنه ، ووريث عرشه ، في قلعة نائية ، في أعالي الجبال وذلك لسوء طالعه ، الذي أنذرت السماء ، والنجوم به والده الملك ، أنه سوف يورثه الذل والهوان ، ويرغمه على أن يطأطيء له رأسه .. أي أن (المعطى الاسطوري) نفسه في الموضوع والذي تتصارع فيه الحقيقة ، والوهم ، الواقع والحلم ، يحوي على بذور التساؤلات ، اذا كانت الحياة حلماً ، وأي فارق بين الحقيقة والوهم ان لم يكن المعاينة السليمة للواقع ، والحق ، والعدل ..

وتتحرك شخوص المسرحية ، وسط المآزق ، والمفاجآت المتنوعة ، والشيقة في معظمها ، مثل البحث عن وريث للعرش ، او توريث العرش لأمير أجنبي ، أو دعوة الأمير المسجون الى تسلم مقاليد الحكم ، وبالتالي ، امتحان طالعه ، وخلقه ، وسيرته ... مما يكون مدعاة لتفشي خبر الأمير المسجون ، بين أفراد الشعب ، وهياج الشعب ، وحمله السلاح للدفاع عن حرية الأمير الشرعي ، وابعاد توريث الأمير الأجنبي ، والذي تظهره المآزق بمظهر الفاسد ، والمغامر أيضاً ... ويصطدم الملك ، واتباعه ، مع الأمير الشرعي ، واتباعه ، والذين يوالونه في الجبال ، ويحررونه من سجنه ، ويضطر الملك الى الاستسلام ، والخضوع ، ويتسلم الأمير الشرعي مقاليد الحكم ، ويعفو عن أبيه ، ويحسن الى أصدقائه ، ويسوي أمورهم ...

(الموضوع) سرد متساند ، وتحليل متتابع ، تبدو من خلالهما ملامح الأبطال ، ونفسياتهم ، التي أرهقتها الظروف ، وكشف عنها تطور الأحداث ؛ والتطور نشيط ، وحي ، تظل تذكيه المآزق المختلفة ، وحلولها المختلفة ايضا ، الى جانب عنصر فكاهي ثانوي ، وملموس ، يظهر بين الفترة ، والفترة من أشخاص ثانويين ..

ولا شك أن (المغزى الذهني) في المسرحية ، أي اثارة موضوع تنيم الحياة ، الحق الطبيعي ، الحرية ، هو الذي فرض أجواءه على العمل المسرحي كله ، بحيث كانت المسرحية تتأرجح باستمرار بين مواقف الحقيقة ، ومواقف الوهم ، واصطدام الانسان الخير ، والحر ، بالواقع الشرير ، والشاق ..

وقد أخرج (علي عقله عرسان) المسرحية ، فراعى فيها هذه الناحية الذهنية ، والتحليلية ، والتأرجح المتواصل ، الذي فيها ، بين الحقيقة ، أو الواقع ، والوهم ، أو الحلم . وقد كانت (الحركة) معقلة ، الى حد كبير ، ومتمشية مع تطور الأحداث ، حرص المخرج



يوسف حنا ـ الملك باسيل ؛ وعصام عبجي ـ كلوتالد ؛ وعبد القادر مارتيني ـ استولف ؛ وأسامة الروماني ـ مزمار ـ في مشهد من مسرحية : الحياة حلم

معها على ايحاء الأجواء الغريبـة التي لمواقف أبطالها المعذبين ..

ولكن لوحظ ان (الأداء) ،او بتعبير آخر الألقاء ، لم يكن على مستوى واحد عنـد الممثلين ؛ بل انه كان ينحدر في بعض المواقف الى درجة تشعر بالفعل ، بفقدان ، ما يسمى بـ (الاندماج) ، بين الممثلين او ايضاً (الاندماج) في التلوين الصوتي عندهم ..

لقد أظهر (الملك باسيل) ـ يوسف حنا ـ مقدرة على تقمص دوره ، وتأديته ببساطة ، وتمكن ؛ الا ان صوته كان ينقصة التلوين ، بحيث كان في بعض المواقف الهامة ، قبل الاصطدام مع ابنه كمن ينشد المقطوعات انشاداً ، او يحاور اشخاصاً في ذهنه ..

وقد بذل (الأمير سيجسموند) ـ داهي مورهلي ـ جهوداً متواصلة لتأدية دوره الشاق ، والصعب ؛ واستطاع ان يوفر له كثيراً من قيمه التعبيرية الا ان (الحس" الخطابي) ، والفردي غلب على لهجته .. مـع شيء من (البطء) في حركة الاندماج العام ..

ويعتبر دور (كاوتالد ، مربي الأمير) - عصام عبجي - من أحسن الأدوار أداء ، وحركة اذ تساند فيه التلوين الصوتي الطبيعي ، والبسيط مع المبادرة الحية ، والعفوية ، والتي اكسبت دوره قوة ، ورونقاً ..

وقد أخذ على دور (كبير الأمناء) - - سليم كلاس - اتجاهه الى الاضحاك ، والهزل ، سواء في أدائه او حركات رأسه ، ويديه ؛ ان دوره على العكس ، اولى به (التعقيل) الرزين والجاد ، والخير ..

في حين ظهر على (استولف) عبد القادر مارتيني - ، و (مزمار) - أسامة الروماني - شيء من التسرع ، واللكنة في الاداء ؛ وتفوقت (روزورا) - ثراء دبسي - على دورها في كافة اطواره ؛ ما عدا الطور التنكري ، كفارس اذ خانها التلوين الصوتي ؛ وأظهرت (اورورا) - لينا باتع - اتقاناً في بعض المقطات ، الا ان الاندماج في الحركة المسرحية ، كان ينقص بعض مواقفها ..

(الديكور) من تصميم الفنان (خزيمة علواني) وهو كتلي ، ومختصر ، ومتصل ، ركب بعضه على بعض ؛ توخى منه صاحبه ، ايحاء الحلم والوهم في حين كان اولى تفصيله ، وتبسيطه ، مع تمييز مناظره بعضها عن بعض ..

(الاضاءة) جيدة ، ولكن جاء بعض فصول متهاسريعاً ، وغير مدروس ؛ وهي تعتمد التعبير النفسي ؛ ولكنها لا تغني عن تفصيل الديكور وتبسيطه ... و (الألبسة) جيدة ؛ و (الموسيقى) جيدة ؛ وهذه المسرحية هي آخر مسرحيات موسم المسرح القومي الحالي .. وقد استمر عرضها اكثر من اربعين يوماً ..



يقدمها
غازي
الخالدي

معرض الفنون التطبيقية

الفنون التطبيقية.. بدأت بالفعل تثبت وجودها منذ تأسس مركز الفنون التطبيقية عام ١٩٦٣.

ظهر اول نتـــاج تعليمي للفنون التطبيقية في المعرض الاول الذي اقيم بعد تأسيس المركز بستة اشهر . . ثم اقيم المعرض الثاني في جناح الثقافـة والفن في معرض دمشق الدولي الحادي عشر ، واليوم نحن مع المعرض الثالث الذي اقيم هـــذا الشهر في المركز .

ان فكرة المعارض هي القيـاس الاول لمدى تطور العمل الفني وتقدمه ، وكشف حساب دقيق لكل ما يقوم به المدرس والطالب خـــلال ستة اشهر كاملة في التعليم المهني في المركز .

ومعرض المركز الثالث هذا يختلف هذه المرة عن المعرضين السابقين اختـــلافاً كبيرا ، اذ ان المواطن الذي انتسب الى هـذا المركز بدأ يفهم طبيعة العمل الفني التطبيقي ، ثم ظهرت لديه بوادر تطوير هذه الفنون ، وجعلها عملية استعمالية في المنزل والمكتب والامكنة العامة .

ثم من ناحية اخرى صار المواطن يركز اهتمامه على الزخرفة العربية ويأخذ منهـا الشيء الكثير ويحرفها وينظمها ويشكلها حسب القطعة التي بين يديه .. كما ان الآثار العربية القديمة الكثيرة في سورية والمباني والمشكاوات الاسلامية والكتابات والمناطق السياحية المعروفة في بلدنا . . كل ذلك صار موضوع فن زخرفي جيل نراه في كثير من

بالاعمال المعروضة .. هذه الناحية الهامة هي التي تعطي هذا الفن الهوية العربية والشخصية القومية في الفن .

ومن زاوية اخرى يمكن ببساطة ملاحظة الناحية التقنية في الاعمال المعروضة حيث نرى الدقة التامة في التنفيذ ، والخبرة الواضحة في عمليات الحفر والضغط والتعشيق مع الزجاج والجص .. والتحميض والتكبير .. والصب والتخطيط .. وغير ذلك من الاعمال المعروضة .

وهذا يدل على ان المواطن يتطور بالفعل مع التطور الزمني الذي يعيشه خلال الدورات السابقة ، ومن الطبيعي ان اول خطوة في تعلم الفن التطبيقي هو تعلم واتقان الناحية التقنية المتعلقة بخامة الشيء الذي يعالجه ، ثم بعد ذلك تأتي عمليات الابداع والتصميم والابتكار الشخصي .



« اعلان عن سورية للامانة ملك مطر »

من فن الاعلان نجد اعلانات ناجحة عن سورية العربية . ابرزها اعلان الآنسة ملك مطر ، حيث نفذته بقياس كبير وعلى طريقة الفسيفساء العربية . ثم اعلان عن ادارة « نقل الدم » للسيد مروان خشيفاتي .. فيه طرافة وذكاء من حيث الفكرة . اما عن التدخين فاعلان موفق رباية من الاعلانات الجيدة والمعبرة ببساطة ورمزية عن مضار التدخين .

من قاعة الميدالية تطالعنا ميدالية السيد عبدو الحسيني الخضر وهي تمثل قصة الطب ايام العرب عندما كان الطب من مقومات النهضة العربية آنذاك . والميدالية مربعة ، وفيها حساسية جميلة ينقصها الفهم التشريحي للاشخاص .

من الزجاج المعشق العربي نجد عدة اعمال جديرة بالاهتمام ، لوحة تمثل ريفية من بلادنا وورائها المسجد . وهذه اول مرة تدخل الموضوعات الشخصية في تصميم الزجاج المعشق العربي حيث كان سابقا مقصورا على الزخارف النباتية والهندسية . كما يرى في شبابيك المساجد . وهذه اللوحة الزجاجية للسيد محسن منجد .

ثم لوحة للسيد هشام موصللي ولوحة للسيد احمد المغربي . فيها خبرة عملية في تعشيق الزجاج مع الجص مع دقة كبيرة في التنفيذ .

من قاعة التصوير الشمسي يمكن تعداد مجموعة كبيرة من الصور الجيدة في لقطاتها وزواياها وفهم صاحبها للتكوين الفني ، والبعد ، والاسود والابيض ، وعلاقة الخطوط ببعضها .. من هذه اللوحات للسادة : عدنان حرش ، قتيبة الشهابي ،



• الزجاج المشق

في المعرض الثالث للفنون التطبيقية •

رتيبة شمس الدين (علماً بان لوحات الآنسة رتيبة ملونة وهـــذه اول مرة في سورية يدرس فن التصوير الملون مع تحميضه في هذا المركز) . ثم واصف اباظة ، والآنسة حوات .

ومن قاعة الزخارف بانواعها من ضغط على الجلد والنحاس ، وحرق على الخشب ، وتلوين على الزجاج يمكن ان نرى عدة مواطنين لهم الاولوية في الانتاج : الآنستين سها زكريا ، وعبلة حمودة ، ثم حكمت السقا وعدنان كلاس . اهم مايلفت النظر في هذه القاعة الزخرفة العربيـــة والموضوعات الشرقية ، الكثيرة الـــتي تؤكد شخصيتنا العربية بوضوح تام .

ومن الحفر على الخشب السادة عدنان حموي وحسن حسني وغازي بلال عرضوا مجموعة جميلة من العلب الخشبية (خشب الجوز) المحفورة بمهارة واضحة بزخارف عربية اصيلة ، واروع ما يمكن رؤيته في هذا المعرض هو الطاولة الخشبية المثمنة التي أخذت جهداً حقيقياً استغرق اكثر من ثلاثة اشهر ! في التصميم والحفر والزخرفة .

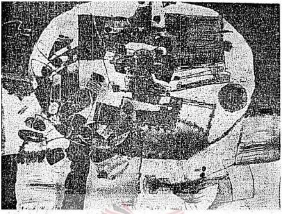
في قاعة الطباعة نجد اعمالا تعرض لاول مرة وفيهـا الفكر العملي ، مثل طقم شاي مطبوع بالشاشة الحريرية بطريقة يدوية ، ومفرش اسرير طفل صغير منفذ بالوان شرقية وزخرفة شرقية جميلة . للسيد احمد ياسر الشمعة ، ثم بطاقة معايدة مطبوعة بنفس الطريقة للآنسة فكتورين اوزون ، ومفرش شاي منزخرف باللون الاخضر للسيد عبد الرحمن المرادي .

اما الازياء الشعبية فلا تزال في دور التجربة ، والمعروضات التي قدمت بحاجة الى دراسة اكثر وتنفيذ ادق .

بقي الخط العربي وهذا من اهم عناصر تراثنا القومي الفني .. وقدمت نماذج من اعمال الطلبة لاتزال ايضاً في مرحلة الدراسة والتجربة !

هلموت آرنس

هلموت آرنس المدرس في كلية الفنون الجميلة بدمشق أقام معرضاً في الشهر الماضي في قاعة حلقة التكامل الاجتماعي والفنون .. وعرض مجموعة من اللوحات واستعمل خامات متعددة مع خبرة بعيدة في التقنية غير معتمد على الصـدفة .. او العاطفة الموقوته .. وليس وراء لوحاته تخطيطاً عقلانياً أو جدلياً .. انما يعمل بدءاً من نقطة اوخط أو لون . ثم يتمم هذه البداية بعلاقات تشكيلية مستفيداً من امكانيـــة اللون والخط والنقطة ،



« تكوين للفنان هـ . ارتس »

وكذلك من تعدد الخامات اللونية كالالوان المائية او الحبر الصيني ، او الطباعة بطريقة الشاشة الحريرية او بالمينوليوم او بالالوان الزيتية .

والشيء المؤكد في اعماله انه عمل جدي ، فيه جهد واضح ، وايمـــان بالعمل والتجربة المستمرة .. والتجريد من المشخصات او الاشكال الطبيعية هو الطابع العام للوحات .. وله حساسية خاصة للالوان المركبة ، والشفافة ، بحيث يلعب بمجموعة كبيرة من الالوان على مساحات مختلفة صغيرة دائرية ومربعة ومستطيلة . لا يهمه الاسلوب التقني المستعمل بقدر ما تهمه النتيجة .. فقد يستعمل ادوات كثيرة اثناء تنفيذ اللوحة ولكن برأيه ان المهم ليس الاداة ولكن ما تعطيه الاداة في النهاية. وهذا ما يؤكد ابتعــــاد الفنان عن الحركات البهلوانية التي تستعمل في الفن الحديث في كثير من الاعمال التي نراها في المعارض المحلية . والذي يهمنا في الواقع من تجربة هذا الفنان هو الروح الجدية الواضحة وراء اعماله جميعها بصرف النظر عن موضوعها او الاسلوب الذي يحمل طابع التكرار المتنفذ بها .

برهان .. وارينا

سبق ان عرفنا سامي برهان في معارض محلية يحاول باستمرار ان يجد اسلوباً خاصاً به.. ورغم تعدد المراحل التي كان يتنقل فيها فان خيطاً رفيعاً يربطها جميعاً وهو اللون الحار .. لون الرمال .. اما المرحلة التي نراها في هذا المعرض فهي جديدة على سامي برهان كل الجدة ... فالشكل عنده لم يستقر بعد .. واللون لم يعد مركباً .. اما الاحجام والابعاد فلا تزال باقية رغم محاولته التحرر منها ..

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة — كل أربعة اعداد في مجلد واحد — وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق — مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .



من أزيائنا الشعبية
زي من عشائر البكارة

تصوير حنين بوغوص

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم: فؤاد الشايب

وجه يمثل حاضر افريقية ومستقبلها: كوامه نكروما ـ القائد الذي فرض حزبه الثوري، بصناديق الاقتراع ـ النضال ضد الوجود الاستعماري بأي شكل من أشكاله القديمة او الجديدة، هو الذي رسم طريق الاشتراكية نحو الخلاص ـ لماذا ترفض غانا نظام الديموقراطية الليبرالية، سبيلاً للحكم والتنمية في افريقية ؟ ـ ليست الاشتراكية الافريقية معادية للدين، أي دين، ولا هي مذهب أو فلسفة، بل تجربة انسانية حيّة ـ كبير الدعاة الى الوحدة الافريقية السياسية، يحدد عناصر الوحدة وأهدافها، ويعرض بعض تاريخ محاولاتها.

يقول كوامه نكروما رئيس جمهورية غانا، وقائد نضالها حتى الاستقلال في اكثر من حديث له عن سيرة تفكيره ونضاله أنه قد بذل جهداً كبيراً في دراسة ارسطو، وهاني بعل، وكرومويل، ونابليون، ولينين ومازيني، وغاندي، وموسوليني، وهتلر، بالاضافة الى هيغل ومار كس وجفرسون، وتأمل

طويلا في ثوريتهم ، وطرائق تدبيرهم وتفكيرهم ، ووجد لديهم الكثير مما ساعده في قيادة المعركة ضد الامبريالية ، وتنظيم الشعب في مختلف ميادين المقاومة السلبية والعمل الايجابي .

واذ يقع المراقب على هذا الاعتراف ، يذهب الى الظن بأن الاطراف المتناقضة التي أخذ بها القائد الافريقي في تكوين ثقافته، من المسيحية الكاثوليكية الى الاشتراكية الماركسية ، ومن سلبية غاندي الى عدوانية هتلر ، من شأنها أن تزعزع تفكيره وتدفعه الى مزالق الاضطراب والتشوش ، بحيث تلوي عليه أمره وتعقد ذات نفسه ، فلا يقبل على فكرة حتى يبارحها وهي اكثر ماتكون غموضاً واهتزازاً في عقله وتصوره .

والحق ان من يقرأ ما كتبه وحاضر به الرئيس نكروما ، وعلى الاخص كتابه (افريقية يجب أن تتوحد) ثم ما كتبه زملاؤه وتلاميذه عنه ، وعلى الأخص ، رفيق نضاله ، وتلميذه (كوفي باكو) رئيس مجلس النواب ، ووزير الدولة للشؤون البرلمانية ، لا يلبث أن يلمح بلا اضطراب ، استقامة الخط الفكري الذي رسمه المثقف الافريقي، ووضوح الهدف السياسي والاجتماعي الذي يقع غير بعيد من متناول التفكير . بل من المؤكد أن هذا التخزين الثقافي الواسع والعميق الذي أخذ به القائد الافريقي نفسه منذ الحداثة ، على ما يبدو من تناقض الاطراف فيه ، لم يزد فكره السياسي النضالي الا وضوحاً حاداً الوضوح في لغة انشائه وفي وضعه موضع التنفيذ ايضاً .

وان المراقب ليزداد شوقاً الى تتبع الدلالات البارزة في صفحة ذلك الوضوح عندما يوقن أن ما من ثقافة مكتسبة دخلت هذا العقل الافريقي الصافي ، إلا وقد عانقت الواقع الاجتماعي والسياسي القائم لتصبح ثقافة وطنية ذات ملامح وأهداف وطنية . بل ان هذه الثقافة المتعاملة مع الواقع المتفاعلة معه ، لتصلح أن تتجاوز طوقها الوطني لتغدو ، كما يشاء لها الرئيس نكروما ، ثقافة افريقية عامة .

واذا ما سمح المراقب لنفسه أن يأخذ

على القائد الافريقي جنوحه نحو الغرور والاعتداد بالنفس، وحشدشارات الزعامة حول شخصه — وبذلك يرميه خصومه — حتى ليطلق تلامذتــــه على مجموعة نظرياته الاجتماعيــــة والسياسية، اسم (النكرومية) بديلا عن تسميــــة الاشتراكيه الافريقيــة ، فان المراقب برغم ذلك، يرى نفسه غير مشجع على التوغل في الاتهام، عندما يتاح له أن يقرأ كتاب نكروما(*) دفاعا عن افريقية، وعن الحرية، وعن الانسان، بلغة صافية حادة، كألسنة اللهب أو أشد مضاء.

من سيرة الرجل

لكي نعرف من اين متح افكاره و (أفرق نظرياته) وجب علينا ان نعلم كيف عاش وناضل، مثلما نعرف ماذا قرأ ودرس ؟! ومع ذلك فليس موضوعنــا دراسة حياة، اكثر مما هو دراسة فكر ونظام حكم وعمل . وقــد نكون بحاجة الى كثير من التأكيد على الزاوية الهامة من نضاله السياسي، في انــــه ظفر على الاستعمار البريطاني في بلاد (ساحل الذهب) بأساليب الديموقراطية البرلمانية واعلن بها جمهورية (غانا) الحرة، تماماً كما استطاع الرئيس سيكوتوره أن يتغلب على الاستعمار الفرنسي بالتصويت والبرلمانية التي كان يظن الاستعمار أنه مخلد بها نفسه ومؤبد حكمه .

منذ عام ١٩٤٧ كان القائد الافريقي يقاوم الاستعمار البريطاني بأساليب حكمه وادارته التي فرضها وجوده . وفي عام ١٩٥١ ظفر حزب نكروما بأكثرية مقاعد المجلس، وكان ابان المعركة الانتخابية بالذات، رهين السجن، لاتهامه بالتحريض على السلطة والاثارة . وفي عام ١٩٥٧ كان ظفر حزبه ساحقاً، تحت انف السلطة الاستعمارية، التي ارغمت على اعلان استقلال ساحل الذهب باسم (غانا) وتولى القائد مسؤوليات رئيس وزراء الدولة . وفي عام ١٩٦٠سن الحزب الحاكم، وبالاساليب الديموقراطية البرلمانية دستوراً جديداً

(*) (افريقية يجب ان تتوحد) (Africa must Unite) وقد نشر بالانكليزية والفرنسية ١٩٦٣—١٩٦٤، ولعله نشر بلغات أخرى .

لغانا، وقذف بالدستور الذي فرضته السلطة الاستعمارية عام ١٩٥٧ . فكان ذلك آخر اثر للاستعمار في الجمهورية الناشئة ، التي انتخب شعبها كوامه نكروما رئيساً لها .

خلال الاعوام الثلاثة الأخيرة ١٩٥٧ — ١٩٦٠ ، وهي الفصول الحاسمة في تاريخ ساحل الذهب ، يحكي الرئيس نكروما بمرارة وألم ، قصة الديموقراطية البرلمانية التي ركبها الاستعمار سبيلا الى هدفها : تجزئــة الوطن الواحد بمنح مقاطعاته امتيازات اقليمية وتوطيــد الزعامات التاريخية السائدة ، وتوهين النضال الوطني بخلق الأحقاد والخصومات عن طريق التنافر الحزبي .

وقد تغلب القائد الافريقي على الامتيازات الاقليمية وزعمائها ، فحولهـــا الى قوة وطنية تشارك في حرب الاستعمار ، بدلاً من ان تكون حرباً على الوحدة الوطنية ، وكان من الممكن أن يكون اقليم (أشانتي)(١) في غانا ، مثل اقليم (كاتنغا) في الكونغو . وتغلب على الجبهات الانتخابية الخاصة بتنظيم حزبي ، أقوى وحداته وفئاتـــه المنظمات النقابية في المدن الكبيرة والصغيرة .

ولم يكن عسيراً على فارضي الديموقراطية الادارية في ساحل الذهب ، أن يفلسفوا اللامركزية ، والامتيـازات الاقليميـة بأنها حاجة اجتماعية تفرضها طبيعة المجتمع الافريقي وتقاليده القبلية . حتى ان المجالس الاقليمية كان من صلاحياتهـــا بموجب دستورهم أن تلغي وترفض اي قـرار يصـــدر عن سلطات العاصمة والحكم المركزي ، بحيث يغدو كل أصــــلاح محاولة عقيمة . (٢)

كذلك لم يكن عسيراً تبرير تعدد الأحزاب بوجود معارضـــة قوية للحزب الحاكم حتى بعد أن استتب الأمر له ، اثر انتخابات ١٩٥٧ . ويكفي تبريراً للمعـارضة ، أنها الى عهد قريب

(١) اقليم هام جغرافيا وتاريخيا ، منحــه الاستعمار امتيازات خاصة ، على أمـــل بلقنة ساحـــل الذهب .

(٢) يقول الرئيس نكروما ان مجلس زعماء الاقليم الذى منحـــه الدستور الاستعماري سلطات واسعة ، يستطيع رفض ادخال الطباعة الحديثة في المنطقة — مثلا — حتى لو قررتها الحكومة المركزية .

كانت جزءاً أساسياً من حركة النضال الوطني. ان التجربة الشاقة التي عاناها الرئيس نكروما وحزبه خلال اعوام ثلاثة من حكم برلماني في ظل الدستور المفروض، قد قررت موقفه السياسي والفكري، ازاء السلطة الاجنبية من جهة، والمعارضة المحلية من جهة ثانية. ولعله في تبرير هذا الموقف يدافع عن نفسه، ضد اتهامه بالدكتاتورية.

وسندرس الآن مبررات الموقف الفكري الذي أعلنه القائد الافريقي من حيث صلة هـــذا الموقف بالسلطة الاستعمارية من جهة، وبالعمل السياسي الداخلي من جهة ثانية. وبذلك يتاح لنا أن نعاشي تطور الفكرة السياسية في تماسها مع الواقع، وتبدلها تبدلا كاملا، حتى لكأنها خلق جديد.

ثنائية الاستعمار والديموقراطية

لم يكن الرئيس نكروما في بـــدء نضاله السياسي، منذ عام ١٩٤٧، عدواً للمبادىء الديموقراطية - الليبرالية الغربية - ولم يكن همه منذ ان اقبل على العمل العام ان يتردى، ويهدر قوى النضال في جدلية التناقض بين أنظمة الحكم، وأشكالها وأنواعها: أجمهورية أم ملكية. بحزب واحد أم بحكم ومعارضة وتعدد حـــزبي؟! كان يتوخى حشد الشعب وتنظيمه حول اوضح المطالب واقربها من فطرته وعفويته، وهي الاستقلال السياسي والوحدة الافريقية، دون أن يتيح أحد الهدفين الاولوية على الآخر، تجنباً للتناقضات الذهنية التي قد تشتت الحشد، وتصرف عن العمل. فالشعب الذي يتاح له أن يستقل يجب أن يعزز الاستقلال بالوحدة. ولا تردد حول أي السبيلين يسلك النضال:

أسبيل توحيد مجموعة من القوى النضاليـــة، عن طريق أحزاب وقيـــادات. أم سبيل التفرد في سوح المعارك ومقابلة المستعمر، عندما تنعدم أسباب اللقاء على نطاق قاري. انما يهم أن تنغرس في جبين الهدف، حقائق أولية، يدور حولها كل حشد وتنظيم وتوجيه وهي أن لاسبيل الى أي اصلاح اجتماعي واقتصادي في أي بلد افريقي، إلا في حمى الاستقلال السياسي. وان

هذا الاستقلال ليس سوى جهد بذل في اتجاه الوحدة ، ووجب أن يستمر بـذله حتى النهاية . بل ان هـــذا الاستقلال ليغدو الآن أكثر تحملاً لمسؤولية العمل القاروي الموحد .

وفي البدء ، انخرط القائد الافريقي نكروما في جميع الحركات الوطنيـــة الاستقلالية التي قاومت الاستعمار البريطاني في ساحل الذهب ، ثم جنح الى تجميع الشعب في (طبقاته الدنيا) كما يقول حول العمـــل السياسي النضالي ، على أساس أن هذا الشعب يؤلف قاعـــدة متينة صالحة للانطلاق ، لأنه بطبيعته ينشد العدل الاجتماعي ورفع مستوى معيشته معاً . وعليه أن يدرك ، ويقنع بأن لا عـــدل ولا عيش كريم في حمى القوة الاستعمارية الغاصبة . وهكذا اقترنت النضالية السياسية منذ يومها الاول ، بالقضية الاجتماعية . ولما شعر رفاق النضال من ارستقراطيي ساحل الذهب — بتسمية نكروما لهم — بأن زميلهم قـــد تخلى عن حلقاتهم الى أقصى اطراف الشعب ، قام التنـــازع حول تصميم خطط النضال ، فانفصـــل نكروما ليؤلف حزب الشعب ، ويسير في قيادته حتى انتخابات عام ١٩٥١ التي منحت بصناديق الاقـــتراع ، أكثرية واضحة لحزبه وبرنامجـــه . واندمغت هذه الاكثرية بطابع القوة ، عندما اكدتها انتخابات ١٩٥٧ وعززتهـــا ثانية فـــا لبثت السلطة الاستعمارية أن عنت لهـــا وقررت منح ساحل الذهب استقلالاً ذاتياً ، بشرط أن تقبل القوى الوطنية دستوراً يضمن حماية جميع المصالح القائمـة . ولم تكن حماية هـذه المصالح ، كما يقول نكروما سوى تكريس للقيادات القبلية الاقليمية ، وعدم اعتراف بوحدة شعب غانا وأرضها . ان الاستعمار لا يتخلى عن مطامعه ، حتى بعد أن يدير ظهره ويرحل . وإنـــه ليتمسك بقشة واحدة ، عسى أن يطفو عليها ذات يوم ويعود .

من هنـا ينظر الرئيس نكروما الى الديموقراطية التي يصدرها الديموقراطيون الغربيون الى الشرق وكأنها ليست سوى وسيلة لبقاء الاستعمار نفسه ، أو بقـاء بيوضه الخبيثة ، في ارض رملية قابلة

لاحتضان البيوض . ولعل الرئيس نكروما أقل القواد الافريقيين انشغالاً بالبحوث النظرية ضد الديموقراطية الليبرالية ، ولعله أكثرهم تسامحاً معها كجملة أفكار وأساليب عمل . وانه ليذكر فيما ذكره أن حزبه الذي سيطر على المجلس بعد عام ١٩٥٧ كان بوسعه منذ الايام الاولى أن يرفع لعنة الدستور المفروض على غانا ويقر تعديله بأكثرية أصوات ثلثي أعضاء المجلس ، وهو يملك هذه الاكثرية . ولكنه تريث ، وصبر ثلاثة أعوام ، حتى لا يتهم بنقض العهود والمواثيق من جهة ، وحتى يتاح له أن يكسب بجانبه قناعة شعبية تشمل جميع أقاليم غانا ، فلا يأتي تعديل الدستور بقرار حزبي ، وبأكثرية برلمانية كأنه امر مفروض فرضاً سياسياً .

ان حساسية القائد الأفريقي تجاه العهود وكلمات الشرف ، حتى في رعاية دستور فرضته السلطة الاستعمارية فرض مساومة ومبايعة قبل الاذن باعلان الاستقلال ، ثم حرصه على فهم الديموقراطيـــة بأوسع مما تؤديـــه القوة الحزبية ، والأكثرية البرلمانية : بالوعي العقلاني ، والقناعة الشعبية الوجدانية الشاملة ـ ان تلك الحساسية وهذا الحرص ، ليؤكدان بكل شدة ، ديموقراطية القائد الأفريقي ، نصاً وروحاً .

... أما أنه قد نفا الديموقراطية في نهاية مطافه معها عام ١٩٦٠ والغى النظام الملكي ، وأعلن جمهورية غانا ، ووحدانية حزب الشعب ، واستن قانوناً ، يبيح مطاردة المعارضة وزج قادتها في السجون ... أما انه قد فعل ذلك ، مثلما فعل قبله وبعده ، كثيرون من القادة الأسيويـــين والأفريقيين الذين سبق أن عرضنا أنظمتهم وتجاربهم وأفكارهم ـ في جولات مضت ـ فيبدو أنه وزملاءه قادة النضال ، قد فرغت من أكفهم الحيل ، وعيت اساليب النظر والعمل ، عندما تأكد لهم أن الدول الاستعمارية انما تزج الاستعمار والديموقراطية معاً في دائرة واحدة ضمن الهدف ، وتضعها على صدرها فوق القلب ، فاما ان يصيبهما سهم النضال معاً ، او يخطؤهما معاً . وقد رأينا في حـــالات عرضناها ، وفي حالات سنعرضها الان ، ان الطعنة الافريقية المسددة ، كان لا بد لها ، لكي تبلغ الاستعمار ، من المرور

بتمزيق الديموقراطية الغربية . لان هذه قد طالما استعملت له كنلاف وقاية ، أو كمنديل تمويه وتعمية . وليس ذلك بذنب القادة المناضلين ، بل ذنب السادة المستعمرين في ان يضحوا بأحسن مالديهم تحت اقدام أسوأ ما لديهم .

ومن هنا ، سننظر الى المسألة من وجهين : الوجه الاول في أن الديموقراطية الغربية ، طالما زجها المستعمرون في آسية وافريقية، بقصد التجزئة والتعمية وتعضيد النفوذ الاستعماري . وسنرى امثلة ذلك فيما رواه الرئيس نكروما عن نضال قومه في سبيل الوحدة الوطنية . والوجه الثاني في أن النظام الديموقراطي الليبرالي برمته، حتى ولو لم يسيء المستعمرون استعماله واستغلاله ، ليس يصلح لباساً لمجتمع متخلف، في عصر الانطلاقات الصاروخية. فليست هذه الشعوب الناشئة ، شعبه ، ولا هذه الظروف ظرفه . كما سنرى في نظرات الرئيس نكروما ايضا .

١ — وجه الممارسة الديموقراطية في المجتمعات القبلية

في الدستور المفروض على الكيسان الغاني الجديد ، باعتبار انه دستور دولة ديموقراطية مستقلة، نص لا يجيز تعديله، قليلا او كثيراً الا بأكثرية ثلثي الأصوات : اصوات عدد الاعضاء ، لا اصوات الحاضرين منهم — بحيث ان معارضة ناشطة ضمن حدود الثلث بزيادة واحد ، تستطيع وهي معتصمة في بيوتها ، ان تحول الى الأبد دون مساس الدستور المقدس . وفي رأي نكروما أن هذا النص مثلما هو كمين استعماري ضد ارادة الشعب فهو احتيال خسيس ضد روح الديموقراطية. ولم يكن يخطر في بال السلطة الاستعمارية ان الحزب النضالي الجديد ، في ظل نظام التجزئة الاقليمية ، سيظفر بقوة الثلثين او اكثر ، ويصبح قادراً على ممارسة الاستقلال ممارسة فعلية ، لا رسمية شكلية فحسب .

على ان الحزب الغاني ، عندما بلغ اشده ، وتحكم بأكثرية المجلس الساحقة، لم تشأ قيادته أن تستعمل قوتها لابطال الدستور الجائر ، بل فضلت أن تهيء الشعب للخطوة التالية ، حيث أنها قد فرضت ان للسلطة الاستعمارية بقايا حظوة

لدى الطبقات الشعبية ـ في المدن وفي الأقاليم على الأخص ـ الموهومة بأن الاستقلال جاء منحة سخية نبيلة .. وان الأكثرية البرلمانية الرسمية لا تكفي وحدها للحصول على قناعة وجدانية تحيط بجميع زوايا الرأي العام ، ولا سيما تلك التي تنبعث منها الاعتبارات والفروض الاقليمية . وبكلام آخر فان القيادة الشعبية النضالية حذرت أن تفرض قرار الثلثين على الثلث، بحسب النص الدستوري الديموقراطي، لانها بالواقع وفي مجال قرار خطير مثل هذا ، تنشد شبه الاجماع لا الاكثرية وحدها. وعندما حان الوقت بعد ثلاثة اعوام من صراع عنيف وعمل دائب ، كان معنى الحين هنا ان القيادة استطاعت ان تكسب بجانبها اصوات زعماء الاقاليم ، الذين وضع الدستور لضمانة زعاماتهم ، او امتيازات مناطقهم ، كلهم او اكثرهم ، فاصبحت الأكثرية ، أقوى من نص دستوري بارتفاعها الى سوية ارادة وطنية حاسمة وهي الارادة التي تمنح وحدها دساتير الانسان قدسيتها العليا وكرامتها التي لا تمس .

بهذا تسقط حجة الحملة الصحافية الغربية المعادية للنضال الوطني ، التي اتخذت اتهام القائد الافريقي بالدكتاتورية موضوعاً لنفيرها . لأن القائد أمعن في احترام الديموقراطية شكلاً وجوهراً حتى جازف بثلاث سنوات من عمر دولة فتيّة ، في سبيل ان يكسب هذه الديموقراطية الشكلية ، جلال الارادة العامة .

ثم ان هذا القائد ليس مرحلياً ، كما يظن ، لأن المرحلية تبعيض وتقسيم ، وتسليم أحياناً . ومسيرته هو لم تكن سوى تجميع الارادة الوطنية في سبيل ممارسة السيادة كلية شاملة ، كالتربص للوثوب . ولو ان هذه السياسة يصح ان توصف بالمرحلية لكان وجب على القائد أن يقف عند الامتيازات الاقليمية والأكثرية الشكلية ، مرحلة للحكم .. الى يوم يتبدل فيه الأمر الواقع ، بتبدل الزمن او يصبح هذا الواقع قانوناً او أعلى : دستوراً ، سواء اراد ذلك ام لم يرد . انما المرحلية ، كما يجب ان تفهم ، ليست سوى انحناء للواقع ، وزهد بالطموح

الشروع ، واتكاء على الظروف وحدها ، وارتداد عن الهدف الشريف المتمنع بحجة ان الاعناق تدق دونه . وليس هذا كله بواقع هذا القائد الافريقي .

أما وجـــه التزوير الذي فرضه الدستور الدخيل بنصوصه انه أخذ بالأمر الواقع في المجتمع الافريقي ، على انه شبيه بالديموقراطية ، والأمر الواقع ـ وهو ليس بالأصل سوى صيغة اجنبية ـ أن المناطق في ساحل الذهب ، تخضع لسلطة الزعماء المحليين الذين نص الدستور على جمعهم فيما يسمى مجلس زعماء الاقاليم Assemblée des Chefs des régions وأعطى كل مجلس اقليم حقوقاً واسعة ، اعجبها حق رفض قرارات السلطة المركزية أو المجلس النيابي .

ان الشكليات الديموقراطية ، تزعم أن هذه اللامركزية هي من عمل النظام الديموقراطي . وقد يكون لهذه الصيغة الديموقراطية أي مغزى ، لو ان المجتمع المقصود لا مركزيته قد بلغ اشده وملك أمره . أما وانها ليست سوى تعبير عن واقع سيء ، هو بدوره وليد سلطة غاصبة ان لم تكن مبرمته ، فهي مكرسته فعلاً ، فقد بطل زعمها المذهبي .

إن المجتمعات المتخلفة في القـــارة الافريقية ، أحوج الى وحدتها الوطنية منهـــا الى اي حاجة ادارية تبعية ، ترد في الصف التالي بالنسبة للأهداف الأساسية . والديموقراطيات العتيقة في الغرب ، كما يقول الرئيس نكروما ، مجهزة كل التجهيز ، لتطبيق نظام واسع اللامركزية وحسبها أن لديهـــا مجالس محلية ، ذات اختصاص وخبرة ، بحيث يصح أن تتولى بنفسها تبعاتها وواجباتها العاجلة في التطوير مما هو عادة من تبعات الحكومة المركزية أما البلد الناشيء ، فهو ملزم بأن ينفذ تخطيطاً تقدمياً واسعاً يشمل جميع المناطق الخاضعة لسيادة الدولة ، ولا يمكن أن يدع مسؤوليات الخطة لمجلس محلي عقيم ، أو جاهل أو صاحب عناد سياسي ضد خطة الدولة في تطوير المجتمع ورص وحدته . ويقول نكروما : عبثاً حاولنا اقنـــاع الانكليز بما ندركه ، فقــد اصروا على خلق المجالس الاقليمية ، بسلطات واسعة

تمكنها من تجاوز الحكومة المركزية ، بحيث يغدو كل تبديل اصلاحي مستحيلا بالممارسة العملية .

تلك هي خدعة من خدع الدول الديموقراطية ـ ولا نقول الديموقراطية ـ ذات المآرب الاخرى في البلاد التي نزحت عنها مكرهة ، وتلك هي نصوص قد يصح انتسابها للروح الديموقراطية انتسابا شكلياً على الأقل . أما أن يبلغ الأمر بالسلطة الاستعمارية التي تشرع دستوراً لدولة مستقلة ذات سيادة ، أن تعين لأحد الأقاليم زعيما باسمه ، دونما حاجة حتى الى الشكلية الديموقراطية التي تنص على أن حاكم الاقليم ينتخبه مجلس الزعماء انتخابا فان ذلك غاية في المكابرة ، والاعتداء على كرامة الديموقراطية . وهذا ماحصل فعلا في تعيين (أزانتهنه) L'asantehêné حاكما لاقليم أشانتي . وبذلك تفشل الدولة الديموقراطية ذات السلطة الاستعمارية حتى في حفظ مظاهرها . وما (الأزانتهنه) الذي سمته السلطة الاستعمارية حاكما لاكبر أقاليم ساحل الذهب ، سوى زعيم قبلي انست السلطة فيه لين الجانب ، واستعداداً للخروج على طوق الحكم المركزي ، بما منح من صلاحيات ، موقوفة على شخصه . لكن الذي حدث خلال الاعوام الثلاثة بين ١٩٥٧ — ١٩٦٠ أن القيادة استمرت في إقامة المجالس المحلية ، وفاقاً للنص الدستوري دون أي تجاوز . وأن (الأزانتهنه) وقف الى جانب القيادة النضاليـــة بدلا من أن يعلن انفصال (الأشانتي) عن الدولة الغانية ، كما هو مرسوم له بمنحه صلاحياته المطلقة . وأن المجالس الاقليمية التي تأسست وفقاً للدستور مالبثت ان اجتمعت وأعلنت حل نفسها بنفسها دون أي تدخل . وهكذا برهن القائد الافريقي أنه قادر على خرق قلب الاستعمار بريشة من جناحه ، وعلى تحقيق أكمل وجوه الديموقراطيـــة بالاجماع ، الذي يجعل حكم الشعب واقعاً ، كما كان يريد ارسطو ، وروسو ، لا مجرد نظر وفرض .

٢ ـ الديموقراطية الغربية ليست نظام المجتمعات المتخلفة

وبرغم ان الرئيس نكروما قد أفرط في التمسك بشروط الممارسة الديموقراطية

حتى لا يتهم بأنه ناكث للعهود خارق للمواثيق، أو ان رضاه بالدستور لم يكن سوى حيلة ، لا يلجأ اليها الا الجبناء فقد كانت أقل التهم التي وجهتها اليه الصحافة الأجنبية إبان معاركه السياسية بين أعوام ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ أنه دكتاتور وعميل شيوعي ، ومخرب . ولقد أغلظت له المعارضة إغلاظاً ،وانحرفت نحو الانفصالية والقبلية ، وممالأة الاستعمار ، في مجالات الخصومة السياسية . وكان الرئيس نكروما يحتكم الى الشعب الذي نظمه ، ليريه بأم العين كيف يريد الاستعمار من جهة والمعارضة المحلية من جهة ثانية ، أن تؤول اليه الأمور في حمى الاستقلال الأبتر، فتتمزق الوحدة الوطنية ، وتغدو السيادة ممارسة شكلية لمظاهر الحكم الوطني .

فاذا صرف النظر عن ممارسة الشكليات الديموقراطية في هذا الوسط الموصوف ، فان ثمة قناعة عبر عنها القائد الافريقي ، وسواه من القادة الافريقيين والأسيويين ، في أن الديموقراطية الغربية برغم أنها نظام اجتماعي وثقافي راق ، تكوّن اجتماعياً واقتصادياً اثر انحلال انظمة الرق والأقطاع والكهانة ، فهي نظام يحمل في صميم تكوينه سمات مجتمعه الذي نشأ فيه ، والظروف التاريخية التي عبر بها وأن ملامحه المجتمعية والتاريخية لا تؤهله لأن يكون نظام كل مجتمع ، في كل ظرف .

إن الغربيين ـ كما يقول نكروما ـ ينظرون الى المجتمع الافريقي من خلال تجاربهم ، ويحللونه بالتوازي مع المجتمع الأوروبي . وهم يغفلون حقيقتين : أولاهما الفترة الزمنية التي مروا بمراحلها حتى بلغوا بتجاربهم الذاتية اوضاعهم الراهنة. والثانية تباين هذين النوعين من المجتمعات تباينا كلياً في المستويات الاقتصادية والاجتماعية الراهنة.

ويقول نكروما عن الغربيين انهم يتناسون ان بريطانيا ـ مثلا ـ لم تصل الى الديموقراطية سلما . فمنذ ثلاثة قرون اسقطت رأس ملك ، لتقوم بثورة بورجوازية ، يقودها كرومويل دكتاتوراً ... ولم يتم لها اثر ذلك ، شيء من اسس الحكم الديموقراطي الا بعد مرور قرنين على تلك الثورة الاولى « ويظن الشعب البريطاني خطأ وتوهما

أن الروح الديموقراطية ملازمة لطبعه، ويمارسها ممارسة عفوية ».

أما الولايات المتحدة الامريكية كما يقول نكروما - فقد لجأت الى حرب أهلية طاحنة، لكي تفرض وحدتها الوطنية. ولا تزال آثار تلك الحرب محفورة في أفكارها ومواقفها. أما دستورها الذي نهض على مبدأ المساواة، فقد مر عليه زمن قبل ان يكون مقبولاً لدى الجميع. بل حتى اليوم لا تزال نصوصه مرفوضة في اقاليم عدة من البلاد ولا تزال امريكا تناضل باستمرار لتشميل المبدأ الديموقراطي.

فاذا ما خطر لباحث او مراقب أن يوازي بين مجتمع افريقي وآخر اوروبي، وجب عليه أن يضع الاول تاريخياً حيث كان الثاني يناضل قديما لاقامة نوع من الحكم الحر، لا أن يطالب من (غانا) اليوم أن تكون من حيث القدرة السياسية مثل امريكا او بريطانيا، او فرنسا

ان الدول الديموقراطية المعاصرة كانت في بدء تكوينها، مجتمعات متخلفة اجتماعيا، وصحياً، وتربوياً، حتى ان إحياء ديموقراطية فيها مع التخلف، كان يبدو عبثاً. فكيف ينهض مجتمع افريقي معاصر، باعباء هذا النوع المعقد من الحكم بينما يجب ان نضيف الى تخلفه، عاملا آخر من عوامل التثبيط هو وجود الاستعمار بشكليه القديم والجديد. ومعلوم أن المجتمعات الاوروبية فيما مضى، كانت سليمة من هذا الداء على الاقل.

سنعود ثانية الى تلخيص آراء القائد الافريقي في الممارسة الديموقراطية من حيث تماسها بآرائه في الاشتراكية ووجوهها وحسبنا في هذا الجانب من الموضوع أن نضيف الى ما قدمنا بعض نظرات القائد في (المعارضة) كعنصر اساسي للممارسة الديموقراطية الليبرالية.

لقد عانى الرئيس نكروما وعايش المعارضة في بلاده منذ عام ١٩٤٧. اي منذ نزل فعلياً الى حلبة العمل السياسي: الى ان تمكن من حيلة سياسية تشبه الاجماع في ظل البرلمانية السائدة، فر منه - هذا الاجماع - الى تعديل الدستور ومنح رئيس الدولة صلاحيات واسعة، مع الغاء المعارضة، وتفريد حزب واحد بالحكم، هو حزبه.

وفي مجال احاديثه عن المعارضة ، يوضح أن بين الأسباب التي تحول دون ممارسة ديموقراطية برلمانية ليبرالية — وهي اسباب كالتخلف ووجود الاستعمار والظرف التاريخي — أن المعارضة نفسها التي عاشت إبان التجربة ، وكان عليها أن تحرص على انجاحها ، حرص الجماعة الحاكمة ، قد ازلت بسمعة المعارضة أذى فادحاً ، عندما اباحت لنفسها كل تخريب ولا شرعية للافادة من سماحة الحكم ورحابة الدستور واضطراب الواقع الوطني . إن معارضة جدية — يقول نكروما ذات نية حسنة ، من شأنها أن تفرض على الحكومة الحفاظ على معنى المسؤولية . اذ الأصل في شرعية المعارضة ان لها والحكم معاً هدفاً مشتركاً لا يخرج بالخصومة الى حالة ضد مصلحة المحكومين ، او المحكوم من اجلهم وهم المواطنون . فالحكم والمعارضة شريكان في دور رئيسي يؤديانه في بناء الكيان وتعجيل تقدمه ، بين وظيفتي البناء والنقد .

وصف الرئيس نكروما المعارضة ، التي عايشها في بلاده ، وصفاً حاداً ودمغها بأنها تعمل لاسقاط الحكومة ، كهدف اساسي من اهدافها ، لا كسبيل الى الاصلاح ، وتحقيق الأحسن والأفضل . اذ كلما ساءت الأحوال ، واضطرب النظام، قوي حظهـــا في بلوغ الحكم مع الخراب واليأس . وان هذه المعارضة التي جوبهت بعجزها عن بلوغ الحكم بالوسائل الدستورية هان لديها كل عنف وارهاب، لأجل بلوغه . فهي معارضة اقليمية انفصالية — قوميا — وهي ارهابية — دستوريا — بحيث تسقط قيمتها كأداة صالحة في المجالين .

والأكثر من ذلك فان نكروما يتهم المعارضة بأنها غدت معارضة للاستقلال الثاني بالذات ، منذ انطرح وهو هذا الشعار في انتخابات عام ١٩٥١ ونجح في كسب اصوات الناخبين حوله . وبذلك فقدت المعارضة هدفها ، ومحورها وباتت تخبط في ليل ، وتنطح في صخر .

ويعترف الرئيس نكروما أن المعارضة البرلمانية — اية معارضة — لا يمكن أن تدور دائماً في حدود المنطق والمعقول ، والهدوء على انها مهما ساءت وتدهورت في الدول

الديموقراطية العتيقة ، لايمكن أن تبلغ الضراوة التي اتصفت بها في غانا ، ضد استقلال البلاد ووحدتها ..

على كل حال ، فان الرئيس نكروما يستند في اقوى مايستند اليه في ضرب المعارضة ، أنه وحزبه ، جماعة قومية مسالمة ، شرعية ، لم تغتصب الحكم ، ولم تهبط عليه من المجهول ، بل قد ظفرت في رعاية البرلمان ، والنظام الديموقراطي ، برضى الرأي العام في صناديق الاقتراع خلال ثلاثة عشر عاماً ، تكفي بتاريخها للتدليل على مايتمتع به الحكم القائم الآن من شعبية ورحابة صدر ، وحرص على حرية الوطن وسلامته وتقدمه .

... فاذا مابلغت حركة النضال الوطني ضد الاستعمار غايتها الاساسية من تحشيد قوى الشعب وتنظيمها وتوحيدها فليس من المعقول أن تتنازل القيادة الوطنية عما غنمته ، لتمزق صفها الى صفين اوحزبها الى حزبين ، من اجل شكلية اساسية من شكليات الديموقراطية البرلمانية .

ويقول الرئيس جوليوس نيريره ، رئيس تنغانيكا ، ملتقيا مع نكروما في هذا الاتجاه ، أنه من غير المعقول ، اللجوء الى تمزيق وحدة النضال الوطني ، وقت الحاجة الماسة اليها ، لأن هذا التمزيق ضرورة برلمانيـــة . ومن الخطأ الظن أن المجتمع الذي لايؤدي هذه الشكلية ، هو مجتمع غير ديموقراطي ، أو لايريد ان يكونه .

ان قادة في افريقية مثـــل نكروما ونيريره ، وسيكوتوره ، يفاخرون بأنهم صرعوا السلطة الاستعمارية ، بينماهم يمارسون الديموقراطية البرلمانية بكل شكلياتها . وانهم وقد تغلبوا على الاستعمار والمعارضة ، خلال تنظيم قوى الشعب ، فليس بوسعهم أن يخلقوا معارضة شكلية فيما بعد او يتسامحوا مع عناصر معارضة ، لم يبق لها في مجـــال العمل السياسي سوى العنف والتخريب ، لأنها معارضة أقل ماتتصف به ، هو الضعف والعجز وما يرافقها من حقد والم اسود .

وفي رأي هؤلاء القادة أن الاجماع الذي بلغوه ديموقراطياً لايتجزأ ، ولايمكن تفصيله الى حكم ومعارضة . ولو أن احد الحزبين في بريطانيا او امريكا ظفر بكامل

أصوات المجلس، لا تخلى عن بعضها للحزب الآخر، ليقال أن الديموقراطية تلازمها (المعارضة). وسيحكم منفرداً.

هذا صحيح. وصحيح ايضاً، أن الاجماع مثلما انه غير قابل للتجزئة، فانه غير قابل للتجميد. فالاجماع في الشرع الديموقراطي البرلماني، لا يعني وقف المعركة الجدلية السياسية عند حد الاجماع الأبتدي. فان قضي على المعارضة في البرلمان بقيت في الشارع، بشتى وسائل التعبير والتجمع المعروفة، الى ان يتاح لها في فرصة قادمة أن تجرب حظوظها مع الرأي العام. فالاجماع، في الشرع البرلماني الليبرالي، حالة طارئة، والمعارضة حالة مستمرة ويجب ان تكون. ولا يجوز احلال الطارىء محل الدائم، بشكل يبيح تجميد الاجماع ابديا، وتصويره بأنه قرار في التفرد بالحكم وتبريره، لازاحة مبدأ (المعارضة) من الساحة، لا لمجرد ازاحة المعارضين انفسهم.

ومهما يكن من شأن اصحاب نظريات الحزب الواحد في آسية وافريقية، وعلى الاخص هذا الفريق الذى نعرض آراءه منهم، فان اشتراكيتهم ليست مجرد رفض للنظرية الديموقراطية الليبرالية، ولو كانت كذلك لضعفت وخسرت كثيراً من قواعدها الفكرية. ولكن الاشتراكية في هذه المجتمعات، حركة ايجابية، ان يكن ازدواج الاستعمار والليبرالية من مبرراتها ومحرضاتها، فان لها بواعثها النظرية والعملية من طبيعة المجتمع والعصر. وسنرى ذلك في شرح نظرية الرئيس نكروما للاشتراكية الافريقية.

وعلى هذا فان بحثنا القادم سيتناول:

اولا ـ الاشتراكية الافريقية نظرياً وعملياً في فلسفة نكروما والتجربة الغانية.

ثانياً ـ ان الاشتراكية في بعض دول افريقية، اذا كان يراد لها ان تنجح نجاحاً مثمراً، فلابد ان تجندها القوة السياسية الافريقية كلها. فالتخطيط الاشتراكي من الضخامة والتكاليف بحيث لاتستطيع ان تنهض به الوحدات الصغيرة في هذا العصر. ومن هنا سنتناول نظرات الرئيس نكروما في الدعوة الى (الوحدة الافريقية).